

الْبَيْتُ وَالْبَيْتَانِ

في

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ صَحِيحِ (السَّنَنِ)

تَأَلَّفَ الْأَسْتَاذُ الذَّكُورُ

أَبِي يَحْيَى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ (الْمَعْلُومِ)

الْمَجْلَدُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ

طه - الْأَنْبِيَاءُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبَيْتِ وَالْبَيْتَانِ

فِي ٧

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ صَحِيحُ الشَّيْخِ

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman
Al-Maghrawi.

عدد الصفحات (40 مجلداً) 22072

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1^{re} الطبعة : الأولى

الكتاب : التدبر والبيان

في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYÂN
FI TAFSÎR AL-QUR'ÂN BI ŞAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis

التصنيف : تفسير

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

مردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة طه

اغراض السورة

قال ابن عاشور: «احتوت من الأغراض على:

التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتحتها، والتنويه بأنه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية؛ فأكثرها في هذا الشأن، والتنويه بعظمة الله تعالى.

وإثبات رسالة محمد ﷺ بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس. فضرب المثل لنزول القرآن على محمد ﷺ بكلام الله موسى ﷺ.

وبسط نشأة موسى، وتأيد الله إياه، ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه.

وإنجاء الله موسى وقومه وغرق فرعون، وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط.

وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى ﷺ، وكل ذلك تعويض بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى ﷺ من النصر على معانديه. فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد من أعرضوا عن القرآن، ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه.

ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان، وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا.

وتسلية النبي ﷺ على ما يقولونه ، وتثبيتته على الدين .
وتخلل ذلك إثبات البعث . وتهويل يوم القيامة ، وما يتقدمه من الحوادث
والأهوال^(١) .

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٦ / ١٨١ - ١٨٢) .

قوله تعالى: ﴿يَسِّرْ لِلَّهِ الرَّخِيصَ طه﴾
 طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَكَ لِمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾

★ غريب الآية:

لِتَشْقَى: الشُّقُوعَة والشَّقَاوَة والشَّقَاء: سُوء الحظ، وهو ضد السعادة، يقال منه: شَقِيَّ يَشْقَى.

يَخْشَى: الخشية: أشد الخوف.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿طه﴾؛ أظهر الأقوال فيه عندي أنه من الحروف المقطعة في أوائل السُّور، ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السورة، جاءتا في مواضع آخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة، أما الطاء ففي فاتحة الشعراء ﴿طسّر﴾ وفاتحة النمل ﴿طنن﴾ وفاتحة القصص، وأما الهاء ففي فاتحة مريم في قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾»^(١).

ثم ذكر رحمه الله أقوالاً أخرى في معنى كلمة (طه) وقال: «وفي قوله ﴿طه﴾ أقوال آخر ضعيفة، كالقول بأنه من أسماء النبي ﷺ. والقول بأن الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية، يقول لنبيه: يا طاهرًا من الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب، وغير ذلك من الأقوال الضعيفة. والصواب إن شاء الله في الآية هو ما صدرنا به، ودل عليه القرآن في مواضع آخر»^(٢).

وقال: «في قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وجهان من التفسير، وكلاهما يشهد له قرآن:

الأول: أن المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. أي لتتعب التعب الشديد

(١) أضواء البيان (٣/٤).

(٢) أضواء البيان (٤/٤).

بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا .

وهذا الوجه جاءت بنحوه آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ ۚ ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بِنِجْمِ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۚ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ بِنِجْمِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ ﴾^(٣) .

والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع من هذا الكتاب المبارك .

الوجه الثاني : أنه ﷺ صلى الليل حتى تورمت قدماه ، فأنزل الله ﴿ مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ ﴾ ، أي : تنهك نفسك بالعبادة وتذيبها المشقة الفادحة . وما بعثناك إلا بالحنيفية السمحة . وهذا الوجه تدل له ظواهر آيات من كتاب الله ، كقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾^(٤) ، وقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ۚ ﴾^(٥) . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وفهم من قوله : ﴿ لِتَشْقَىٰ ۖ ﴾ أنه أنزل عليه ليسعد . كما يدل له الحديث الصحيح : «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٦) . . ويشبه معنى الآية على هذا القول الأخير قوله تعالى : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا يَنْشَرُ مِنْهُ ۚ ﴾^(٧) «^(٨)» .

وقال : «وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ . أظهر الأقوال فيه : أنه مفعول لأجله ، أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة ، أي إلا لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه . والتذكرة : الموعظة التي تلين لها القلوب . فتمثل أمر الله ، وتجنب نهيه .

وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم ، لأنهم هم المنتفعون بها ، كقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۚ ﴾^(٩) ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ۚ ﴾^(١٠) ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ۚ ﴾^(١١) ، فالتخصيص المذكور في

(٢) الكهف : الآية (٦) .

(٤) الحج : الآية (٧٨) .

(٦) سيأتي تخريجه قريباً .

(٨) أضواء البيان (٤/٤) .

(١٠) يس : الآية (١١) .

(١) فاطر : الآية (٨) .

(٣) الشعراء : الآية (٣) .

(٥) البقرة : الآية (١٨٥) .

(٧) المزمل : الآية (٢٠) .

(٩) ق : الآية (٤٥) .

(١١) النازعات : الآية (٤٥) .

الآيات بمن تنفع فيهم الذكرى؛ لأنهم هم المتفعلون بها دون غيرهم. وما ذكره هنا من أنه ما أنزل القرآن إلا للتذكير بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيدَ^(١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، إلى غير ذلك من الآيات^(٣).

قال السعدي: ﴿طه﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتتح بها كثير من السور، وليست اسما للنبي ﷺ.

﴿مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين.

وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلا للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لِمَنْ يَخْشَى﴾ أي: إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة، التي كان مستقرا في عقله حسناتها مجملا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله ﴿نَذِيرٌ﴾، والتذكير لشيء كان موجودا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكير مَنْ يَخْشَى، لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ (١٠) وَنَجِّنَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) (٤) (٥).

قال ابن عاشور: «افتتحت السورة بملاطفة النبي ﷺ بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك، أي تصيبه المشقة ويشده التعب، ولكن أراد أن

(١) التكويد: الآيتان (٢٧-٢٨).

(٢) الأنعام: الآية (٩٠).

(٣) أضواء البيان (٥/٤).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٤٢-١٤٣).

(٤) الأعلى: الآيات (١٠-١٢).

يذكر بالقرآن من يخاف وعيده .

وفي هذا تنويه أيضًا بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما اذكروا بالقرآن»^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل العلم والتفقه في الدين

* عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»^(٢) .

★ فوائد الحديث:

قال السندي : قوله : «فقهه في الدين» ؛ أي جعله فقيهاً فيه ، والفقه هو العلم الذي يترتب عليه الخشية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ لِيَسْفَظَهُوا فِي الَّذِينَ وَلَّيْنَا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾^(٤) ، والله تعالى أعلم^(٥) .

قال الحافظ : «ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين - أي : يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع - فقد حرم الخير . . لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيها ولا طالب فقه ، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير ، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم»^(٦) .

قال ابن القيم : «وهذا يدل على أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيراً ، كما أن من أراد به خيراً ففقهه في دينه ، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيراً إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل ، وأما إن أريد به مجرد العلم ، فلا يدل على أن من فقه في

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٨٤) .

(٢) أخرجه : أحمد (٤/ ٩٢ و ٩٣ و ٩٥ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠١) ، والبخاري (١/ ٢١٧/ ٧١) ، ومسلم (٢/ ٧١٨/ ١٠٣٧) ، وابن ماجه (١/ ٨٠/ ٢٢١) .

(٣) فاطر : الآية (٢٨) .

(٤) هاشم المسند (٢٨/ ٤٩) .

(٥) فتح الباري (١/ ٢١٨) .

(٦) التوبة : الآية (١٢٢) .

الدين فقد أريد به خيراً، فإن الفقه حينئذ يكون شرطاً لإرادة الخير، وعلى الأول يكون موجباً، واللَّهُ أعلم^(١).

قال ابن بطال: «وفيه فضل الفقه في الدين على سائر العلوم، وإنما ثبت فضله، لأنه يقود إلى خشية الله، والتزام طاعته، وتجنب معاصيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢)، وقال ابن عمر -للذي قال له: فقيه-: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة.

ولمعرفة العلماء بما وعد الله به الطائعين، وأوعد العاصين، ولعظيم نعم الله على عباده اشتدت خشيتهم^(٣).



(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٤٦).

(٢) فاطر: الآية (٢٨).

(٣) شرح صحيح البخاري (١/١٥٤).

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ﴿١﴾

★ غريب الآية:

الْعُلَى: جمع عليا، تأنث أعلى، أفعل تفضيل.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ . . أي نزله الله ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾، أي فليس بشعر ولا كهانة، ولا سحر ولا أساطير الأولين، كما دل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٣﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤﴾، والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جدًا معروفة، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥﴾، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٦﴾، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٧﴾، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا» ﴿٨﴾.

قال ابن كثير: «أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيل من رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها» ﴿٩﴾.

قال السعدي: « . . ثم ذكر جلاله هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات المدبر لجميع المخلوقات، أي فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم وعظموه نهاية التعظيم.

وكثيرا ما يقرن بين الخلق والأمر كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ﴿١٠﴾، وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ

(١) الحاقة: الآيات (٤١-٤٣).

(٢) الشعراء: الآية (١٩٢).

(٣) الزمر: الآية (١).

(٤) فصلت: الآية (٢).

(٥) أضواء البيان (٤/٥-٦).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٦٧).

(٧) الأعراف: الآية (٥٤).

يَبْنِيَنَّ^(١)، وذلك أنه الخالق الأمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهى إلا من خالقهم، وأيضا فإن خلقه للخلق فيه من التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئا عبثا، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان^(٢).

* * *

(١) الطلاق : الآية (١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾

★ غريب الآية:

اسْتَوَى: علا وارتفع.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ يقول - تعالى ذكره - : الرحمن على عرشه ارتفع وعلا»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضًا، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل»^(٢).

وانظر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾^(٣) من سورة الأعراف.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في صفة الاستواء وأنها من الصفات الفعلية

★ عن مالك بن أنس أن رجلاً سأل عن قول الله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ كيف استوى؟ قال: فأطرق مالك ثم قال: استواؤه غير مجهول، والفعل منه غير معقول، والمسألة عن هذا بدعة. قال بقي: وحدثنا أيوب بن صلاح المخزومي بالرملة، قال: كنا عند مالك إذ جاءه عراقي، فقال له: يا أبا عبد الله، مسألة أريد أن أسألك عنها؟ فطأ مالك رأسه، فقال له: يا أبا عبد الله، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ كيف استوى؟ قال: سألت عن غير مجهول. وتكلمت في غير معقول، إنك

(١) جامع البيان (١٦/١٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٦٨).

(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

امرؤ سوء، أخرجوه، فأخذوا بضبعيه فأخرجوه^(١).

★ غريب الحديث:

فَأَطْرَقَ: أطرق رأسه: أي أماله وأسكنه.

فَطَأَ طَأً: خفض رأسه.

بِضْبُعَيْهِ: أي بعضديه.

★ فوائد الحديث:

قال ابن تيمية: «القول في الاستواء والنزول، كالقول في سائر الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؛ فإن الله تعالى سَمِيَ نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، سَمِيَ نفسه: حيا، عليما، حكيما، قديرا، سميعا، بصيرا، غفورا، رحима، إلى سائر أسمائه الحسنی.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٣)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَالْعَمَاءُ بَيْنَهَا يَأْتِيهِ﴾^(٥)، أي بقوة، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٦).

وقال عن ملائكته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾^(٧)، وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(٨)، وقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٩)، وقال: ﴿وَعَصَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾^(١٠)، وقال: ﴿سَيَأْتِيكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١١)، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١٢)، وقال: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾^(١٣).

(١) أخرجه: ابن عبد البر في التمهيد (فتح البر ٢/٢٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٣٠٤-٣٠٦/٨٦٦-٨٦٧) وجود إسناد البيهقي الحافظ في الفتح (١٣/٥٠١).

(٢) طه: الآية (٧).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٤) الذاريات: الآية (٤٧).

(٥) غافر: الآية (٧).

(٦) التوبة: الآية (٧٢).

(٧) الأعراف: الآية (١٥٢).

(٨) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٩) الذاريات: الآية (٥٨).

(١٠) الأعراف: الآية (١٥٦).

(١١) البينة: الآية (٨).

(١٢) الفتح: الآية (٦).

(١٣) النساء: الآية (١٦٤).

وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾^(١)، وقال: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾^(٢)، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٣)، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٧). وأمثال ذلك؛ فالقول في بعض هذه الصفات كالقول في بعض.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل؛ ولا تكيف، ولا تمثيل.

فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه؛ ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين؛ بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٨)، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وقال نعيم بن حماد الخزاعي: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها.

ومذهب السلف بين مذهبين، وهدي بين ضاللتين: إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات؛ فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على أهل النفي والتعطيل، فالممثل أعشى، والمعطل أعمى: الممثل يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما.

وقد اتفق جميع أهل الإثبات على أن الله حي حقيقة، عليم حقيقة، قدير حقيقة، سميع حقيقة، بصير حقيقة، مريد حقيقة، متكلم حقيقة؛ حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا: إن الله متكلم حقيقة؛ كما قالوا مع سائر المسلمين - إن الله عليم حقيقة، قدير حقيقة؛ بل ذهب طائفة منهم كأبي العباس الناشي إلى أن هذه الأسماء حقيقة لله مجاز للمخلق.

وأما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية - من الأشعرية الكلابية،

(٢) طه: الآية (٤٦).

(٤) ص: الآية (٧٥).

(٦) البقرة: الآية (٢١٠).

(٨) الشورى: الآية (١١).

(١) الأنعام: الآية (١١٥).

(٣) النساء: الآية (١٣٤).

(٥) المائدة: الآية (٥٤).

(٧) الفجر: الآية (٢٢).

والكرامية، والسالمية، وأتباع الأئمة الأربعة من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، وأهل الحديث، والصوفية- فإنهم يقولون: إن هذه الأسماء حقيقة للخالق ﷻ؛ وإن كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا. ويقولون: إن له علما حقيقة، وقدرة حقيقة، وسمعا حقيقة، وبصرا حقيقة.

وإنما ينكر أن تكون هذه الأسماء حقيقة؛ النفاة من القرامطة الإسماعيلية الباطنية، ونحوهم من المتفلسفة الذين ينفون عن الله الأسماء الحسنى، ويقولون: ليس بحي ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، ولا موجود ولا معدوم؛ فهو لا ومن ضاهاهم ينفون أن تكون له حقيقة. ثم يقول بعضهم: إن هذه الأسماء لبعض المخلوقات، وأنها ليست له حقيقة ولا مجازا.

وهؤلاء الذين يسميهم المسلمون الملاحدة؛ لأنهم ألحدوا في أسماء الله وآياته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾^(٢)، وهؤلاء شر من المشركين الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوَّا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَتُحِينَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾^(٤).

فإن أولئك المشركين إنما أنكروا اسم الرحمن فقط، وهم لا ينكرون أسماء الله وصفاته؛ ولهذا كانوا عند المسلمين أكفر من اليهود والنصارى.

ولو كانت أسماء الله وصفاته مجازا يصح نفيها عند الإطلاق؛ لكان يجوز أن الله ليس بحي، ولا عليم، ولا قدير، ولا سميع، ولا بصير، ولا يحبهم ولا يحبونه، ولا استوى على العرش؛ ونحو ذلك.

ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاق النفي على ما أثبتته الله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات؛ بل هذا جحد للخالق وتمثيل له بالمعدومات. وقد قال أبو عمر بن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار

(٢) فصلت: الآية (٤٠).

(٤) الرعد: الآية (٣٠).

(١) الأعراف: الآية (١٨٠).

(٣) الفرقان: الآية (٦٠).

بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز؛ إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك. ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود لا مثبتون. والحق فيما قاله القائلون بما نطق به الكتاب والسنة، وهم أئمة الجماعة.

وهذا الذي حكاه ابن عبد البر عن المعتزلة ونحوهم هو في بعض ما ينفونه من الصفات، وأما فيما يثبتونه من الأسماء والصفات، كالحي والعليم والقدير والمتكلم فهم يقولون: إن ذلك حقيقة، ومن أنكر أن يكون شيء من هذه الأسماء والصفات حقيقة إنما أنكره لجعله مسمى الحقيقة، أو لكفره وتعطيله لما يستحقه رب العالمين، وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضي أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق؛ فيقال له: هذا باطل؛ فإن الله موجود حقيقة، والعبد موجود حقيقة؛ وليس هذا مثل هذا، والله تعالى له ذات حقيقة، والعبد له ذات حقيقة، وليس ذاته كذوات المخلوقات.

وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة، وللعبد علم وسمع وبصر حقيقة؛ وليس علمه وسمعه وبصره مثل علم الله وسمعه وبصره، ولله كلام حقيقة، وللعبد كلام حقيقة؛ وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين.

ولله تعالى استواء على عرشه حقيقة، وللعبد استواء على الفلك حقيقة؛ وليس استواء الخالق كاستواء المخلوقين؛ فإن الله لا يفتقر إلى شيء ولا يحتاج إلى شيء، بل هو الغني عن كل شيء.

والله تعالى يحمل العرش وحملته بقدرته، ويمسك السموات والأرض أن تزولا. فمن ظن أن قول الأئمة: «إن الله مستو على عرشه حقيقة» يقتضي أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفلك والأنعام، لزمه أن يكون قولهم: إن الله له علم حقيقة، وسمع حقيقة، وبصر حقيقة، وكلام حقيقة، يقتضي أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم^(١).

وقال: «وأما الآية: فقد استفاض أنه سئل عنها مالك بن أنس وقال له السائل:

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٤-١٩٩).

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ فأتى مالك برأسه حتى علاه الرُّحضاء؛ ثم قال: الاستواء معلوم؛ والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ وما أراك إلا مبتدعاً. ثم أمر به فأخرج.

وجميع أئمة الدين: كابن الماجشون، والأوزاعي، والليث بن سعد، وحماد بن زيد، والشافعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم: كلامهم يدل على ما دل عليه كلام مالك؛ من أن العلم بكيفية الصفات ليس بحاصل لنا؛ لأن العلم بكيفية الصفة فرع على العلم بكيفية الموصوف، فإذا كان الموصوف لا تعلم كيفيته امتنع أن تعلم كيفية الصفة.

ومتى جنب المؤمن طريق التحريف والتعطيل، وطريق التمثيل، سلك سواء السبيل؛ فإنه قد علم بالكتاب والسنة والإجماع ما يعلم بالعقل أيضاً أن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يجوز أن يوصف بشيء من خصائص المخلوقين؛ لأنه متصف بغاية الكمال منزّه عن جميع النقائص، فإنه سبحانه غني عن ما سواه، وكل ما سواه مفتقر إليه، ومن زعم أن القرآن دل على ذلك فقد كذب على القرآن؛ ليس في كلام الله سبحانه ما يوجب وصفه بذلك؛ بل قد يؤتى الإنسان من سوء فهمه، فيفهم من كلام الله ورسوله معاني يجب تنزيه الله سبحانه عنها، ولكن حال المبطل مع كلام الله ورسوله كما قيل:

وَكَمْ مِنْ حَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَأَفْتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

ويجب على أهل العلم أن يبينوا نفي ما يظنه الجهال من النقص في صفات الله تعالى، وأن يبينوا صون كلام الله ورسوله عن الدلالة على شيء من ذلك، وأن القرآن بيان وهدى وشفاء؛ وإن ضل به من ضل فإنه من جهة تفريطه، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(١)، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾^(٢)،^(٣).

(١) الإسراء: الآية (٨٢).

(٢) فصلت: الآية (٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٣٩٨-٤٠٠).

قال أبو عمر: «قال يحيى بن إبراهيم بن مزين: إنما كره مالك أن يتحدث بتلك الأحاديث؛ لأن فيها حدا وصفة وتشبيها، والنجاة في هذا: الانتهاء إلى ما قال الله ﷻ، ووصف به نفسه بوجه ويدين ويسط واستواء وكلام فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤُنَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(١) وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٢) وقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾^(٣) وقال: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي﴾ فليقل قائل بما قال الله، ولينته إليه، ولا يعدوه، ولا يفسره، ولا يقل كيف؟ فإن في ذلك الهلاك، لأن الله كلف عبده الإيمان بالتنزيل، ولم يكلفهم الخوض في التأويل الذي لا يعلمه غيره. وقد بلغني عن ابن القاسم؛ أنه لم ير بأسا برواية الحديث: «إن الله ضحك»، وذلك لأن الضحك من الله والتنزل والملاحة والتعجب منه، ليس على جهة ما يكون من عباده»^(٤).

وقال: «وأما ادعاءهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل استوى استولى، فلا معنى له، لأنه غير ظاهر في اللغة. ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله لا يغالبه ولا يعلمه أحد، وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله ﷻ إلى الأشهر والأظهر من وجوه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات، وجل الله ﷻ عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه؛ قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿أَسْتَوِي﴾ قال: علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى: أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد.

قال أبو عمر: الاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله ﷻ، وقال: ﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾^(٥) وقال: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى

(٢) المائدة: الآية (٦٤).

(١) البقرة: الآية (١١٥).

(٣) الزمر: الآية (٦٧).

(٤) التمهيد (فتح البر ٢/ ٢٨-٢٩).

(٥) الزخرف: الآية (١٣).

الْجُودِيِّ^(١) وقال: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ^(٢)﴾، وقال الشاعر:

فَأُورِدْتُهُمْ مَاءً بِفَيْفَاءٍ قَفْرَةٍ وَقَدْ حَلَقَ النَّجْمُ الْيَمَانِيُّ فَاسْتَوَى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى، لأن النجم لا يستولي، وقد ذكر النضر بن شميل - وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة - قال: حدثني الخليل - وحسبك بالخليل - قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا فرد علينا السلام، وقال لنا: استوا، فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال، قال: فقال لنا أعرابي إلى جنبه إنه أمركم أن ترتفعوا، قال الخليل: هو من قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ^(٣)﴾، فصعدنا إليه فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير، فقلنا: الساعة فارقتاه، فقال: سلاما، فلم ندر ما قال: فقال الأعرابي إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر، قال الخليل: هو من قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجِنُّونَ قَالُوا سَلَامًا^(٤)﴾.

وأما نزع من نزع منهم بحديث يرويه عبدالله بن داود الواسطي عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ على جميع بريته، فلا يخلو منه مكان، فالجواب عن هذا: أن هذا حديث منكر عن ابن عباس، ونقلته مجهولون ضعفاء؛ فأما عبدالله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد وضعيفان، وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف، وهم لا يقبلون أخبار الأحاد العدول، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا من الحديث لو عقلوا أو أنصفوا، أما سمعوا الله ﷻ حيث يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿١٣﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا^(٥)﴾، فدل على أن موسى ﷺ كان يقول: إلهي في السماء، وفرعون يظنه كاذبا،

فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَقْدِرُ الْخَلْقُ قَدْرَهُ وَمَنْ هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدُ
مَلِيكَ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيِّمٌ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

(١) هود: الآية (٤٤).

(٢) المؤمنون: الآية (٢٨).

(٣) فصلت: الآية (١١).

(٤) الفرقان: الآية (٦٣).

(٥) غافر: الآيات (٣٦-٣٧).

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت، وفيه يقول في وصف الملائكة:

فَمِنْ حَامِلٍ إِحْدَى قَوَائِمِ عَرْشِهِ وَلَوْلَا إِلَهُ الْخَلْقِ كَلُّوا وَأَبْلَدُوا
قِيَامٌ عَلَى الْأَقْدَامِ عَائُونَ تَحْتَهُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ تَرَعَدُ

.. ومن الحجة أيضًا في أنه ﷺ على العرش فوق السموات السبع؛ أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر، أو نزلت بهم شدة، رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم -تبارك وتعالى-، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم^(١).

* * *

(١) فتح البير (٢/٩-١٢).

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْثَّرَى﴾ ﴿٦﴾

★ غريب الآية:

الْثَّرَى: هو التراب النّدي الذي تحت هذا التراب الظاهر.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أي: الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره»^(١).

قال السعدي: «﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من ملك وإنسي وجني وحيوان وجماد ونبات ﴿وَمَا تَحْتَ الْثَّرَى﴾ أي الأرض، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «خاطب الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة بأنه إن يجهر بالقول، أي يقله جهرة في غير خفاء، فإنه -جل وعلا- يعلم السر وما هو أخفى من السر. وهذا المعنى الذي أشار إليه هنا ذكره في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُمْ وَمَا تَعْلِنُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَأَخْفَى﴾ أوجه معروفة كلها حق ويشهد لها قرآن. قال بعض أهل العلم ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾: أي ما قاله العبد سرا ﴿وَأَخْفَى﴾ أي ويعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما توسوس به نفسه. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٥). وقال بعض أهل العلم: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي ما توسوس به نفسه ﴿وَأَخْفَى﴾ من ذلك، وهو ما علم الله أن الإنسان سيفعله قبل أن يعلم الإنسان أنه فاعله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾^(٦)، وكما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾^(٧)، فالله يعلم ما يسره الإنسان اليوم. وما سيسره غداً. والعبد لا يعلم ما في غد كما قال زهير في معلقته:

وَأَعْلَمَ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمٍ

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَخْفَى﴾ صيغة تفضيل كما بينا، أي ويعلم

(١) الملك: الآية (١٣).

(٢) محمد: الآية (٢٦).

(٣) ق: الآية (١٦).

(٤) النجم: الآية (٣٢).

(٥) النحل: الآية (١٩).

(٦) الفرقان: الآية (٦).

(٧) المؤمنون: الآية (٦٣).

ما هو أخفى من السر .

وقول من قال : إن «أخفى» فعل ماض بمعنى أنه يعلم سر الخلق ، وأخفى عنهم ما يعلمه هو ، كقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ^(١) علماً ظاهر السقوط كما لا يخفى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿وَأِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ﴾ أي فلا حاجة لك إلى الجهر بالدعاء ونحوه ، كما قال تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ تِلْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ^(٣) ^(٤) .

قال ابن كثير : «وقوله : ﴿وَأِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى﴾ أي : أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسماوات العلى ، الذي يعلم السر وأخفى ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٥) ^(٦) .

قال السعدي : «﴿وَأِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ﴾ الكلام الخفي ، «وَأَخْفَى» من السر الذي في القلب ولم ينطق به ، أو السر ما خطر على القلب ، «وَأَخْفَى» ما لم يخطر ، يعلم تعالى أنه يخطر في وقته وعلى صفته . المعنى : أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء دقيقةا وجليلها خفيها وظاهرها ، فسواء جهرت بقولك أو أسرته فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى .

فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه ، وعموم أمره ونهيه ، وعموم رحمته ، وسعة عظمته ، وعلوه على عرشه ، وعموم ملكه ، وعموم علمه ، نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة ، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة ، وعبادة غيره باطلة» ^(٧) .

قال الرازي : «والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة ، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة ، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل

(٢) الأعراف : الآية (٥٥) .

(٤) أضواء البيان (٤/ ٦-٧) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٩) .

(١) طه : الآية (١١٠) .

(٣) الأعراف : الآية (٢٠٥) .

(٥) الفرقان : الآية (٦) .

(٧) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٤-١٤٥) .

السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب ، والسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها ، والأخفى هو الذي لم يبلغ حد العزيمة ، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه ، ويحتمل ما لم يقع في سره بعد فيكون أخفى من السر ، ويحتمل أيضًا ما سيكون من قبل الله تعالى من الأمور التي لم تظهر ، وإن كان الأقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب^(١).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٩/٢٢).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه المعبود وحده، وأن له الأسماء الحسنَى. وبين أنه المعبود وحده في آيات لا يمكن حصرها لكثرتها، كقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١)، وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢).

وبين في مواضع آخر أن له الأسماء الحسنَى، وزاد في بعض المواضع الأمر بدعائه بها، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٣)، وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٤)، وزاد في موضع آخر تهديد من ألحد في أسمائه، وهو قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^{(٥) (٦)}.

قال ابن جرير: «وأما قوله -تعالى ذكره-: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنه يعني به: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، يقول: فإياه فاعبدوا أيها الناس دون ما سواه من الآلهة والأوثان، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يقول -جل ثناؤه-: لمعبودكم أيها الناس الأسماء الحسنَى»^(٧).

قال السعدي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنَى، من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلاما

(١) آل عمران: الآية (٢).

(٣) الأعراف: الآية (١٨٠).

(٥) الأعراف: الآية (١٨٠).

(٧) جامع البيان (١٦/١٤١).

(٢) محمد: الآية (١٩).

(٤) الإسراء: الآية (١١٠).

(٦) أضواء البيان (٧/٤).

محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسننها أنه أمر العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إليه، يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها؛ قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾ (١٠)

★ غريب الآية:

آنست: أي أبصرت، وقيل: آنست: أحسست ووجدت.
قبس: القبس: ما اقتبس من النار، وهو أن يأخذ نارا في طرف عود أو خشبة أو نحوها، يقال: اقتبس نارا يقتبسها اقتباسا، وتلك النار هي القبس وهي الجذوة أيضا.

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ مسليه عما يلقي من الشدة من مشركي قومه، ومعرفة ما إليه صائر أمره وأمرهم، وأنه معلية عليهم، وموهن كيد الكافرين، ويحثه على الجد في أمره، والصبر على عبادته، وأن يتذكر فيما ينوبه فيه من أعدائه من مشركي قومه وغيرهم، وفيما يزاوِل من الاجتهاد في طاعته ما ناب أخاه موسى صلوات الله عليه من عدوه، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل، وما لقي فيه من البلاء والشدة طفلا صغيرا، ثم يافعا مترع رعا، ثم رجلا كاملا ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ ابن عمران ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾ ذكر أن ذلك كان في الشتاء ليلا، وأن موسى كان أضل الطريق؛ فلما رأى ضوء النار قال لأهله ما قال..

وقوله: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ يقول: لعلني أجيئكم من النار التي آنست بشعلة.. وإنما أراد موسى بقوله لأهله: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ لعلني آتيكم بذلك لتصطلبوا به.. وقوله: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ دلالة تدل على الطريق الذي أضللناه، إما من خبر هاد يهدينا إليه، وإما من بيان وعلم نتبينه به ونعرفه»^(١).

قال الشوكاني: «وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق

أحكام النبوة، وتحمل أثقالتها ومقاساة خطوبها، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله»^(١).

قال ابن كثير: «من هاهنا شَرَعَ -تبارك وتعالى- في ذكر قصة موسى عليه السلام، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليُورِي ناراً، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله ييشرهم:

﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذُوقٍ مِّنَ النَّارِ﴾^(٢) وهي الجمر الذي معه لهب،

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٣) دلّ على وجود البرد، وقوله: ﴿يَقْبَسِينَ﴾ دلّ على وجود الظلام. وقوله: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني الطريق، دلّ على أنه قد تاه عن الطريق»^(٤).

قال السعدي: «وكان مطلبه -أي: موسى عليه السلام-، النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثم النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله»^(٥).

* * *

(١) فتح القدير (٣/ ٥٠٦).

(٢) القصص: الآية (٢٩).

(٣) القصص: الآية (٢٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُوسَ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴿١٢﴾ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

★ غريب الآية:

فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ: أي نَحُفَّهما، وأصل الخلع الإزالة والتنحية، والنعل: ما ينتعله الإنسان، أي يلبسه في رجله.
الْمُقَدَّس: المطهر.
طُوًى: هو اسم للوادي.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار واقترب منها، ﴿نُودِيَ يَمْؤُوسَ﴾، وفي الآية الأخرى ﴿نُودِيَكَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْؤُوسَ إِفْتَنَا اللَّهُ﴾^(١)، وقال هاهنا: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي.
وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيمًا للبقعة.

قال سعيد بن جبیر: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة.
وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافيًا غير متعل. وقيل غير ذلك، والله أعلم.
وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي.
وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان. وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه. وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت، والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾^(٢)،^(٣).

(٢) النزاعات: الآية (١٦).

(١) القصص: الآية (٣٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٠-٢٧١).

قال السعدي: ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ أي: النار التي أنسها من بعيد، وكانت -في الحقيقة- نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»^(١)، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾^(٢) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه؛ لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أن الله اختاره لمناجاته كليمة موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار»، فالله أعلم بذلك»^(٣).

قال الرازي: «ليس في الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف في النعل، والصحيح عدم الكراهة، وذلك لأننا إن عللنا الأمر بخلع النعلين بتعظيم الوادي وتعظيم كلام الله، كان الأمر مقصوراً على تلك الصورة»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الصلاة في النعال

* عن علقمة أن عبد الله بن مسعود أتى أبا موسى الأشعري في منزله، فحضرت الصلاة، فقال أبو موسى ﷺ: تقدم يا أبا عبد الرحمن، فإنك أقدم سناً وأعلم. قال: لا، بل تقدم أنت، فإنما أتيناك في منزلك ومسجدك، فأنت أحق، قال: فتقدم أبو موسى ﷺ فخلع نعليه، فلما سلم قال: ما أردت إلى خلعهما؟ أبالواد المقدس أنت؟! لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلي في الخفين والنعلين»^(٥).

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «قوله: «يصلي في نعليه» قال ابن بطلال: هو محمول على ما إذا

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٠٠-٤٠١) ومسلم (١/١٦٢-١٦١) وابن ماجه (١/٧٠/١٩٥) من حديث أبي

موسى الأشعري ﷺ. (٢) مريم: الآية (٥٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٤٦-١٤٧). (٤) مفاتيح الغيب (٢٢/١٩).

(٥) أخرجه: أحمد (١/٤٦٠-٤٦١) والطحاوي (١/٥١١) والطبراني في الكبير (٩/٢٥٥/٩٢٦٢). وأخرجه

مختصراً ابن أبي شيبة (٢/٤١٧-٤١٨) وعبد الرزاق (١/٣٨٦/١٥٠٧) والطبراني (٩/٢٥٥/٩٢٦١) وابن

ماجه (١/٣٣٠/١٠٣٩) والحديث صححه الشيخ الألباني.

لم يكن فيهما نجاسة، ثم هي من الرخص كما قال ابن دقيق العيد لا من المستحبات؛ لأن ذلك لا يدخل في المعنى المطلوب من الصلاة، وهو وإن كان من ملابس الزينة، إلا أن ملاسته الأرض التي تكثر فيها النجاسات قد تقصر عن هذه الرتبة، وإذا تعارضت مراعاة مصلحة التحسين ومراعاة إزالة النجاسة قدمت الثانية؛ لأنها من باب دفع المفاسد، والأخرى من باب جلب المصالح. قال: إلا أن يرد دليل بإلحاقه بما يتجمل به فيرجع إليه ويترك هذا النظر. قلت: قد روى أبو داود والحاكم من حديث شداد بن أوس مرفوعاً: «خالقوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم»^(١) فيكون استحباب ذلك من جهة قصد المخالفة المذكورة^(٢).

قال ابن القيم: «فأمره سبحانه أن يعظم ذلك الوادي بالوطء فيه حافياً كما يوطأ بساط الملك، وصار ذلك سنة في بني إسرائيل في مواضع صلواتهم وكنائسهم، وشريعتنا جاءت بخلاف ذلك، فصلى النبي ﷺ في النعلين، وأمر أصحابه أن يصلوا في نعالهم»^(٣).

قال ابن تيمية: «أما الصلاة في النعل ونحوه مثل الجمجم والمداس والزربول وغير ذلك، فلا يكره؛ بل هو مستحب؛ لما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يصلّي في نعليه. وفي السنن عنه أنه قال: «إن اليهود لا يصلون في نعالهم فخالقوهم» فأمر بالصلاة في النعال مخالفة لليهود. وإذا علمت طهارتها لم تكره الصلاة فيها باتفاق المسلمين، وأما إذا تيقن نجاستها فلا يصلّي فيها حتى تطهر. لكن الصحيح أنه إذا ذلك النعل بالأرض طهر بذلك. كما جاءت به السنة، سواء كانت النجاسة عذرة أو غير عذرة. فإن أسفل النعل محل تكرر ملاقة النجاسة له، فهو بمنزلة السبيلين، فلما كان إزالته عنها بالحجارة ثابتاً بالسنة المتواترة فكذلك هذا»^(٤).

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٧/١) وصححه ابن حبان (٢١٨٦/٥٦١/٥) والحاكم (٢٦٠/١) ووافقه الذهبي

من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري (٦٥١/١).

(٣) مدارج السالكين (٤١٩/٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٢١/٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾^(١) أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه..
وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أي: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك. ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وحدني وقم بعبادتي من غير شريك، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل معناه: صل لتذكرني. وقيل معناه: أقم الصلاة عند ذكرك لي^(٢).
قال السعدي: «﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أي: ألق سمعك للذي أوحى إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبداه، وعماد الدعوة الإسلامية. ثم بين الذي يوحيه إليه بقوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفؤ ولا سمي، ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح.

وقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ اللام للتعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛ لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وبه عبودية القلب، وبه سعاده، فالقلب المعطل عن

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧١).

(١) الأعراف: الآية (١٤٤).

ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصا الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْنِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(١) أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيا عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده^(٢).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾، حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾^(٣)، وذم على خلاف هذا الوصف فقال: ﴿تَحْنُ أَعْلَى بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾^(٤) الآية.

فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدبا لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٥)، وقال ها هنا: ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾؛ لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى.

روي عن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

وقال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر.

فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورا^(٦).

وقال: «اختلف في تأويل قوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ فقيل: يحتمل أن يريد لتذكرني

(١) العنكبوت: الآية (٤٥).

(٢) الزمر: الآية (١٨).

(٣) الأعراف: الآية (٢٠٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/١١٨).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٤٧-١٤٨).

(٦) الإسراء: الآية (٤٧).

فيها ، أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى المفعول .

وقيل : المعنى : أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة . وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى الله تعالى ، وقيام بين يديه ، وعلى هذا فالصلاة هي الذكر . وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا في قوله : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(١) . وقيل : المراد إذا نسيت فتذكرت فصل كما في الخبر : « فليصلها إذا ذكرها »^(٢) ؛ أي لا تسقط الصلاة بالنسيان^(٣) .

قال أبو السعود : ﴿ وَأَقِرْ الصَّلَاةَ ﴾ ، خُصت الصلاة بالذكر وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة - لفضلها وإنافيتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ لِذِكْرِي ﴾ أي : لتذكرني ، فإن ذكري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة ، أو لتذكرني فيها لاشتمالها على الأذكار ، أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري ، أو لإخلاص ذكري وابتغاء وجهي لا ثرائي بها ولا تقصيد بها غرضا آخر ، أو لتكون ذاكرة لي غير ناس^(٤) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن من نام عن صلاة أو نسيها أنه يصلّيها متى ذكرها

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك » ﴿ وَأَقِرْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾^(٥) .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليله ، حتى إذا أدركه الكرى عرس ، وقال لبلال : « اكأ لنا الليل » ، فصلّى بلال ما قدر له . ونام رسول الله ﷺ وأصحابه . فلما تقارب الفجر ، استند بلال إلى راحلته مؤاوجه

(١) الجمعة : الآية (٩) .

(٢) سيأتي تخريجه .

(٣) تفسير أبي السعود (٨/٦) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١٩/١١) .

(٥) أخرجه : أحمد (٢٦٩/٣) ، والبخاري (٥٩٧/٨٩/٢) ، ومسلم (٦٨٤/٤٧٧/١) ، وأبو داود (٣٠٧/١) -

(٤٤٢/٣٠٨) ، والترمذي (١٧٨/٣٣٦-٣٣٥/١) ، والنسائي (٦١٢/٣١٩/١) ، وابن ماجه (٦٩٦/٢٢٧/١) .

الفجر . فغلبت بلالا عيناه وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ، ولا بلال ، ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس . فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظا ، ففزع رسول الله ﷺ فقال : «أي بلال !» فقال بلال : أخذ بنفسي الذي أخذ -بأبي أنت وأمي يا رسول الله- بنفسك . قال : «اقتادوا» فاقْتادوا رواحِلهم شيئا . ثم توضأ رسول الله ﷺ . وأمر بلالا فأقام الصلاة . فصلى بهم الصبح . فلما قضى الصلاة قال : «من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾» . قال يونس : وكان ابن شهاب يقرؤها للذكرى^(١) .

★ غريب الحديث:

قفل : أي : رجع ، والقفل : الرجوع .

الكرى : النعاس وقيل : النوم .

عرس : التعريس : نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة .

اكلاً لنا : اكلاً لنا الفجر : أي ارقبه واحفظه واحرسه .

مواجهه الفجر : أي مستقبله .

اقتادوا : أي قودوا رواحلكم لأنفسكم آخذين بمقاودها .

★ فوائد الحديثين:

قال النووي : «فيه وجوب قضاء الفريضة الفاتئة سواء تركها بعذر كنوم ونسيان ، أم بغير عذر ، وإنما قيد في الحديث بالنسيان لخروجه على سبب ؛ لأنه إذا وجب القضاء على المعذور فغيره أولى بالوجوب ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، وأما قوله ﷺ : «فليصلها إذا ذكرها» فمحمول على الاستحباب فإنه يجوز تأخير قضاء الفاتئة بعذر على الصحيح . . . وشذ بعض أهل الظاهر فقال : لا يجب قضاء الفاتئة بغير عذر ، وزعم أنها أعظم من أن يخرج من وبال معصيتها بالقضاء ، وهذا خطأ من قائله وجهالة ، والله أعلم»^(٢) .

(١) أخرجه : أحمد (٤٢٨-٤٢٩/٢) ، ومسلم (٤٧١/١) ، وأبو داود (٣٠٢-٣٠٣/١) ، (٤٣٦-٤٣٥) ، والترمذي (٣١٦٣/٥) ، والنسائي (٣٢٤/١) مختصراً ، وابن ماجه (٢٢٧-٢٢٨/١) .

(٢) شرح مسلم (١٥٦/٥) .

وقال الحافظ: «والقائل بأن العامد لا يقضي لم يرد أنه أخف حالا من الناسي، بل يقول: إنه لو شرع له القضاء لكان هو والناسي سواء، والناسي غير مأثوم بخلاف العامد، فالعامد أسوأ حالا من الناسي، فكيف يستويان؟ ويمكن أن يقال: إن إثم العامد بإخراجه الصلاة عن وقتها باق عليه ولو قضاها، بخلاف الناسي فإنه لا إثم عليه مطلقاً، ووجوب القضاء على العامد بالخطاب الأول؛ لأنه قد خوطب بالصلاة وترتبت في ذمته فصارت ديناً عليه، والدين لا يسقط إلا بأدائه، فيأثم بإخراجه لها عن الوقت المحدود لها، ويسقط عنه الطلب بأدائها، فمن أفطر في رمضان عامداً، فإنه يجب عليه أن يقضيه مع بقاء إثم الإفطار عليه، والله أعلم»^(١).

وقال: «واختلف في المراد بقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾، ف قيل: المعنى لتذكرني فيها. وقيل لأذكرك بالمدح، وقيل: إذا ذكرتها، أي لتذكيري لك إياها، وهذا يعضد قراءة من قرأ: ﴿لِذِكْرِي﴾. وقال النخعي: اللام للظرف، أي: إذا ذكرتني، أي إذا ذكرت أمري بعدما نسيت، وقيل: لا تذكر فيها غيري، وقيل شكراً لذكري، وقيل المراد بقوله: ذكري، ذكر أمري، وقيل: المعنى إذا ذكرت الصلاة فقد ذكرتني، فإن الصلاة عبادة لله، فمتى ذكرها ذكر المعبود، فكأنه أراد لذكر الصلاة. وقال الثوري: الأولى أن يقصد إلى وجه يوافق الآية والحديث، وكأن المعنى: أقم الصلاة لذكرها، لأنه إذا ذكرها ذكر الله تعالى، أو يقدر مضاف، أي لذكر صلاتي، أو ذكر الضمير فيه موضع الصلاة لشرفها»^(٢).

قال ابن رجب: «وأما تلاوته قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ وقد رواه قتادة مرة فقال: ﴿لِذِكْرِي﴾، ومرة قال: ﴿لِذِكْرِي﴾ كما هي القراءة المتواترة. وكان الزهري أيضاً - يقرأها: ﴿لِلذِّكْرِ﴾».

وهذه القراءة أظهر في الدلالة على الفور؛ لأن المعنى: أذ الصلاة حين الذكري، والمعنى: أنه يصلي الصلاة إذا ذكرها. وبذلك فسرها أبو العالية والشعبي والنخعي. وقال مجاهد: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾: أي: تذكرني. قال: فإذا صلى عبد ذكر ربه.

ومعنى قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي: لأجل ذكري بها، والصلاة إنما

فرضت ليذكر الله بها . . فأوجب الله على خلقه كل يوم وليلة أن يذكره بخمس مرار بالصلاة المكتوبة، فمن ترك شيئاً من ذكر الله الواجب عليه سهواً فليعُد إليه إذا ذكره كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾^(١)، فقد أمره إذا نسي ربه أن يذكره بعد ذلك، فمن نسي الصلاة فقد نسي ذكر ربه، فإذا ذكر أنه نسي فليعد إلى ذكر ربه بعد نسيانه^(٢).

قال القرطبي: «قوله: «فليصلها إذا ذكرها» دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قلت، وهو مذهب عامة العلماء. وقد حكي خلاف شاذ لا يعتد به، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء.

قلت: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، ونص على أوقات معينة، فقال: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّنَةِ﴾^(٣) الآية وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقاً لما أمر به، ولا ثواب له على فعله وهو عاص؛ وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قوله -عليه الصلاة والسلام-: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء؛ لأن القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول . . . فأما من ترك الصلاة متعمداً، فالجمهور أيضاً على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصياً إلا داود. ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي، حكاه عنه ابن القصار. والفرق بين المتعمد والناسي والنائم، حط المأثم؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون. والحجة للجمهور قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٤) ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. وهو أمر يقتضي الوجوب. وأيضاً فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مأثومين، فالعامة أولى^(٥).



(٢) فتح الباري لابن رجب (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٤) البقرة: الآية (٤٣).

(١) الكهف: الآية (٢٤).

(٣) الإسراء: الآية (٧٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١١٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ
﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ ﴿١٦﴾

★ غريب الآية:

أخفيها: أسترها، والإخفاء: الستر والتغطية.

تسعى: تكسب.

فتردى: أي فتهلك، والردى: الهلاك.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : إن الساعة التي يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة جائية ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ، فعلى ضم الألف من أخفيها قراءة جميع قراء أمصار الإسلام، بمعنى: أكاد أخفيها من نفسي، لئلا يطلع عليها أحد، وبذلك جاء تاويل أكثر أهل العلم . . وقال آخرون: إنما هو: «أَكَادُ أُخْفِيهَا» بفتح الألف من أخفيها بمعنى: أظهرها . . قال أبو جعفر: والذي هو أولى بتاويل الآية من القول، قول من قال: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، لأن تاويل أهل التاويل بذلك جاء، والذي ذكر عن سعيد بن جبير من قراءة ذلك بفتح الألف قراءة لا أستجيز القراءة بها لخلافها قراءة الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به نقلا مستفيضا .

فإن قال قائل: ولم وجهت تاويل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ بضم الألف إلى معنى: أكاد أخفيها من نفسي، دون توجيهه إلى معنى: أكاد أظهرها، وقد علمت أن للإخفاء في كلام العرب وجهين: أحدهما الإظهار، والآخر الكتمان، وأن الإظهار في هذا الموضع أشبه بمعنى الكلام، إذ كان الإخفاء من نفسه يكاد عند السامعين أن يستحيل معناه، إذ كان محالا أن يخفي أحد عن نفسه شيئا هو به عالم، والله - تعالى ذكره - لا يخفي عليه خافية؟ قيل: الأمر في ذلك بخلاف ما ظننت، وإنما

وَجَّهْنَا معنى ﴿أَخْفِيَا﴾ بضم الألف إلى معنى: أسترها من نفسي، لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب: الستر. يقال: قد أخفيت الشيء: إذا سترته، وأن الذين وجَّهوا معناه إلى الإظهار، اعتمدوا على بيت لامرئ القيس ابن عابس الكندي؛ حدثت عن معمر بن المثنى أنه قال: أنشدني أبو الخطاب، عن أهله في بلده:

فَإِنْ تُدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نُخْفِيهِ وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لَا نَقْعُدُ

بضمّ النون من لا نخفه، ومعناه: لا نظهره، فكان اعتمادهم في توجيه الإخفاء في هذا الموضع إلى الإظهار على ما ذكروا من سماعهم هذا البيت، على ما وصفت من ضمّ النون من نخفه، وقد أنشدني الثقة عن الفراء: (فَإِنْ تُدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نُخْفِيهِ) بفتح النون من نخفه، من خفيته أخفيه، وهو أولى بالصواب لأنه المعروف من كلام العرب.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الفتح في الألف من أخفيها غير جائز عندنا لما ذكرنا، ثبت وصحّ الوجه الآخر، وهو أن معنى ذلك. أكاد أسترها من نفسي. وأما وجه صحة القول في ذلك، فهو أن الله -تعالى ذكره- خاطب بالقرآن العرب على ما يعرفونه من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم، فلما كان معروفا في كلامهم أن يقول أحدهم إذا أراد المبالغة في الخبر عن إخفائه شيئا هو له مسرّ: قد كدت أن أخفي هذا الأمر عن نفسي من شدة استسراي به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيته، خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك من الكلام بينهم، وما قد عرفوه في منطقهم، وقد قيل في ذلك أقوال غير ما قلنا.

وإنما اخترنا هذا القول على غيره من الأقوال لموافقة أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين، إذ كنا لا نستجيز الخلاف عليهم، فيما استفاد القول به منهم، وجاء عنهم مجيئا يقطع العذر، فأما الذين قالوا في ذلك غير قولنا ممن قال فيه على وجه الانتزاع من كلام العرب، من غير أن يعزوه إلى إمام من الصحابة أو التابعين، وعلى وجه يحتمل الكلام غير وجهه المعروف، فإنهم اختلفوا في معناه بينهم، فقال بعضهم: يحتمل معناه: أريد أخفيها، قال: وذلك معروف في اللغة، وذكر أنه حُكي عن العرب أنهم يقولون: أولئك أصحابي الذين أكاد أنزل عليهم،

وقال: معناه: لا أنزل إلا عليهم. قال: وحكي: أكاد أبرح منزلي: أي ما أبرح منزلي، واحتج بيت أنشده لبعض الشعراء:

كَادَتْ وَكِدْتُ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى
وقال: يريد: بكادت: أرادت، قال: فيكون المعنى: أريد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. قال: ومما يُشبه ذلك قول زيد الخيل:

سريع إلى الهيجاء شاكٍ سلاحه فَمَا أَنْ تَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ
وقال: كأنه قال: فما يتنفس قرنه، وإلا ضعف المعنى، قال: وقال ذو الرمة:
إِذَا غَبَرَ النَّأْيُ الْمُجِيبِينَ لَمْ يَكَدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَبَّةٍ يَبْرُحُ
قال: وليس المعنى: لم يكديبرح: أي بعدئسر، ويبرح بعد عسر؛ وإنما المعنى: لم يبرح، أو لم يرد يبرح، وإلا ضعف المعنى؛ قال: وكذلك قول أبي النجم:

وَإِنْ أَنَاكَ نَعِيٍّ فَانْدُبَنَّ أَبَا قَدْ كَادَ يَضْطَلِعُ الْأَعْدَاءُ وَالْخُطَبَا
وقال: يكون المعنى: قد اضطلع الأعداء، وإلا لم يكن مدحا إذا أراد كاد ولم يرد يفعل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إن الساعة آتية أكاد، قال: وانتهى الخبر عند قوله أكاد لأن معناه: أكاد أن آتي بها، قال: ثم ابتداء فقال: ولكنني أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، قال: وذلك نظير قول ابن ضابي:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عِشْمَانَ تَبْكِي أَقَارِبُهُ
فقال: كدت، ومعناه: كدت أفعل.

وقال آخرون: معنى ﴿أَخْفِيهَا﴾ أظهرها، وقالوا: الإخفاء والإسرار قد توجههما العرب إلى معنى الإظهار، واستشهد بعضهم لقليله ذلك بيت الفرزدق:

فَلَمَّا رَأَى الْحَبَجَاجَ جَرَدَ سَيْفَهُ أَسْرَ الْحَرُورِيِّ الَّذِي كَانَ أَضْمَرَ
وقال: عنى بقوله: أسر: أظهر. قال: وقد يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿وَأَسْرُوا أَلَدَامَةً﴾^(١) وأظهروها، قال: وذلك أنهم قالوا: ﴿يَلَيْتُنَا تَرَدُّ وَلَا تُكَذِّبَ يَأْتِي

(١) يونس: الآية (٥٤).

رَبَّنَا^(١). وقال جميع هؤلاء الذين حكينا قولهم: جائز أن يكون قول من قال: معنى ذلك: أكاد أخفيها من نفسي، أن يكون أراد: أخفيها من قلبي ومن عندي، وكل هذه الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا توجيه منهم للكلام إلى غير وجهه المعروف، وغير جائز توجيه معاني كلام الله إلى غير الأغلب عليه من وجوهه عند المخاطبين به، ففي ذلك مع خلافهم تأويل أهل العلم فيه شاهد عدل على خطأ ما ذهبوا إليه فيه. وقوله: ﴿لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾، يقول -تعالى ذكره-: إن الساعة آتية لتجزى كل نفس: يقول: لتثاب كل نفس امتحنها ربها بالعبادة في الدنيا بما تسعى، يقول: بما تعمل من خير وشر، وطاعة ومعصية، وقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾، يقول -تعالى ذكره-: فلا يردنك يا موسى عن التأهب للساعة، ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾، يعني: من لا يقرب بقيام الساعة، ولا يصدق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا. وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يقول: اتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهيه ﴿فَتَرَدَّى﴾، يقول: فتهلك إن أنت انصدت عن التأهب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصد من كفر بها، وكان بعضهم يزعم أن الهاء والألف من قوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ كناية عن ذكر الإيمان، قال: وإنما قيل عنها وهي كناية عن الإيمان كما قيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَلُّوهُ رَبَّيْكُمْ﴾^(٢) يذهب إلى الفعل، ولم يجر للإيمان ذكر في هذا الموضع، فيجعل ذلك من ذكره، وإنما جرى ذكر الساعة، فهو بأن يكون من ذكرها أولى^(٣).

قال السعدي: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي: لا بد من وقوعها، ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَكْ أَلْنَأْسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَعِنْدُ عِلْمِ السَّاعَةِ﴾^(٥)، فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة ﴿لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(٦)، ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى﴾؛ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل

(٢) النحل: الآية (١١٠).

(٤) الأحزاب: الآية (٦٣).

(٦) النجم: الآية (٣١).

(١) الأنعام: الآية (٢٧).

(٣) جامع البيان ١٦/١٤٩-١٥٣.

(٥) الزخرف: الآية (٨٥).

لذلك، من كان كافرا بها، غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه، متبعا في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئا من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله وكون النفوس مجبولة على التشبه، والافتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك. وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقدته بنقصها، أو نقص شيء منها. وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿فَرَدَّيْ﴾ أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد عنها^(٢).

قال الزمخشري: «يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير؛ إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيرا من البعث، فلا يهلونك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه، لا البرهان وتدبره. وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله»^(٣).

قلت: هذه كلمة ذهبية من إمام أهل اللغة الزمخشري المعتزلي، والحكمة ضالة المؤمن لا يميز فيها بين قائل وقائل، ومن وافق الحق يستفاد من كلامه وإن انتسب إلى ما انتسب إليه من فرقة أو مذهب، وربما ديانة، فقد ذكر الله تعالى في القرآن أقوال كثير من الحكماء، ومواقف كثير من الرجال؛ فذكر إمام الحكماء لقمان،

(١) المائدة: الآية (٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٤٨/٥-١٥٠).

(٣) الكشاف (٥٣٣/٢).

كما ذكر قصة الرجل الذي نصح للرسول الثلاثة، وبين لقومه سوء عقيدة الشرك، وفضيلة التوحيد، وكمؤمن آل فرعون الذي ملأت قصته أكثر سورة غافر، لما فيها من العبر والمواعظ والمناظرات الطيبة، فهذا تعليم لأمة محمد ﷺ أن تستفيد ممن قبلها من الأنبياء والرسول والصالحين والأخيار. والإمام ابن تيمية في كتابه الحموية ذكر كثيراً من أقوال المخالفين في العقيدة، واحتج بها.

والشاهد أن العاقل لا يستنكف من الفائدة مهما عظم جرم المخالف، وما أفاده الزمخشري في هذه الكلمة هي خلاصة مفيدة للداعية إلى الله في كل زمان ومكان، وأن الأمم على كثرتها وتعدد أجناسها ترفض الحق الواضح الذي قام الدليل العقلي والشرعي والفطري على إثباته. هذا أولاً.

الثاني: أن الإنسان دائماً ما يكون عدو من يعارض شبهته أو شهوته، فيدافع بكل ما أوتي من أدلة ولو كانت باطلة.

الثالث: أن الهوى داء، فمهما حل بقلب إنسان فإنه يصرفه عن الحق، ولا يتركه يلتفت إلى غيره، وهو مزية الرجال، ولهذا تجد الصدر الأول الذين تشرفوا بنور النبوة، يقل فيهم هذا الأمر، بل يكاد ينمحي، لكن لما يبعد المرء عن مصدره الوحي؛ الكتاب والسنة، ويطول الأمد، ويبعد الزمان؛ ينشط هذا الداء ويكثر.

الرابع: أن العناية بالدليل من الكتاب والسنة، ينور البصائر، ويزيل عنها الغشاوة، والزمخشري -غفر الله له- وإن حث على الدليل في كلمته هذه، ما أوقعه في الاعتزال المقيت إلا بعده عنه، فمن قرأ تفسيره، وبقية كتبه، يجده لا يعرف قلامة ظفر من علم الحديث.

الخامس: أن التقليد داء وجرب مُرْد، ومرض فتاك، يقتل الجماعة والأمم، فهو كمرض الطاعون، فلهذا هلكت به الأمم السابقة واللاحقة.

السادس: أن الكثرة لا ينبغي للداعية أن يغتر بها، فهي ميزان السفهاء والجهال، الذين يتسوقون بها للدنيا، وهي سلعة الأمم والدول المعاصرة والجماعات، فلا خير في كثرة لا تقوم على حق.

السابع: أن الله تعالى أقام على البعث من الحجج والأدلة ما يفهم البكم والصم والعمي، ولكنه العناد والرد، كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
فالبعث ثابت، وأدلتة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وليس عند
المخالف ما يناقضها، فهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن موجودا قبل وجود أمه
وأبيه. فمن الذي جعل من ذرة المني هذا البشر السوي، الناطق المتكلم، الذي
يقود الأرض بكل أنواع القيادات، ومن الذي سيفنيه، بعد نهاية أمدّه، أليست هذه
أسئلة يطرحها كل عاقل؟! فَمَنْ الَّذِي يُعْجِزُ مِنْ هَذِهِ قُدْرَتُهُ أَنْ يُعِيدَ الْإِنْسَانَ كَمَا
كَانَ؟! ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيرُ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ
 أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

★ غريب الآية:

أَتَوَكَّؤُا: أي أتكى وأعتمد، وحقيقته من الوكاء وهو رباط الشيء، فمعنى: توكأ على العصا: تسدد بها وتقوى.

أَهْشُّ: أي أخبط الشجر ليتناثر ورقه فترعاه الغنم.

مَنَازِبُ: المثارب الحاجات والمنافع، جمع مأزبة أو مأزبة بالضم أو الفتح.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما هذه التي في يمينك يا موسى؟ . . . ولعل قائلًا أن يقول: وما وجه استخبار الله موسى عما في يده؟ ألم يكن عالما بأن الذي في يده عصا؟ قيل له: إن ذلك على غير الذي ذهبت إليه، وإنما قال ذلك -عز ذكره- له إذ أراد أن يحولها حية تسعى، وهي خشبة، فنبهه عليها، وقرّره بأنها خشبة يتوكأ عليها، ويهشّ بها على غنمه، ليعرفه قدرته على ما يشاء، وعظم سلطانه، ونفاذ أمره فيما أحبّ بتحويله إياها حية تسعى، إذا أراد ذلك به ليجعل ذلك لموسى آية مع سائر آياته إلى فرعون وقومه»^(١).

وقال: «يقول -تعالى ذكره- مخبراً عن موسى: قال موسى مجيباً لربه: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، يقول: أضرب بها الشجر اليابس فيسقط ورقها وترعاه غنمي . . . وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾، يقول: ولي في عصاي هذه حوائج أخرى»^(٢).

قال ابن كثير: «هذا برهان من الله تعالى لموسى ﷺ، ومعجزة عظيمة، وخرق

(١) جامع البيان (١٦/١٥٣-١٥٤).

(٢) جامع البيان (١٦/١٥٤-١٥٥).

للعادة باهر، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله ﷻ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ﴾ استفهام تقرير.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتد عليها في حال المشي ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أهرز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي.

قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المخجن في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وتثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضًا.

وقوله: ﴿وَلِيَّ فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَىٰ﴾ أي: مصالح ومنافع وحاجات آخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيورتها ثعبانًا، فما كان يفر منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لأدم عليه السلام. وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة. . والله أعلم بالصواب^(١).

قال السعدي: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ﴾ هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة. ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه هش بها، أي: ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاه الغنم.

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره حسن رعاية الحيوان البهيم،

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٣).

والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿وَلَيْ فِيهَا مَقَارِبُ﴾ أي: مقاصد ﴿أُخْرَى﴾ غير هذين الأمرين. ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملا عن السؤال عن عينها أو منفعتها، أجابه بعينها ومنفعتها^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٠-١٥١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقَهَا بِمُوسَىٰ﴾ (١٩) ﴿فَالْقَنَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (٢٠)
 ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ (٢١) ﴿

★ غريب الآية:

تسعى: من السعي وهو المشي السريع.
 سيرتها: حالتها، أي: الحالة التي كانت عليها من العودية.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال الله لموسى: ألق عصاك التي يمينك يا موسى، يقول الله ﷻ: فألقاها موسى، فجعلها الله حية تسعى، وكانت قبل ذلك خشبة يابسة، وعصا يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، فصارت حية بأمر الله..
 وقوله: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال الله لموسى: خذ الحية والهاء والألف من ذكر الحية، ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، يقول: ولا تخف من هذه الحية، ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ يقول: إنا سنعيد لها سيرتها الأولى التي كانت عليها قبل أن نصيرها حية، ونردّها عصا كما كانت.

يقال لكل من كان على أمر فتركه، وتحول عنه ثم راجعه: عاد فلان سيرته الأولى، وعاد لسيرته الأولى، وعاد إلى سيرته الأولى»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَلْقَهَا بِمُوسَىٰ﴾ أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، ﴿فَالْقَنَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أي: صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك بحركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَى﴾ أي: تمشي وتضطرب»^(٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٣).

(١) جامع البيان (١٦/ ١٥٦).

قال السعدي: «قال الله: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَى﴾، انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً فولى موسى هارباً خائفاً، ولم يعقب. وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده وهو أن يظن أنها تخيل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي: ليس عليك منها بأس ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي: هيئتها وصفتها إذ كانت عصا فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها»^(١).

قال الرازي: «واعلم أن موسى ﷺ لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بإلقاء العصا فقال: ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾، وفيه نكت، إحداها: أنه ﷺ لما قال: ﴿وَلَىٰ فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى﴾، أراد الله أن يعرفه أن فيها ماربة أخرى لا يفتن لها ولا يعرفها، وأنها أعظم من سائر مآربه، فقال: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَلَمَّا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾»^(٢).



(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾

★ غريب الآية:

وَاضْمُمْ: الضم الجمع بين شيئين فصاعدا .
جَنَاحَكَ: أي ما بين إبطك وعضدك .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واضمم يا موسى يدك، فضعها تحت عضدك؛ والجناحان هما اليدان، كذلك روي الخبر عن أبي هريرة وكعب الأحماس، وأما أهل العربية، فإنهم يقولون: هما الجنبان، وكان بعضهم يستشهد لقوله ذلك بقول الراجز:

أَضْمُهُ لِلصَّدْرِ وَالْجَنَاحِ

وقوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، ذكر أن موسى ﷺ كان رجلا آدم، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء من غير سوء، من غير برص مثل الثلج ثم ردها، فخرجت كما كانت على لونه . . وقوله: ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ يقول: وهذه علامة ودلالة أخرى غير الآية التي أريناك قبلها من تحويل العصا حية تسعى على حقيقة ما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليه، ونصب آية على اتصالها بالفعل، إذ لم يظهر لها ما يرفعها من هذه أو هي، وقوله: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾، يقول -تعالى ذكره-: واضمم يدك يا موسى إلى جناحك، تخرج بيضاء من غير سوء، كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا»^(١).

قال ابن كثير: «وهذا بُرْهَانُ ثَانٍ لِمُوسَى ﷺ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في

جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وها هنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَأَضْمُكُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْمِ فَذَلِكَ مُرْسِنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾^(١).

وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ﴾ كفه تحت عضده.

وذلك أن موسى ﷺ، كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألاً كأنها فلق قمر.

وقوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير برص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم.

وقال الحسن البصري: أخرجها -والله- كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه ﷻ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾^(٢).

قال السعدي: «ثم ذكر الآية الأخرى فقال: ﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ﴾ أي: أدخل يدك في جيبك وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي بياضا ساطعا من غير عيب ولا برص، ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ قال الله: ﴿فَذَلِكَ مُرْسِنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾^(٣).

﴿لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بيضاء للنظرين؛ لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهانا لمن أرسلت إليهم»^(٤).

* * *

(١) الفصص: الآية (٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٣) الفصص: الآية (٣٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٢).

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾
وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا
مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰزُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىٰ
نُصِصَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذَرَكُ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

★ غريب الآية:

طَغَى: عصى وتكبر، وكفر وتجبر، وأصل الطغيان مجاوزة الحد في كل شيء،
وغلب في تزايد العصيان.

اشْرَحْ لِي صَدْرِي: أي وسَّعه، وأصل الشرح: البسط والتوسعة.

عُقْدَةً: أي: حُبْسَةً.

يَفْقَهُوا: يعلموا ويفهموا.

وَزِيرًا: أي معيناً، سمي بذلك لمعاونته الملك، وقيل لأنه يحمل أثقال الملك
وأعباءه، وقيل: لتحمله أوزار الملك.

أَشَدُّ: يقال: شددت الشيء: أي قويت عقده.

أَزْرَى: الأزر: القوة الشديدة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه موسى -صلوات الله عليه-:
﴿أَذْهَبْ﴾ يا موسى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾. يقول: إنه تجاوز قدره، وتمرد على
ربه. . وفي الكلام محذوف استغني بفهم السامع بما ذكر منه، وهو قوله: ﴿أَذْهَبْ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ فادعه إلى توحيد الله وطاعته، وإرسال بني إسرائيل معك،
﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ يقول: رب اشرح لي صدري لأعني عنك ما تودعه من
وحيك، وأجترئ به على خطاب فرعون، ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ يقول: وسهل علي القيام
بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة. .

وقوله: ﴿وَأَحْلَدَ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ يقول: وأطلق لساني بالمنطق، وكانت فيه فيما ذكر عُجْمَةٌ عن الكلام الذي كان من إلقائه الجمرة إلى فيه يوم همّ فرعون بقتله . .
 وقوله: ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ يقول: يفقهوا عني ما أخاطبهم وأراجعهم به من الكلام، ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ يقول: واجعل لي عوناً من أهل بيتي ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ . .

قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِؤْسَ أُوزَي﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبراً عن موسى أنه سأل ربه أن يشدد أزره بأخيه هارون. وإنما يعني بقوله ﴿أَشَدُّ بِؤْسَ أُوزَي﴾ قوله ﴿قُوْ ظَهْرِي، وَأَعْنِي بِهِ . . وقوله: ﴿وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي﴾، يقول: واجعله نبياً مثل ما جعلتني نبياً، وأرسله معي إلى فرعون.

﴿كَيْ تَسْمَعَكَ كَثِيرًا﴾، يقول: كي نعظمك بالتسبيح لك كثيراً ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿فَنُحَمِّدُكَ، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ يقول: إنك كنت ذا بصر بنا لا يخفى عليك من أفعالنا شيء^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجَتْ فَارًا مِنْهُ وَهَارِبًا، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليُخَسِّنْ إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وَيَغَى، وأثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى . .

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، هذا سؤال من موسى ﷺ، لربه ﷻ، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إَذَاكَ، وأجبرهم، وأشدهم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمرّدًا، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره.

هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدًا عندهم، في حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكما لها . ثم بعد هذا بعثه ربه ﷻ إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال:

(١) جامع البيان (١٦/١٥٨-١٦٠).

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝١٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝١٦﴾، وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝١٧﴾، أي: يفصح بالكلام. . وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝١٨ هَٰزُونَ أَخِي ۝١٩﴾ وهذا أيضاً سؤال من موسى في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. . وقوله: ﴿أَشَدُّ بِهٖ أَرْزَىٰ ۝٢٠﴾، قال مجاهد: ظهري. ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۝٢١﴾ أي: في مشاورتي.

﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٢٢ وَنَذْرَكَ كَثِيرًا ۝٢٣﴾، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٢٤﴾ أي: في اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك»^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝١٦ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝١٧﴾. قال بعض العلماء: دل قوله ﴿عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ بالتنكير والإفراد، وإتباعه لذلك بقوله ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝١٧﴾ على أنه لم يسأل إزالة جميع ما بلسانه من العقد، بل سأل إزالة بعضها الذي يحصل بإزالته فهم كلامه مع بقاء بعضها. وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى عنه: ﴿وَأَخِي هَٰزِرُوتٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ۝٢٣﴾، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝١٧﴾، والاستدلال بقول فرعون عن موسى، فيه أن فرعون معروف بالكذب والبهتان. والعلم عند الله تعالى»^(٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٥-٢٧٧).

(٤) أضواء البيان (٨/ ٤).

(١) الزخرف: الآية (٥٢).

(٣) القصص: الآية (٣٤).

قال السعدي: «لما أوحى الله إلى موسى، ونباه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون ملك مصر، فقال: ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَفَقَ﴾ ﴿٢٤﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -قبحه الله- أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحداً، إلا بعد قيام الحجة بالرسل، فحينئذ علم موسى ﷺ أنه تحمل حملاً عظيماً، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى ﷺ وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلية، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمْتَنِي اللَّهُ إِنِّي لَكُمُّ وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَيْتُ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١)، وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿وَيَبَّرَ لِي أَمْرِي﴾ ﴿٢٥﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿٢٦﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٧﴾، وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون، وكما قال الله عنه أنه قال: ﴿وَأَخِي هَكَرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ (٢) فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿٢٨﴾ أي: معيناً يعاونني ويؤازرنني ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٢) القصص: الآية (٣٤).

قرايته. ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هَؤُلَاءِ أَشِدُّ يَوْمَ أَزْرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَشِدُّ يَوْمَ أَزْرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي: قوني به، وشد به ظهري، قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾^(١).

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِ ﴿٣٧﴾﴾ أي في النبوة بأن تجعله نبيا رسولا كما جعلتني.

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَفَىٰ سُجْحَكُ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَتَذَكُّرُكَ كَثِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ علم - عليه الصلاة والسلام - أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات، ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٤٠﴾﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافئقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك^(٢).

قال ابن عاشور: «لما أظهر الله له الآيتين فعلم بذلك أنه مؤيد من الله تعالى، أمره الله بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يدخل الروح في نفس المأمور به، وهو مواجهة أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة ومكاشفته بفساد حاله، وقد جاء في الآيات الآتية: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِنَا ﴿٤١﴾﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٢﴾﴾»^(٣).

والذهاب المأمور به ذهاب خاص، قد فهمه موسى من مقدمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرح له به وطوي ذكره هنا على طريقة الإيجاز، على أن التعليل الواقع بعده ينبيء به.

فجمله ﴿إِنَّهُ طَفَنَ﴾ تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير الله. ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة^(٤).

وقال: «وخصَّ هارون لفراط ثقته به؛ ولأنه كان فصيح اللسان مقوآلا، فكونه من

(١) القصص: الآية (٣٥).

(٢) طه: الآيات (٤٥-٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٥٤-١٥٢/٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢١٠-٢٠٩/١٦).

أهله مظنة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، وكونه الأخ الخاص لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي»^(١).

وقال: «وعَلَّلَ موسى ﷺ سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه، بأن يسبِّح الله كثيراً ويذكّر الله كثيراً. ووجه ذلك أن فيما سأله لنفسه تسهياً لأداء الدعوة بتوفر آلاتها ووجود العون عليها، وذلك مظنة تكثيرها.

وأيضاً فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته، وذلك يبعث أخاه أيضاً على الدعوة. ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه، فهي مشتملة على التسبيح، وفي الدعوة حث على العمل بوصايا الله تعالى عباده، وإدخال الأمة في حضرة الإيمان والتقوى، وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه. ألا ترى إلى قوله تعالى بعد هذه الآيات ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا يُنْيَا فِي ذِكْرِي﴾^(٢)، أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة، فلا جرم كان في تحصيل ما دعا به إكثار من تسبيحهما وذكرهما الله.

وأيضاً في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة، إذ يمكن أن يقتسما العمل الضروري لحياتهما فيقل زمن اشتغالهما بالضروريات؛ وتتوفر الأوقات لأداء الرسالة. وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ.

والذي ألجأ موسى إلى سؤال ذلك علمه بشدة فرعون وطغيانه ومنعه الأمة من مفارقة ضلالهم، فعلم أن في دعوته فتنة للداعي، فسأل الإعانة على الخلاص من تلك الفتنة ليتوقراً للتسبيح والذكر كثيراً»^(٣).

قلت: خلاصة ما ذكره المفسرون في هذه الآية أن الداعي إلى الله، سواء كان نبياً أو تابعاً لنبي، ينبغي دائماً أن يكون لجوئه إلى من أرسله، أو إلى من خلقه وهده، ولا سيما إذا فهم الداعية مهمته ورسالته التي يريد أن يؤديها، فلا شك أن البلاغ عن الله وعن رسوله فيه ثقل كبير، وهو أمر عظيم كما قال الله في الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ

(١) التحرير والتنوير (١٦/٢١٢).

(٢) طه: الآية (٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/٢١٣-٢١٤).

إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا^(١)، وحمل الأمانة يحتاج إلى الصبر وحسن الأداء، وهذا الأمر لا يمكن أن يستمد إلا من الله، ولهذا لجأ موسى إليه سبحانه في سؤاله أن يشرح صدره، ولا شك أن صفة شرح الصدر لا يمكن أن تكون إلا بكامل الإخلاص، والاحتساب في العمل، الذي هو نتيجة الإخلاص، فبقدر ما ينقص إخلاصه ويضعف احتسابه بقدر ما يضيق صدره، ولهذا فالذي شرح الله صدره للبلاغ عن الله وعن رسوله؛ فإن الزمان مهما طال لا ينقصه من انشراح الصدر، فنوح دعا إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا وصدره منشرح، وكلماته التي ذكرها الله تدل على ذلك كقوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٥﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٦﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبَغِلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٧﴾﴾، وكما وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٣)، والذي يوصف بأنه كان عبدًا شكورًا لا مرية أنه كان معه تمام الرضا بما قسم الله له، فمن كان هذا حاله فهو يقينًا ناجح في دعوته، ولهذا لا تجد للمنافقين المرائين دعوة نافعة مستمرة، فقد تجد لها لمعانًا لكن سرعان ما ينطفئ، فمن قرأ تاريخ الدعوات السابقة يرى ذلك ماثلاً لا ينكر، فهذا مسيلمة الكذاب عاصر الرسول ﷺ، فأين دعوته من دعوة من أطبقت دعوته الأرض كلها، واستغرقت الأزمنة إلى أن تقوم الساعة؟ وأين دعوة ابن أبي دؤاد من دعوة أحمد بن حنبل؟ وأين دعوة أعداء شيخي الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب من دعوتهما؟ وهذا يحتاج إلى بسط، ولكن ما لا يذكر كله لا يترك جله.

فمن يسر الله أمره، وشرح صدره، وأعطاه فصاحة اللسان، والقلم والبيان، فقد توفرت فيه شروط الداعية، فهذه هي أصول الدعوة، ومن زاده الله خيرًا فيسر له الأعوان الذين يحملون معه همّ دعوته كما حصل لمحمد ﷺ فذاك كمال بعد كمال. وأما ما يذكره المفسرون عن موسى ﷺ أنه التقم جمرة، واعتل لسانه بها، فهذه خرافة يتناقضونها، وإسرائيلية غير صحيحة موجودة في كتب لم تعتمد الصحيح، فلا ينبغي أن تنقل إلا بعد صحتها، وهذا السؤال من موسى لا يدل على ما ألقوه به، فادعية الأنبياء فيها كثير من هذا، كأدعية رسولنا ﷺ وهو أفصح العرب، من

(١) الأحزاب: الآية (٧٢).

(٢) نوح: الآيات (١٠-١٢).

(٣) الإسراء: الآية (٣).

سؤاله العلم النافع ، وسؤاله الهداية ، وسؤاله التوفيق ، وسؤاله النصر ، وغيرها ،
فيا لله العجب من ابن جرير وغيره من المفسرين يحكون مثل هذه الخرافات ،
ويجعلونها في كتبهم !
فترجو الله أن يعصمنا من الخطأ والزلل ، ومن أن نقول على الله ما لم يقل ، ولم
يبلغنا خبره بواسطة الثقات الأثبات .

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (٢٧) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ﴾ (٢٨) ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾

★ غريب الآية:

مَنَّا: أنعمنا، والمنة: النعمة الثقيلة.

التَّابُوت: هذه الآلة المعروفة تنحت من خشب وغيره.

الْيَم: البحر، والمراد به ههنا نيل مصر في قول الجميع، واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (٢٧) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ﴾ (٢٨) ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّكَ﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه منَّ على موسى مرة أخرى قبل منَّه عليه بالرسالة ورسالة أخيه معه، وذلك بإنجائه من فرعون وهو صغير، إذ أوحى إلى أمه، أي ألهمها وقذف في قلبها، وقال بعضهم: هي رؤيا منام. وقال بعضهم: أوحى إليها ذلك بواسطة ملك كلمها بذلك. ولا يلزم من الإيحاء في أمر خاص أن يكون الموحى إليه نبياً.. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآيات أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) ﴿فَالْقَطْعُ: أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^(١)، وقد بين تعالى شدة جزع أمه عليه لما ألقيته في البحر، وألقاه اليم بالساحل، وأخذه عدوه فرعون في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لَتَكُونُ مِنْ

(١) القصص: الآيات (٧-٨).

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ..

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من منته المتابعة على موسى حيث قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أشار إلى ما يشبهه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَوْمِنًا وَهَكَوْتَ ﴿٣٨﴾﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾. من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-؛ ما ذكره -جل وعلا- في القصص في قوله: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُونِ﴾ (٣)، (٤).

قال ابن كثير: «هذه إجابة من الله لرسوله موسى ﷺ فيما سأل من ربه ﷻ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتا، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله في البحر وهو النيل - وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيقًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَن رَّيْتُنَا عَلَىٰ قُلُوبِنَا﴾ (٥)، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالنَّقْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (٦)، أي قدرا مقدورا من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حذرا من وجود موسى، فحكم الله وله السلطان العظيم، والقدرة التامة - ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لِمِ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي: عند عدوك، جعلته يحبك. قال سلمة بن كهيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ قال: حبيبتك إلى عبادي (٧).

قال السعدي: «فقال الله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَىٰ﴾ أي أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد

(٢) الصفات: الآية (١١٤).

(٤) أضواء البيان (٨/١٠٠).

(٦) القصص: الآية (٨).

(١) القصص: الآية (١٠).

(٣) القصص: الآية (٩).

(٥) القصص: الآية (١٠).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٧٧-٢٧٨).

عضدك بأخيك هارون، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْثَىٰ وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْفَٰلِغُونَ﴾^(١)، وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه. وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق -خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان- يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريد ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحبيه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه. ويحتاج مع ذلك أيضا أن يتيسر له أمره فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل -عليه الصلاة والسلام- هذه الأمور فأعطيا.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم، خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾^(٢) ﴿لَمَّا ذَكَرَ مِنْتَ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَىٰ بْنُ عَمْرَانَ، فِي الدِّينِ، وَالْوَحْيِ، وَالرَّسَالَةِ، وَإِجَابَةِ سُؤَالِهِ، ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَفَتْ التَّرْبِيَةِ وَالتَّنْقِلَاتِ فِي أَطْوَارِهِ فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾^(٣) ﴿حَيْثُ أَلْهَمْنَا أَمْلَكَ أَنْ تَقْذِفَكَ فِي التَّابُوتِ وَفَتْ الرِّضَاعِ، خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ، لِأَنَّهُ أَمَرَ بِذَبْحِ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخَفْتَهُ أُمَّهُ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا فَقَذَفْتَهُ فِي التَّابُوتِ، ثُمَّ قَذَفْتَهُ فِي الْيَمِّ، أَيْ: شَطْ نِيلِ مِصْرَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْيَمَّ، أَنْ يَلْقِيَهُ فِي السَّاحِلِ، وَفِيضَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَهُ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ لِلَّهِ وَلِمُوسَى، وَيَتْرِبَ فِي أَوْلَادِهِ، وَيَكُونَ قَرَّةَ عَيْنٍ لِمَنْ رَأَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فكل من رآه أحبه»^(٤).

(١) القصص: الآية (٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٥٤-١٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾

★ غريب الآية:

تُصْنَعُ: أي لتُربى ويُحسن إليك.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

في هذه الآية إثبات صفة العين لله ﷻ.

قال القنوجي: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي لتُربى وتغذى بمرأى مني، ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الإنسان الشيء بعينه إذا اعتنى به..
وقيل: أي لتصنع على عيني قدرنا مشي أختك، والعين أيضاً من ألفاظ الصفات، فلا تقول، وتجري على ظاهرها وهو الأولى^(١).

قال السعدي: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي: ولتُربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا واللّه تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى^(٢).

قال السمعاني: «وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي تربى وتغذى على نظر مني، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعْ لَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(٣)، فإن قيل: ما من أحد في العالم إلا وهو يربى ويغذى بمرأى من اللّه ونظر منه، فأى معنى لتخصيص موسى؟ والجواب: أن اللّه تعالى فعل في اللطف في تربية موسى ما لم يفعل في تربية غيره، فالتخصيص إشارة إلى ذلك اللطف^(٤).

(١) فتح البيان (٨/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٣) هود: الآية (٣٧).

(٤) تفسير السمعاني (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العين لله تعالى

* عن عبد الله بن عمر قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينه - وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»^(١).

★ غريب الحديث:

طافية: ناتئة تُتَوَّحِبُ العنب من بين أخواتها، وأريد به جحوظ العين الواحدة.
* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر»^(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «قال ابن المنير: وجه الاستدلال على إثبات العين لله من حديث الدجال من قوله: «إن الله ليس بأعور»؛ من جهة أن العور عرفا: عدم العين، وضد العور ثبوت العين، فلما نزع هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها، وهو وجود العين..»

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له: أخبر الله في كتابه، وثبت عن رسوله ﷺ الاستواء والنزول والنفس واليد والعين، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل، إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى.
قال الطيبي: هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح. وقال غيره: لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح: التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك، ولا المنع من ذكره، ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه وينزل عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٣)، ثم يترك هذا الباب

(١) أخرجه: أحمد (٢٧/٢)، والبخاري (١٣/٤٨٠/٧٤٠٧)، ومسلم (١/١٥٤-١٥٥/١٦٩)، والترمذي (٤/٤٤٠-٤٤١/٢٢٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١٧٣)، والبخاري (١٣/٤٨٠/٧٤٠٨)، ومسلم (٤/٢٢٤٨/٢٩٣٣)، وأبو داود (٤/٤٩٤-٤٩٦/٢٢٤٥)، الترمذي (٤/٤٤٧/٢٢٤٥).

(٣) المائدة: الآية (٣).

فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز، مع حضه على التبليغ عنه بقوله: «ليبلغ الشاهد الغائب»^(١) حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته وما فعل بحضرته، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده الله منها، ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢)، فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم وبالله التوفيق»^(٣).

قال محمد أمان الجامي: «العين صفة لله تعالى بلا كيف، وهي من الصفات الخبرية الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة، وقد جاء ذكر العين في القرآن الكريم على حالتين:

١- ذكرت العين مضافة إلى ضمير المفرد، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِصَنَعِ عَلِيٍّ عَيْنِي﴾.

٢- ذكرت العين بصيغة الجمع، مضافة إلى ضمير الجمع، مثله قوله تعالى: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾^(٤). وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة فقط؛ لأن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٥)، فالمراد نعم الله المتنوعة التي لا تدخل تحت الحصر والعد. وقوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الْقِيَامِ الزَّفَرَةُ إِنَّ زَيْتُونَكُمْ﴾^(٦)، فالمراد بها جميع ليالي رمضان. ولو قال قائل: نظرت بعيني أو وضعت المنظار على عيني، لا يكاد يخطر ببال أحد ممن سمع هذا الكلام أن هذا القائل ليست له إلا عين واحدة، هذا ما لا يخطر ببال أحد أبداً.

قال الإمام ابن القيم: إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهراً أو مضمراً فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله تعالى: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾، و﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ﴾^(٧)، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد كقوله

(١) أخرجه أحمد (٣٧/٥) والبخاري (١٠٥/٢٦٥/١) ومسلم (٣/١٣٠٥-١٣٠٦/١٣٧٩) والنسائي في الكبرى (٣/٤٣٢/٥٨٥٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري (١٣/٤٨١).

(٣) النحل: الآية (١٨).

(٤) الشورى: الآية (١١).

(٥) القمر: الآية (١٤).

(٦) البقرة: الآية (١٨٧).

(٧) المؤمنون: الآية (٢٧).

تعالى: ﴿يَبْدِكَ الْغَيْبُ﴾^(١)، و﴿يَبْدُو أَمْلُكَ﴾^(٢). وإن أضيفت إلى جمع جمعت كقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيَاتِنَا﴾^(٣)، وقد تقدم هذا البحث في صفة اليد مستوفى. وقد ذكرت العين في السنة في قصة المسيح الدجال في حديث عبد الله بن عمر الذي يقول فيه رسول الله -عليه الصلاة والسلام-: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينيه، وأن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأنها عنبه طافية»، وللحديث سبب، وهو أن الدجال ذكر عند النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأخبر أنه ما من نبي إلا وقد أمر أمته أو نصحهم بالاستعاذة منه، ثم ذكر أن من صفاته أنه أعور العين اليمنى. وأنه على الرغم من دعوى الألوهية وما يجري له من الأمور الخارقة للعادة امتحاناً واستدراجاً فيه عيوب ونقائص، وهو عاجز عن دفع ذلك عن نفسه، فلن يلتبس عليكم الأمر في شأنه، لأنه ناقص إذ به عور، وربكم ليس بأعور، بل له سبحانه عينان يبصر بهما لأنه سميع بصير»^(٤).

وقال: «وأما إشارته -عليه الصلاة والسلام- بيده إلى عينيه -وهو يخبر عن عور المسيح الدجال- فإنما تفيد تأكيد المعنى الحقيقي للعين على ما يليق بالله تعالى، ولا يفهم منها أن عين الله جارحة كأعيننا، بل له عَيْنٌ حَقِيقَةٌ تليق بعظمته وجلاله وقَدَمِهِ. وللمخلوق عين حقيقية تناسب حاله وحدوثه وضعفه، وليست الحقيقة كالحقيقة، وهذا شأن جميع الصفات التي فيها المشاركة اللفظية مع صفات المخلوق كما تقدم هذا البحث في غير موضع من الرسالة. روى عكرمة عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(٥)، أنه قال ﷺ بعين الله -تبارك وتعالى-، قال الإمام البيهقي -بعد رواية قول ابن عباس السالف الذكر: ومن أصحابنا من حمل العين المذكورة في الكتاب على الرؤية. وقال: قوله تعالى: ﴿وَلِنُصْنَعُ عَلَى عَيْفٍ﴾، معناه بمرأى مني، وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(٦)، أي بمرأى منا، وكذلك قوله: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾^(٧)، وقد يكون ذلك من صفات الذات. وتكون صفة واحدة، والجمع فيه للتعظيم. ومنهم من حملها على الحفظ والكلاءة. وقال: إنها

(١) آل عمران: الآية (٢٦).

(٢) الملك: الآية (١).

(٣) يس: الآية (٧١).

(٤) الصفات الإلهية (٣١٧-٣١٨).

(٥) هود: الآية (٣٧).

(٦) الطور: الآية (٤٨).

(٧) القمر: الآية (١٤).

من صفات الفعل والجمع فيها شائع، ومن قال بأحد هذين زعم أن المراد بالخبر نفي نقص العور عن الله ﷻ، وأنه لا يجوز عليه ما يجوز على المخلوقين من الآفات والنقائص. ثم قال البيهقي: «والذي يدل عليه ظاهر الكتاب والسنة من إثبات العين صفة، لا من حيث (الحدقة) أولى. وبالله التوفيق» ١. هـ

وهذا القول الذي اختاره الإمام البيهقي هو الذي عليه سلف الأمة، وأما محاولة بعض الناس حمل النصوص على خلاف ما يظهر من ألفاظها فمحاولة جهمية معروفة.

وأما تفسير من فسر الآيات السابقة بالرؤية مع إنكار صفة العين فشيبة بقول الجهمية القائلين: إنه تعالى: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم. وهو قول مرفوض شرعاً وعقلاً، كما تقدم في غير موضع.

وأما عند أهل السنة فجميع هذه الصفات تساق سوفاً واحداً خبرية أو عقلية، ذاتية أو فعلية، فتثبت بلا كيف، ولا يلزم من إثباتها تشبيه ولا تجسيم كما يظن النفاة، بل يلزم من تحريف القول فيها التعطيل. وينتج من ذلك تكذيب خبر الله وخبر رسوله -عليه الصلاة والسلام-. هذا ما يلزم النفاة -ولا محالة- وهم كل من ينفي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، أو بالسنة الصحيحة فقط، أدركوا ذلك أو لم يدركوا. والله المستعان» (١).

وانظر قوله تعالى: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ من سورة القمر.



(١) الصفات الإلهية (٣١٩-٣٢٠).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «هذا الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون أخته مشيت إليهم، وقالت لهم ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أوضحه - جل وعلا - في سورة القصص فبين أن أخته المذكورة مرسله من قبل أمها لتتعرف خبره بعد ذهابه في البحر، وأنها أبصرته عن بعد وهم لا يشعرون بذلك. وأن الله حرم عليه المراضع غير أمه تحريماً كونياً قدرياً. فقالت لهم أخته ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي: على مريض يقبل هو ثديها وتكفله لكم بنصح وأمانة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾^(١)، فقوله تعالى في آية القصص هذه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ أي قالت أم موسى لأخته وهي ابنتها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره، وتطلبي خبره حتى تظلمي على حقيقة أمره»^(٢).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأبأها، قال الله ﷻ: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾، فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾^(٣). تعني هل أدلكم على من ترضعه لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله،

(١) القصص: الآيات (١١-١٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٠-١١).

(٣) القصص: الآية (١٢).

ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أغنم وأجزل..

وقال تعالى ههنا: ﴿فَرَجَعْتَكِ إِلَيْنَا أُمُّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (١) أي عليك» (١).

قال السعدي: «ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقته أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تخبر به لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون ماله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها مطمئنة ساكنة قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع فلا يقبل ثدياً.

فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ (٢)، ﴿فَرَجَعْتَكِ إِلَيْنَا أُمُّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (٣).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٧٨/٥).

(٢) القصص: الآية (١٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٥٧/٥).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَتَجَنَّبَكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾

★ غريب الآية:

الغم: الحزن الذي يغم القلب، أي يستره ويغشيه.
فتناك فتونا: أي ابتليناك بضروب من الاختبارات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة سبب قتله لهذه النفس، ولا ممن هي، ولم يبين السبب الذي نجاه به من ذلك الغم، ولا الفتون الذي فتنه، ولكنه بين في سورة القصص خبر القتل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦﴾^(١)، وأشار إلى القتل المذكور في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٧﴾^(٢)، وهو المراد بالذنب في قوله تعالى عن موسى: ﴿فَأَرْسِلْ إِنْ هَرُونَ أَنْ يَقْتُلُوا عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٨﴾^(٣)، وهو مراد فرعون بقوله لموسى فيما ذكره الله عنه: ﴿وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ١٩﴾^(٤). وقد أشار تعالى في القصص أيضًا إلى غم موسى، وإلى السبب الذي أنجاه الله به منه في قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يُمُوتُكَ إِنَّكَ أَلَمَلَأَ بِأَتْمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ ٢٠﴾ فخرج منها خائفًا يترقب قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ٢٢﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٣﴾^(٥)،^(٦).

(١) القصص: الآيات (١٥-١٦).

(٢) الشعراء: الآيات (١٣-١٤).

(٣) القصص: الآيات (٢٠-٢٥).

(٤) الشعراء: الآية (١٩).

(٥) القصص: الآيات (١٣-١٤).

(٦) الشعراء: الآيات (١٣-١٤).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني -جلّ ثناؤه- بذلك: قتله القبطي الذي قتله حين استغاثه عليه الإسرائيلي، فوكزه موسى. وقوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فنجيناك من غمك بقتلك النفس التي قتلت، إذ أرادوا أن يقتلوك بها فخلصناك منهم، حتى هربت إلى أهل مدين، فلم يصلوا إلى قتلك وقودك. وكان قتله إياه فيما ذكر خطأ»^(١).

قال القرطبي: «﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ أي: اخترناك اختباراً حتى صلحت للرسالة. وقال قتادة: بلوناك بلاء. وقال مجاهد: أخلصناك إخلاصاً. وقال ابن عباس: اخترناك بأشياء قبل الرسالة، أولها: حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي وخروجه خائفاً يترقب، ثم رعايته الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق...»^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (١٦/١٦٣-١٦٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/١٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَلِثْ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى﴾

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «السنين التي لبثها في مدين هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إني أريدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّةً فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾»^(١)، وقد قدمنا في سورة مريم أنه أتم العشر، وبيننا دليل ذلك من السنة. وأظهر الأقوال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى﴾ أي: جئت على القدر الذي قدرته وسبق في علمي أنك تجيء فيه، فلم تتأخر عنه ولم تتقدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾^(٤)،^(٥).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدين» فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله - تبارك وتعالى -، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾، قال مجاهد: أي على موعد»^(٦).

قال السعدي: «﴿فَلْيَلِثْ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين فر هاربا من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين ووصل إليها، وتزوج هناك ومكث عشر سنين أو ثمان سنين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى﴾ أي: جئت مجيئاً قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراد في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير منا، بل بقدر ولطف منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام»^(٧).

(١) القصص: الآية (٢٧).

(٣) الرعد: الآية (٨).

(٥) أضواء البيان (٤/ ١٣-١٤).

(٧) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٨).

(٢) القمر: الآية (٤٩).

(٤) الأحزاب: الآية (٣٨).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

★ غريب الآية:

اصطفتك: الاصطناع: المبالغة في إصلاح الشيء، ومعنى اصطفتك: أي اجتبتك واصطفيتك.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك، واختيارا لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمرى ونهبي»^(١).

قال السعدي: ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي وتربيتي؛ لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه؟»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النفس لله تعالى

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال له آدم: أنت الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدتها كتب علي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى»^(٣).

(١) جامع البيان (١٦/١٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٥٨-١٥٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٤٨)، والبخاري (٨/٥٥٤-٥٥٥/٤٧٣٦)، ومسلم (٤/٢٠٤٢-٢٠٤٣/٢٠٤٢)،

وأبو داود (٥/٧٨-٧٦/٤٧٠١)، والترمذي (٤/٣٨٦-٣٨٧/٢١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٨٤-٢٨٥/١٠٩٨٥)، وابن ماجه (١/٣١-٣٢/٨٠).

★ فوائد الحديث:

فيه : «دليل على إثبات النفس لله تعالى وهي نفس حقيقية لا ثقة بجلاله» .
وقد مضى الكلام على هذه الصفة عند قوله تعالى : ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾^(١) من
سورة آل عمران .

* * *

(١) آل عمران : الآية (٢٨) .

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢) ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٤٤)

★ غريب الآية:

لَا تَنِيًّا: أي لا تفترا ولا تضعفا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢) ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣). قال بعض أهل العلم: المراد بالآيات في قوله هنا: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعَ آيَاتٍ﴾^(٢). والآيات التسع المذكورة هي: العصا واليد البيضاء... إلى آخرها. وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة بني إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ طَغَىٰ﴾. أصل الطغيان: مجاوزة الحد، ومنه: ﴿إِنَّا لَنَّا طَغَا أَلَمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ﴾ (١١)، وقد بين تعالى شدة طغيان فرعون ومجاوزته الحد في قوله عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (٤)، وقوله عنه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾^(٥)، وقوله عنه أيضًا: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمُوهَا غَيْرِي لَفَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٦)..

وقوله: ﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا في ذكري. وقد أثنى الله على من يذكره في جميع حالاته في قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ﴾^(٧)، وأمر بذكر الله عند لقاء العدو في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظْوا

(١) الإسراء: الآية (١٠١).

(٢) الحاقة: الآية (١١).

(٥) القصص: الآية (٣٨).

(٦) الشعراء: الآية (٢٩).

(٧) آل عمران: الآية (١٩١).

(٢) النمل: الآية (١٢).

(٤) النازعات: الآية (٢٤).

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١﴾ ﴿٢﴾.

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَمَعْلَمٌ بِتَذْكُرِكُمْ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿١﴾»، أمر الله -جل وعلا- نبيه موسى وهارون -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-: أن يقولوا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه ﴿قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ أي: كلامًا لطيفًا سهلًا رقيقًا، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين -جل وعلا- المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَيَّ رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾، وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورقته كما ترى. وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة، أشار له تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمُ الْبَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾.

قال ابن جرير: «﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَلِخُوكِ﴾ هارون ﴿بِأَتَيْ﴾ يقول: بأدلتى وحججى، اذهبوا إلى فرعون بها إنه تمرّد في ضلاله وغيه، فأبلغاه رسالاتى ﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ يقول: ولا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياي يقوي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتاني، ذكرتما مني عليكما نعمًا جمّة، ومنا لا تحصى كثرة» ﴿٦١﴾.

وقال: «يقول -تعالى- ذكره- لموسى وهارون: فقولا لفرعون قولًا لِّئِنَّا، ذكر أن القول اللين الذي أمرهما الله أن يقولا له، هو أن يكتياه.. وقوله: ﴿لَمَعْلَمٌ بِتَذْكُرِكُمْ أَوْ يَخْشَى﴾، اختلف في معنى قوله: ﴿لَمَعْلَمٌ﴾ في هذا الموضع، فقال بعضهم معناها هنا الاستفهام، كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى: فقولا له قولًا لنا، فانظروا هل يتذكر ويراجع أو يخشى الله فيرتدع عن طغيانه.. وقال آخرون: معنى لعلّ هاهنا كي، ووجهوا معنى الكلام إلى ﴿أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿١٧﴾ فادعوا وعظاه ليتذكر أو يخشى.. ولكلا هذين القولين وجه حسن، ومذهب صحيح» ﴿٧١﴾.

قال ابن كثير: «﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾.. المراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكran الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ الله عونًا لهما عليه، وقوة لهما

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٤-١٥).

(٤) النحل: الآية (١٢٥).

(٦) جامع البيان (١٦/ ١٦٨).

(١) الأنفال: الآية (٤٥).

(٣) النازعات: الآيات (١٧-١٩).

(٥) أضواء البيان (٤/ ١٥).

(٧) جامع البيان (١٦/ ١٦٩-١٧٠).

وسلطاناً كاسراً له^(١).

وقال: ﴿أَذْهَبَ إِيَّاكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿٤٢﴾ أي: تمرّد وعتا وتَجَهَّرم على الله وعصاه، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿٤٣﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾: يا من يتحجب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ وقال وهب بن مئنه: قولاً له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾ قال: لا إله إلا الله، وقال عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾ أغدرا إليه، قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة ونارا.

وقال بقيّة، عن علي بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مزاحم، عن التزأل بن سبرة، عن علي في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾ قال: كُنْه. وكذا روي عن سفيان الثوري: كُنْه بأبي مرّة.

والحاصل من أقوالهم: أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم مَّا لَاقَىٰ هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾.

قال السعدي: «لما امتن الله على موسى بما امتن به من النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون ﴿يَتَّبِعِي﴾ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئه، ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكرى بل استمراً عليه، والزماء كما وعدتما بذلك ﴿كَي تَسْحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٢٥﴾»، فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها ويخفف حملها.

(٢) النحل: الآية (١٢٥).

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٨٧/٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٨٨/٥).

(٤) طه: الآيتان (٣٣-٣٤).

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١٩﴾ أي: جاوز الحد في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ أي: سهلا لطيفا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ أَن تَزُكِّيَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ^(١)، فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل، فإنه أتى بـ ﴿هَلْ﴾ الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئز منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل «أزكيك» بل قال: ﴿تَزُكِّي﴾ أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها؛ فقال: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾. فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ^(٢).

قال ابن عطية: «والقول اللين قالت فرقة: معناه كنياء، وقالت فرقة بل أمرهما بتحسين الكلمة».

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الوجه، وذلك أن كل من يريد دعاء إنسان إلى أمر يكرهه، فإنما الوجه أن يحزر في عبارته بالمعنى الذي يريد حتى لا يخل به، ولا يحز منه، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارة لطيفة ومقابلته لينه، وذلك أجلب للمراد، فأمر الله تعالى موسى وهارون أن يسلكا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول ^(٣).

قال ابن عاشور: «واللين من شعار الدعوة إلى الحق، قال تعالى: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ^(٤)، وقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(٥). ومن اللين في دعوة

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٥٩-١٦٠).

(٤) النحل: الآية (١٢٥).

(١) النازعات: الآيات (١٨-١٩).

(٣) المحرر الوجيز (٤/٤٥-٤٦).

(٥) آل عمران: الآية (١٥٩).

موسى لفرعون قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخُنَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾^(٢)، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى.

فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(٣)، وقال تعالى عن موسى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾^(٤)،^(٥).

* * *

(١) النازعات: الآيتان (١٨-١٩).

(٢) طه: الآية (٤٧).

(٣) النكبات: الآية (٤٦).

(٤) طه: الآية (٤٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (١٥) قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (١٦)

★ غريب الآية:

يَفْرِطُ: أي يتجاوز، وقيل: يعاجلنا ويقدم لنا العقوبة.

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿قَالَ رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال موسى وهارون: ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعواناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه، أن يعجل علينا بالعقوبة»^(١).

وقال: «﴿قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾... يقول الله -تعالى ذكره-: قال الله لموسى وهارون ﴿لَا نَخَافُ﴾ فرعون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمْ﴾ أعينكما عليه، وأبصركما ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يجري بينكما وبينه، فأفهمكما ما تحاورانه به ﴿وَأَرَى﴾ ما تفعلان ويفعل، لا يخفى عليّ من ذلك شيء»^(٢).

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، إنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيتين إليه: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ يعنيان أن يبدّر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَنْ يُفْرِطَ﴾ يعجل. وقال مجاهد: يبسط علينا. وقال الضحّاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾: يعتدي. ﴿قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأيدي»^(٣).

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧٠).

(٢) جامع البيان (١٦/ ١٧٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئَهُمْ قَوْلَنَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «العذاب الذي نهى الله فرعون أن يفعله ببني إسرائيل: هو المذكور في سورة البقرة في قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١)، وفي سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَرْسَلْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدُبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾^(٢)، وفي سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ أَنِ ابْعَثْ مُوسَى وَهَارُونَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾^(٣). وفي سورة الدخان في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُشْهِينَ ﴿١٥﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٤)، وفي سورة الشعراء في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٥)، وما أمر به الله موسى وهارون في آية طه هذه من أنهما يقولان لفرعون إنهما رسولا ربه إليه، وأنه يأمره بإرسال بني إسرائيل، ولا يعذبهم، أشار إليه تعالى في غير هذا الموضع؛ كقوله في سورة الشعراء: ﴿فَأَنبِئَا فِرْعَوْنَ قَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٦)،^(٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَأَنبِئَهُمْ قَوْلَنَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك يا مارك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ﴾ معجزة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على أنه أرسلنا إليك بذلك، إن أنت لم

(٢) إبراهيم: الآية (٦).

(٤) الدخان: الآيتان (٣٠-٣١).

(٦) الشعراء: الآيتان (١٦-١٧).

(١) البقرة: الآية (٤٩).

(٣) الأعراف: الآية (١٤١).

(٥) الشعراء: الآية (٢٢).

(٧) أضواء البيان (٤/١٦-١٧).

تصدقنا فيما نقول لك أريناكها»^(١).

قال السعدي: «أي: فأتياه بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل - من قيده وتعبيده لهم، ليتحرروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم موسى شرع الله ودينه. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَآئِفَةٍ﴾ تدل على صدقنا، ﴿فَأَلْفَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾»^(٢) إلى آخر ما ذكر الله عنهما»^(٣).

* * *

(٢) الشعراء: الأيتان (٣٢-٣٣).

(١) جامع البيان (١٦/١٧١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٦١).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ يقول: والسلامة لمن اتبع هدى الله، وهو بيان، يقال: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع الهدى بمعنى واحد^(١).

قال ابن كثير: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى^(٢).

قال السعدي: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أي من اتبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في قوله ﷺ له رقل: سلام على من اتبع الهدى

* عن ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب أن رسول الله ﷺ كتب إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قوله: «سلام على من اتبع الهدى». قال الحافظ: «وقد ذكرت في قصة موسى وهارون مع فرعون. وظاهر السياق يدل على أنه من جملة ما أمرا به أن يقولاه. فإن

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٠).

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢-٤٤/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٣٧٣)،

وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩-٣١١/

١١٠٦٤).

قيل : كيف يبدأ الكافر بالسلام؟ فالجواب أن المفسرين قالوا : ليس المراد من هذا التحية، إنما معناه سلم من عذاب الله من أسلم . ولهذا جاء بعده أن العذاب على من كذب وتولى . وكذا جاء في بقية هذا الكتاب : «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» . فمحصل الجواب أنه لم يبدأ الكافر بالسلام قصدا وإن كان اللفظ يشعر به ، لكنه لم يدخل في المراد؛ لأنه ليس ممن اتبع الهدى فلم يسلم عليه»^(١) .

قال القاضي عياض : «وقوله «السلام على من اتبع الهدى» : حجة على منع السلام على غير المسلم . وقد اختلف الناس في ذلك ، فأجازه كثير من السلف ومنعه آخرون ، وأجازه بعضهم إذا كان للاستلاف ، أو لحاجة له إليه أو للإمام معه ، وقد جاء في الحديث عنه ﷺ النهي عن ابتدائهم بالسلام»^(٢) . . وقال بعضهم : إنما يسلم عليهم كما فعل النبي ﷺ في هذا الحديث ، وقد اتخذته الناس أصلا في صفة السلام على من كره السلام دينا أو دنيا ، واضطر إلى مخاطبته»^(٣) .

قال ابن القيم : «والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله ، والتلفظ به ذكر له ، كما في (السنن) أن رجلا سلم على النبي ﷺ ، فلم يرد عليه حتى تيمم ورد عليه وقال : «إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهارة»^(٤) .

فحقيق بتحية هذا شأنها أن تصان عن بذلها لغير أهل الإسلام ، وألا يحیی بها أعداء القدوس السلام ، ولهذا كانت كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار : سلام على من اتبع الهدى ، ولم يكتب لكافر سلام عليكم أصلا ، فلهذا قال في أهل الكتاب : «ولا تبدأوهم بالسلام»^(٥) .

قلت : مما تقدم من الآيات ومن أقوال المفسرين في بيانها تتجلى مسائل :
الأولى : أن سنة الله في عباده أنه كلما فسدت أمة وظهر فسادها ، أرسل إليها نبيا يذكرها ويعظها ، ويحيي فيها التوحيد والسنة ومكارم الأخلاق ، ويأمرهم بكل

(١) الفتح (٥٢/١) .

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٣/٢) ومسلم (١٧٠٧/٤) وأبو داود (٣٨٣/٥) والترمذي (٥٢٠٥) والترمذي (٥٧/٥) (٢٧٠٠) من حديث أبي هريرة ؓ . (٣) الإكمال (١٢٣/٦) .

(٤) أخرجه أحمد (٣٤٥/٤) وأبو داود (١٧/٢٣) والنسائي (٣٨/٤٠) وابن ماجه (١٢٦/١) (٣٥٠) وصححه ابن خزيمة (١٠٣/٢٠٦) وابن حبان (٨٢/٣) والحاكم (١٦٧/١) ووافقه الذهبي . كلهم من حديث المهاجر بن قنفذ ؓ . (٥) أحكام أهل الذمة (٤٢٠-٤٢١) .

معروف وينهاهم عن كل منكر .

الثانية: أن الدعوة تُوجه إلى كبار القوم وأظهرهم في الانحراف والطغيان والعتو والاستكبار .

الثالثة: أن الدعوة ينبغي أن تكون برفق ولين ، ومخاطبة بما يرقق قلب المخاطب .

الرابعة: أن يستعين الداعية بكثرة التضرع والتوجه إلى الله حتى يجعل هذا الخير على يديه .

الخامسة: أن تكون الدعوة إلى الله بإنقاذ المستضعفين الذين تسلط عليهم الطغاة والجبابرة بكل أنواع الطغيان كالقتل والذبح والتجويع والفقر وسلب الأموال .

السادسة: ينبغي للداعية أن تكون عنده قوة الحجة والبرهان ، ولا يضعف أمام المدعو مهما كان طغيانه ؛ فإن موسى ثبت وتجلد وصبر واستنفد قوته الحسية والمعنوية في دعوة فرعون عليه لعائن الله .

السابعة: اختيار ألفاظ الخطاب التي تدل على الخير والبركة ؛ لأن مخالفتها لا تجلب إلا العذاب والانتقام . فقله ﷺ : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ كلمة مليئة بالخير والبركة ، وأن السلام بكل مشتقاته ومعانيه يصاحب الذي يسلم لله وجهه ، ويتبع هداياه ، فيسعد سعادة لا شقاء بعدها ، ولهذا لما تنكب فرعون عن هذه الدعوة المباركة كانت نهايته الغرق في منتزهه ، والشقاوة التي لا سعادة بعدها ، وجعله الله عبرة على مر الدهور والعصور ما تعاقب الملوان ؛ فإن له ذكراً في كل الكتب السماوية بالثلب والذم ، والخزي والعار ، وهكذا فراغت كل الأمم التي تنكب عن الهدى الصحيح ، فمخازي الذين قتلوا بيد من المشركين لا تمحى إلى أن تقوم الساعة ، ويلحق بهؤلاء كل جبار عنيد محارب للإسلام ، تبقى مخازيه قائمة وجرائمه ماثلة إلى أن تقوم الساعة .

فنرجو الله أن يجعلنا ممن أسلم واتبع الهدى ، وأن نكون من أتباع الأنبياء ونصرائهم ومحبيهم ، ومحبي من يحبهم ، ومن مبغضي الأشقياء الذين حاربوا دعوة الأنبياء الأولياء .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿٤٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن موسى وهارون. أن الله أوحى إليهما أن العذاب على من كذب وتولى؛ أشير إلى نحوه في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى؛ كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿٣٩﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ ﴿٤٠﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿٤١﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿٤٢﴾. وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَٰى﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ ﴿٤٥﴾ أُولَٰئِكَ لَٰك فَآوَىٰ﴾ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَٰك فَآوَىٰ﴾ ﴿٤٧﴾، إلى غير ذلك من الآيات» (١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لرسوله موسى وهارون: قولاً لفرعون إنا قد أوحى إلينا ربك أن عذابه الذي لا نفاد له، ولا انقطاع على من كذب بما ندعوه إليه من توحيد الله وطاعته، وإجابة رسله، ﴿وَتَوَلَّى﴾ يقول: وأدبر معرضاً عما جئناه به من الحق» (٢).

قال السعدي: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ أي: خبرنا من عند الله لا من عند أنفسنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: كذب بأخبار الله وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم، واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق، واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك» (٣).

قال الرازي: «فاعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم، وذلك لأن الألف واللام في قوله: ﴿الْعَذَابَ﴾ تفيد الاستغراق، أو تفيد

(٢) الليل: الآيات (١٤-١٦).

(٤) أضواء البيان (٤/١٨).

(١) النازعات: الآيات (٣٧-٣٩).

(٣) القيامة: الآيات (٣١-٣٥).

(٥) جامع البيان (١٦/١٧١).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٦١).

الماهية ، وعلى التقديرين يقتضي انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى ، فوجب في غير المكذب المتولي أن لا يحصل هذا الجنس أصلاً ، وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأنه لا يعاقب أحدًا من المؤمنين بترك العمل به في بعض الأوقات ، فوجب أن يبقى على أصله في نفي الدوام ، لأن العقاب المتناهي إذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية ؛ صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب ، فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال : إنه لا عقاب^(١) .

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/٦٣) .

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى وهارون لما بلغا فرعون ما أمرا بتبليغه إياه قال لهما: من ربكما الذي تزعمان أنه أرسلكما إلي؟ زاعما أنه لا يعرفه. وأنه لا يعلم لهما إلها غير نفسه، كما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾»^(١)، وقال: ﴿لَيْنِ أَخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾»^(٢). وبين - جل وعلا - في غير هذا الموضع أن قوله ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ تجاهل عارف بأنه عبد محبوب لرب العالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ﴾»^(٣)، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّثْبِتٌ وَبَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْتَنَّهُمْ أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾»^(٤)، كما تقدم إيضاحه. وسؤال فرعون عن رب موسى، وجواب موسى له جاء موضعا في سورة الشعراء بأبسط مما هنا، وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ قَالَ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالَ لَيْنِ أَخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٦٢﴾»^(٥) إلى آخر القصة»^(٦).

قال ابن جرير: «قوله: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٤٩﴾ في هذا الكلام متروك،

(١) القصص: الآية (٣٨).

(٢) الإسراء: الآية (١٠٢).

(٣) الشعراء: الآيات (٢٣-٣٣).

(٤) أضواء البيان (٤/١٨).

(٥) الشعراء: الآية (٢٩).

(٦) النمل: الآيات (١٣-١٤).

ترك ذكره استغناء بدلالة ما ذكر عليه عنه ، وهو قوله : ﴿فَأَنبَأَهُ﴾ فقالا له ما أمرهما به ربهما وأبلغاه رسالته ، فقال فرعون لهما ﴿فَمَنْ رَزَقُكُمَا يَتُوسَى﴾ فخاطب موسى وحده بقوله : يا موسى ، وقد وجه الكلام قبل ذلك إلى موسى وأخيه . وإنما فعل ذلك كذلك ، لأن المجاوبة إنما تكون من الواحد ، وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع ، وذلك نظير قوله : ﴿نَسِياً حُرَّتُهُمَا﴾^(١) ، وكان الذي يحمل الحوت واحد ، وهو فتى موسى ، يدل على ذلك قوله : ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيْنُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ يقول - تعالى ذكره - : قال موسى له مجيباً : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ ؛ يعني : نظير خلقه في الصورة والهيئة كالذكور من بني آدم . أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً ، وكذلك من البهائم ، أعطاهما نظير خلقها وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً ، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه ، فيزوجه بالإناث من البهائم ، ولا البهائم بالإناث من الإنس ، ثم هداهم للمأتي الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه ، ولسائر منافعهم من المطاعم والمشارب ، وغير ذلك .

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : بنحو الذي قلنا فيه . وقال آخرون : معنى قوله : ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ ، أنه هداهم إلى الألفة والاجتماع والمناكحة . وقال آخرون : معنى ذلك : أعطى كل شيء صورته ، وهي خلقه الذي خلقه به ، ثم هداه لما يصلحه من الاحتيال للغذاء والمعاش .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : أعطى كل شيء ما يصلحه ، ثم هداه له .

قال أبو جعفر : وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك ، لأنه - جل ثناؤه - أخبر أنه أعطى كل شيء خلقه ، ولا يعطي المعطي نفسه ، بل إنما يعطي ما هو غيره ، لأن العطية تقتضي المعطي والمُعطى والعطية ، ولا تكون العطية هي المعطى ، وإذا لم تكن هي هو ، وكانت غيره ، وكانت صورة كل خلق بعض أجزائه ، كان معلوماً أنه إذا قيل : أعطى الإنسان صورته ، إنما يعني أنه أعطى بعض المعاني

(١) الكهف : الآية (٦١) .

(٢) الكهف : الآية (٦٣) .

التي به مع غيره دعي إنسانا، فكأن قائله قال: أعطى كلّ خلق نفسه، وليس ذلك إذا وجه إليه الكلام بالمعروف من معاني العطية، وإن كان قد يحتمله الكلام. فإذا كان ذلك كذلك، فالأصوب من معانيه أن يكون موجها إلى أن كلّ شيء أعطاه ربه مثل خلقه، فزوجه به، ثم هداه لما بيّنا، ثم ترك ذكر (مثل)، وقيل: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ كما يقال: عبد الله مثل الأسد، ثم يحذف مثل، فيقول: عبد الله الأسد^(١).

قال الشنقيطي: «ولا مانع من شمول الآية الكريمة لجميع الأقوال المذكورة؛ لأنه لا شك أن الله أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به. ولا شك أنه أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع. وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه -جل وعلا-، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته، وفي هذه الأشياء المذكورة في معنى الآية الكريمة براهين قاطعة على أنه -جل وعلا- رب كل شيء، وهو المعبود وحده -جل وعلا-: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

وقد حرر تقي الدين أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي رِسالته في علوم القرآن: أن مثل هذا الاختلاف من اختلاف السلف في معاني الآيات ليس اختلافاً حقيقياً متضاداً يكذب بعضه بعضاً، ولكنه اختلاف تنوعي لا يكذب بعضه بعضاً، والآيات تشمل جميعه، فينبغي حملها على شمول ذلك كله^(٣).

قال السعدي: «قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧١-١٧٣).

(٢) القصص: الآية (٨٨).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٢٠).

المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به من ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(١)، فالذي خلق المخلوقات، وأعطاهما خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهما لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك^(٢).

قال الرازي: «دلت الآية على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش، كما فعل موسى عليه السلام بفرعون هاهنا، وكما أمر الله تعالى رسوله في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾^(٤)»^(٥).

* * *

(١) السجدة: الآية (٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٦٢).

(٣) النحل: الآية (١٢٥).

(٤) التوبة: الآية (٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/٦٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

★ غريب الآية:

الْقُرُونُ: جمع قرن، والقرن: الجماعة المقترنون في وقت واحد، وقيل: كل طبقة اقترنت في زمان، وقيل: كل طبقة بعث فيها نبي.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: قال فرعون لموسى، إذ وصف موسى ربه ﷺ بما وصفه به من عظيم السلطان، وكثرة الإنعام على خلقه والإفضال: فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تقرّب بما تقول، ولم تصدّق بما تدعو إليه، ولم تخلص له العبادة، ولكنها عبدت الآلهة والأوثان من دونه، إن كان الأمر على ما تصف من أن الأشياء كلها خلقه، وأنها في نعمه تتقلب، وفي مَنته تتصرف، فأجابه موسى فقال: عِلْمُ هذه الأمم التي مضت من قبلنا فيما فعلت من ذلك، عند ربي في كتاب، يعني في أم الكتاب، لا أعلم لي بأمرها، وما كان سبب ضلال من ضل منهم فذهب عن دين الله، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ يقول: لا يخطئ ربي في تدبيره وأفعاله، فإن كان عَذَبُ تلك القرون في عاجل، وعجل هلاكها، فالصواب ما فعل، وإن كان آخر عقابها إلى القيامة، فالحق ما فعل، هو أعلم بما يفعل، لا يخطئ ربي ﴿وَلَا يَنسَى﴾ فيترك فعل ما فعله حكمة وصواب»^(١).

قال ابن كثير: «﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ (٥١)، أصبح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك:

(١) جامع البيان (١٦/١٧٣).

هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَا يَعْزِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، -تبارك وتعالى- وتقدس، فإن علم المخلوق يعتره نقصانان:

أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء.

والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك^(١).

قال السعدي: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَعْزِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علما وخبرا، فلا يفضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها قد تحققت؛ صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلا ما دام الملوان^(٢). كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدتها مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وَحَدِّثْ إِلَى يَمِينِكَ وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسُ ظُلْمًا وَطُورًا﴾^(٣)، وقال موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾^(٤) فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض^(٥).

قال القاسمي: ﴿قَالَ﴾ أي فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩١).

(٢) الليل والنهار.

(٣) النمل: الآية (١٤).

(٤) الإسراء: الآية (١٠٢).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٦٣-١٦٤).

كِتَبٌ لَا يَصِلُ رَّبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥١﴾ أي ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم؟ وهذا السؤال إما لصرف موسى ﷺ عما يدعوه إليه أمام ملئه، وإشغاله بما لا يعني ما أرسل به، وإما لتوهم أن الرسول يعلم الغيب، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى، ويفتح باباً للتخطئة والتكذيب بالعناد واللجاج، فأجابه موسى ﷺ بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به، فلا يعلمه إلا هو. وليس من وظيفة الرسالة. وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ، محصى غير منسى^(١).

قال القرطبي: «هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكتبها لئلا تنسى.

فإن الحفظ قد تعثر به الآفات من الغلط والنسيان. وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيدته لئلا يذهب عنه.

وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له: أنكتب ما نسمع منك؟ قال: وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب، فقال: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَّبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(٢).

* * *

(١) محاسن التأويل (١١/١٦٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/١٣٨).

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُّوْا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ۝٥٣﴾

★ غريب الآية:

مَهْدًا: المهاد والمهد: المكان الموطأ، من مهدت الأرض ومهدتها، أي وطأتها، فالمهاد كالفرش، والمهد كالفرش وزنا ومعنى .
سُبُلًا: جمع سبيل وهو الطريق .
نَبَاتٍ شَتَّى: أي مختلفة الأنواع من لون وطعم وريح وطراوة وغير ذلك، وهو جمع شتيت، وقيل: اسم جمع لشتيت .
النُّهَى: النهى جمع نُهْيَة وهو العقل؛ لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبيح، وقيل: لأنه ينتهي إلى رأيه واختياراته .

أهوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قد بين -جل وعلا- في هاتين الآيتين أربع آيات من آياته الكبرى الدالة على أنه المعبود وحده . ومع كونها من آيات على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده دون غيره، فهي من النعم العظمى على بني آدم .
الأولى: فرشه الأرض على هذا النمط العجيب .
الثانية: جعله فيها سُبُلًا يمر معها بنو آدم ويتوصلون بها من قطر إلى قطر .
الثالثة: إنزاله الماء من السماء على هذا النمط العجيب .
الرابعة: إخراج أنواع النبات من الأرض .
أما الأولى -التي هي جعله الأرض مهْدًا- فقد ذكر الامتتان بها مع الاستدلال بها على أنه المعبود وحده في مواضع كثيرة من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ

مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا^(١)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿١﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ ﴿١٨﴾﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴿٤﴾﴾. . . والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا.

وأما الثانية، التي هي جعله فيها سبلًا فقد جاء الامتتان والاستدلال بها في آيات كثيرة؛ كقوله في الزخرف: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥﴾﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ يَقْبِذَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٦﴾﴾^(٦)، وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة النحل في الكلام على قوله: ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٧﴾﴾.

وأما الثالثة والرابعة، وهما إنزال الماء من السماء وإخراج النبات به من الأرض فقد تكرر ذكرهما في القرآن على سبيل الامتتان والاستدلال معًا؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٥﴾ يُبْتِثُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ ﴿٨﴾﴾. وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم. ونظيره في القرآن قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ جَبًا مَتْرَاجًا ﴿٩﴾﴾، وقوله في فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴿١٠﴾﴾، وقوله في النمل: ﴿وَأَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُلُقَافًا ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴿١١﴾﴾.

وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات كلها في

(٢) النبأ: الآيتان (٦-٧).

(٤) الرعد: الآية (٣).

(٦) الأنبياء: الآية (٣١).

(٨) النحل: الآيتان (١٠-١١).

(١٠) فاطر: الآية (٢٧).

(١) الزخرف: الآيتان (٩-١٠).

(٣) الداريات: الآية (٤٨).

(٥) الزخرف: الآيتان (٩-١٠).

(٧) النحل: الآية (١٥).

(٩) الأنعام: الآية (٩٩).

(١١) النمل: الآية (٦٠).

إنبات النبات يدل على تعظيم شأن إنبات النبات ، لأنه لو لم ينزل الماء ولم ينبت شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً . فهو يدل على عظمته -جل وعلا- ، وشدة احتياج الخلق إليه ، ولزوم طاعتهم له -جل وعلا- .

وقوله في هذه الآية : ﴿أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي أصنافاً مختلفة من أنواع النبات . فالأزواج : جمع زوج ، وهو هنا الصنف من النبات ، كما قال تعالى في سورة الحج : ﴿وَرَبَّى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اعْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(١) ، أي من كل صنف حسن من أصناف النبات ، وقال تعالى في سورة لقمان : ﴿خَلَقَ السَّمَكَاتِ بِحَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهُنَّ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُبَدِّيَ لَكُمْ وَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾^(٢) ، أي من كل نوع حسن من أنواع النبات ، وقال تعالى في سورة يس : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿وَسَلَكْ﴾ هنا معناه أنه جعل في داخل الأرض بين أوديتها وجبالها سبلاً فجاءاً يمر الخلق معها . وعبر عن ذلك هنا بقوله : ﴿وَسَلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وعبر في مواضع آخر عن ذلك بالجعل ، كقوله في الأنبياء : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٤) ، وقوله في الزخرف : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٥) ، وعبر في بعض المواضع عن ذلك بالإلقاء كقوله في النحل : ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُبَدِّيَ لَكُمْ وَثَّ وَأَنْتَزَكُوا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٦) ، لأن عطف السبل على الرواسي ظاهر في ذلك .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي : كلوا أيها الناس من الثمار والحبوب التي أخرجناها لكم من الأرض بالماء الذي أنزلنا من جميع ما هو غذاء لكم من الحبوب والفواكه ونحو ذلك .

﴿وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي : أسيموها وسرحوها في المرعى الذي يصلح لأكلها . تقول : رعت الماشية الكلاً ، ورعاها صاحبها : أي أسامها وسرحها . يلزم

(١) الحج : الآية (٥).

(٢) لقمان : الآية (١٠).

(٣) يس : الآية (٣٦).

(٤) الأنبياء : الآية (٣١).

(٥) الزخرف : الآية (١٠).

(٦) النحل : الآية (١٥).

ويتعدى . والأمر في قوله : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا﴾ للإباحة . ولا يخفى ما تضمنه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم بذلك للعبادة وحده .

وما ذكره في هذه الآية الكريمة : من الامتنان على بني آدم بأرزاقهم وأرزاق أنعامهم جاء موضحاً في مواضع أخرى . كقوله في سورة السجدة : ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾^(١) ، وقوله في النازعات : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾^(٢) ، وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا^(٣) ، مَنَّا لَكُمْ وَلَاتُغْنِيَكُمْ^(٤) ، وقوله في عبس : ﴿أَنَا صَبِيْنَا أَلَمَّا صَبَا﴾^(٥) ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(٦) ، فَأَبَلْنَا فِيهَا جَبًّا^(٧) ، وَعَبْنَا وَقَضَبًا^(٨) ، وَزَيَّنَّا وَغَلَا^(٩) ، وَحَدَّاقُوا غَلَا^(١٠) ، وَفَكَهْءُ وَأَيَّا^(١١) ، مَنَّا لَكُمْ وَلَاتُغْنِيَكُمْ^(١٢) ، وقوله في النحل : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾^(١٣) ، إلى غير ذلك من الآيات^(١٤) .

قال ابن كثير : «هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه ﷻ ، حين سأله فرعون عنه ، فقال : ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾»^(١٥) ، ثم اعترض الكلام بين ذلك ، ثم قال : «الذي جعل لكم الأرض مهاداً» ، وفي قراءة بعضهم ﴿مَهْدًا﴾ أي : قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها ، وتسافرون على ظهرها ، ﴿وَسَلَّكُمْ لَهَا فِيهَا سُبُلًا﴾ أي : جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾»^(١٦) .

قال ابن جرير : «وقوله : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يقول : وأنزل من السماء مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ، وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سمائه إلى أرضه ، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عما سأله عنه ، وثناؤه على ربه بما هو أهله ، يقول - جل ثناؤه - : فأخرجنا نحن أيها الناس بما ننزل من السماء من ماء أزواجاً ، يعني ألواناً من نبات شتى ، يعني مختلفة الطعوم ، والأرايح والمنظر . . ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾»^(١٧) ، يقول - تعالى ذكره - : كلوا أيها الناس من طيب ما

(١) السجدة : الآية (٢٧) .

(٢) النازعات : الآية (٣١-٣٣) .

(٣) عبس : الآية (٢٥-٣٢) .

(٤) النحل : الآية (١٠) .

(٥) طه : الآية (٥٠) .

(٦) الأنبياء : الآية (٣١) .

(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩٢) .

(٨) السجدة : الآية (٢٧) .

(٩) عبس : الآية (٢٥-٣٢) .

(١٠) أضواء البيان (٤/٢١-٢٤) .

(١١) الأنبياء : الآية (٣١) .

(١٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩٢) .

(١٣) الأنبياء : الآية (٣١) .

(١٤) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩٢) .

أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاق بهائمكم منه، وأقواتها أنعامكم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ يقول: إن فيما وصفت في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات، يعني لدلالات وعلامات تدل على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره، ﴿لَأُولِي النُّهَى﴾ يعني: أهل الحجب والعقول^(١).

قال السعدي: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للازدراع وغيره، وذلها لذلك، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنفعون بأسفارهم، أكثر مما يتنفعون بإقامتهم.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: أنزل المطر ﴿فَأَنْشَأَ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٢)، وأنبت بذلك جميع أصناف النباتات على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقا لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ وساقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النباتات الإباحة، فلا يحرم منها إلا ما كان مضرا، كالسموم ونحوه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتعام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِّىَ الْمَوْقُوتِ﴾^(٣).

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المتنفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار،

(١) جامع البيان (١٦/١٧٤-١٧٥).

(٢) النحل: الآية (٦٥).

(٣) الروم: الآية (٥٠).

وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة. ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١) ﴿٢﴾.

قال ابن عطية: «انظر إن هذه الأشياء التي ذكرها موسى ﷺ هي مما تقضي بداية العقول أن فرعون وكل بشر بعيد منها، لأنه لو قال هو القادر الرازق المرید العالم ونحو هذا من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط فيقول أنا أفعل هذا كله، فإنما أتاه موسى ﷺ بصفات لا يمكنه أن يقول إن ذلك له» (٣).

* * *

(١) يوسف: الآية (١٠٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٦٤-١٦٥).

(٣) المحرر الوجيز (٤/٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۖ﴾ ﴿٥٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله ﴿مِنْهَا﴾ معاً، وقوله: ﴿وَفِيهَا﴾ راجع إلى (الأرض) المذكورة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

وقد ذكر في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه خلق بني آدم من الأرض.

الثانية: أنه يعيدهم فيها.

الثالثة: أنه يخرجهم منها مرة أخرى. وهذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية جاءت موضححة في غير هذه الموضع.

أما خلقه إياهم من الأرض، فقد ذكره في مواضع من كتابه. كقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾^(٢)، وقوله في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من الآيات. والتحقيق أن معنى خلقه الناس من تراب؛ أنه خلق أباهم آدم منها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾^(٤). ولما خلق أباهم من تراب وكانوا تبعاً له في الخلق صدق عليهم أنهم خلُقوا من تراب. وما يزعمه بعض أهل العلم من أن معنى خلقهم من تراب، أن النطفة إذا وقعت في الرحم، انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه فيذرده على النطفة، فيخلق الله النسمة من النطفة والتراب معاً؛ فهو خلاف التحقيق؛ لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة. فهي غير مقارنة لها بدليل الترتيب بينهما بـ (ثم) في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ

(٢) الروم: الآية (٢٠).

(١) الحج: الآية (٥).

(٣) غافر: الآية (٦٧).

(٤) آل عمران: الآية (٥٩).

مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ^(١)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ^(٣) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ^(٥) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ^(٦) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ^(٧)، وكذلك ما يزعمه بعض المفسرين من أن معنى خلقهم من تراب؛ أن المراد أنهم خلقوا من الأغذية التي تتولد من الأرض، فهو ظاهر السقوط كما ترى.

وأما المسألة الثانية: فقد ذكرها تعالى أيضًا في غير هذا الموضع، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ^(٨) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ^(٩)، فقوله: ﴿كِفَاتًا﴾ أي موضعهم الذي يكفتون فيه، أي: يضمون فيه، أحياء على ظهرها، وأمواتا في بطنها. وهو معنى قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

وأما المسألة الثالثة: وهي إخراجهم من الأرض أحياء يوم القيامة فقد جاءت موضحة في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَنُخْرِجُ الْأَرْضَ بِعَدَمِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ^(١٠)، أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ^(١١)، أي من القبور بالبعث يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمُ تَخْرُجُونَ ^(١٢)، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ^(١٣)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ ^(١٤)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ^(١٥)، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا ^(١٦).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجسامًا ناطقة، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يقول: وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم،

(١) الحج: الآية (٥).

(٣) المؤمنون: الآيات (١٢-١٣).

(٥) المرسلات: الآيات (٢٥-٢٦).

(٧) ق: الآية (١١).

(٩) الأعراف: الآية (٥٧).

(١١) ق: الآية (٤٢).

(٢) غافر: الآية (٦٧).

(٤) السجدة: الآيات (٦-٨).

(٦) الروم: الآية (١٩).

(٨) الروم: الآية (٢٥).

(١٠) المعارج: الآية (٤٣).

(١٢) أضواء البيان (٤/٢٤-٢٥).

فنصيركم ترابا ، كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرا سويا ، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يقول : ومن الأرض نخرجكم كما كنتم قبل مماتكم أحياء ، فننشئكم منها ، كما أنشأناكم أول مرة . . وقوله : ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ يقول : مرة أخرى^(١) .

قال ابن كثير : ﴿﴿ مِنَّا خَلَقْنَاهُ وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾﴾ أي : من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ، ﴿وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي : وإليها تصيرون إذا متم وبلبتم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى . ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَقُطُّونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾^(٣) .^(٤)

قال ابن عاشور : «ودل قوله تعالى : ﴿وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ﴾ على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية لمواراة الموتى ، سواء كان شقاً في الأرض أو لحداً ، لأن كليهما إعادة في الأرض ؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنار ، أو إغراقهم في الماء ، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض ، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته . لأن الفطرة اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها . وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتل أحد بني آدم أخاه . كما قال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءً أَخِيهِ﴾^(٥) ، فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض»^(٦) .

قلت : هذه الإشارة الطيبة من ابن عاشور إلى سنة الدفن ، هي الفطرة السليمة ، التي أطبق تاريخ البشرية جمعاء عليها ، حتى إنهم كانوا إذا مات لهم رجل في سفينة تعبر البحر ؛ فإنهم يغسلون الميت ويكفونونه ويضعونه في ساتر يستره ويجمعه ، ويضعون معه حجراً ثقيلاً ينزله إلى قعر البحر على طريقة سنة الدفن . لكن مع الأسف هذه الحضارات الفاسدة التي أرجو الله أن تكون بائدة ، ظهرت بمظاهر فاسدة فيها أدنى للحى والميت ، يتأذى بها كل من رآها ، ويستنكرها كل من سمعها ، وهي تدل على أن حس الإحسان والرحمة للإنسان عندهم قد مات وانتهى ، خلاف

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧٥) .

(٢) الإسراء : الآية (٥٢) .

(٣) الأعراف : الآية (٢٥) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٢) .

(٥) المائدة : الآية (٣١) .

(٦) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٠-٢٤١) .

ما يزعمه المتبجحون من الدفاع عن حقوق الإنسان، فمن أعظم حقوق الإنسان في الإسلام العناية به في وفاته مهما كانت منزلته الاجتماعية؛ فإنه يذهب به إلى قبره على أحسن الأحوال من تكفين وتحنيط وصلاة ودعاء واستغفار له وعناية بقبره، وعدم أذاه بأي أنواع الأذى من ضرب أو تكسير أو كشف لجزء من بدنه ما أمكن، وعدم الكتابة على قبره، أو البناء عليه أو تجصيصه، أو شيء مما يخالف نصوص الكتاب والسنة، ويبقى ذكره على الألسن بالترحم عليه والاستغفار له، وسؤال الله تعالى أن يبقى الأبناء حسنة له وامتدادًا لذكره، لكن مع الأسف قد جاءت هذه الحضارة الخاسرة، فظهرت بمظاهر سيئة، منها وضع الأموات في صناديق فوق الأرض، أو حرقهم، والعياذ بالله، فتصبح أجسادهم رمادًا توضع في علب ليحملها أهل الميت للذكرى بزعمهم! وفي هذا من الأذى للميت وللأحياء ما الله به عليم. فلا شك في شناعة هذا الفعل، وأنه من أشرم ما نتج عن هذه الحضارة الفاسدة. والله المستعان.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «أظهر القولين أن الإضافة في قوله: ﴿آيَاتِنَا﴾ مضمنة معنى العهد كالألف واللام. والمراد بآياتنا المعهودة لموسى كلها وهي التسع المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْصَاءَ مِنْ غَيْرِ مُسَوِّ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾^(٢). وقال بعضهم: الآيات التسع المذكورة هي: العصا، واليد البيضاء، وقلق البحر، والحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عينا، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة. وقد قدمنا كلام أهل العلم في الآيات التسع في سورة الإسراء. وقال بعض أهل العلم: العموم على ظاهره، وإن الله أرى فرعون جميع الآيات التي جاء بها موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وذلك بأن عرفه موسى جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء. والأول هو الظاهر.

وقد بين -جل وعلا- في غير هذا الموضع أن الآيات التي أراها فرعون وقومه بعضها أعظم من بعض، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾^(٣)، وقوله: ﴿لِيُزِيلَ مِنْ آيَاتِنَا الْكِبَرَىٰ﴾^(٤)، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا آيَةَ الْكِبَرَىٰ﴾^(٥)، لأن الكبرى في الموضعين تأنيث الأكبر، وهي صيغة تفضيل تدل على أنها أكبر من غيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ يعني أنه مع ما أراه الله من الآيات المعجزات الدالة على صدق نبيه موسى، كذب رسول ربه موسى، وأبى عن قبول الحق.

(٢) النمل: الآية (١٢).

(٤) طه: الآية (٢٣).

(١) الإسراء: الآية (١٠١).

(٣) الزخرف: الآية (٤٨).

(٥) النازعات: الآية (٢٠).

وقد أوضح -جل وعلا- في غير هذا الموضع شدة إباطه وعناده وتكبره على موسى في مواضع كثيرة من كتابه . كقوله : ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّنَسْحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٤) أمر أنا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾^(٥) فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَلَّةٍ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾^(٦) .^(٧)

ومقصوده بذلك كله تعظيم أمر نفسه وتحقير أمر موسى ، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضل .

وقد بين -جل وعلا- أن فرعون كَذَّبَ وأبى ، وهو عالم بأن ما جاء به موسى حق . وأن الآيات التي كذب بها وأبى عن قبولها ما أنزلها إلا الله ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٨) . وقوله : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مُثَبَّرًا﴾^(٩) ، إلى غير ذلك من الآيات^(١٠) .

قال ابن كثير : «وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾^(١١) ، يعني : فرعون ، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات ، وعاین ذلك وأبصره ، فكذب بها وأبأها كفرا وعنادا وبغيا ، كما قال تعالى : ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١٢) .^(١٣)»

* * *

(١) الأعراف : الآية (١٣٢) .

(٢) الشعراء : الآية (٢٩) .

(٣) النمل : الآية (١٤) .

(٤) أضواء البيان (٤/ ٢٦-٢٧) .

(٥) النمل : الآية (١٤) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٢) .

(٧) الزخرف : الآية (٤٧) .

(٨) الزخرف : الآيات (٥١-٥٣) .

(٩) الإسراء : الآية (١٠٢) .

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

★ غريب الآية:

سوى: عدل ونصفة ووسط.

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه لما أرى فرعون آياته على يد نبيه موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- قال: إن الآيات التي جاء بها موسى سحر، وأنه يريد بها إخراج فرعون وقومه من أرضهم.

أما دعواه هو وقومه أن موسى ساحر، فقد ذكره الله -جل وعلا- في مواضع كثيرة من كتابه؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ نَجْدٍ فَقَالُوا لَئِنَّا بِكُمْ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠١﴾﴾^(١)، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٢﴾﴾^(٢)، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴿١٠٣﴾﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُ السَّاحِرُ ادْعَ لَنَا رَبِّكَ ﴿١٠٤﴾﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ادعاؤهم أنه يريد إخراجهم من أرضهم بالسحر فقد ذكره الله -جل وعلا- أيضاً في مواضع من كتابه؛ كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾، وقوله في الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾^(٥)، وقوله في الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ

(١) النمل: الآية (١٣).

(٢) يونس: الآية (٧٦).

(٣) طه: الآية (٧١).

(٤) الزخرف: الآية (٤٩).

(٥) الأعراف: الآيتان (١٠٩-١١٠).

حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾
 وقوله في يونس: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَعَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي
 الْأَرْضِ﴾ ﴿٢﴾، وقال سحرة فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ
 بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ ﴿٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة
 أن فرعون لعنه الله، لما رأى آيات الله ومعجزاته الباهرة، وادعى أنها سحر، أقسم
 ليأتين موسى بسحر مثل آيات الله التي يزعم هو أنها سحر. وقد بين في غير هذا
 الموضع أن إتيانهم بالسحر وجمعهم السحرة كان عن اتفاق ملتهم على ذلك؛ كقوله
 في الأعراف: ﴿قَالَ أَلَمْأَلَأْ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٦١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ
 أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٦٢﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٦٣﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ
 عَلِيمٍ ﴿١٦٤﴾. وقوله في الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ أَنْ
 يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
 ﴿٢٧﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحَرٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾. ﴿٥﴾، لأن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ في
 الموضعين يدل على أن قول فرعون: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ وقع بعد مشاورة
 واتفاق الملأ منهم على ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ
 مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٣٠﴾. ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية
 الكريمة: من كون المناظرة بين موسى والسحرة عين لوقتها يوم معلوم يجتمع الناس
 فيه، ليعرفوا الغالب من المغلوب، أشير له في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في
 الشعراء: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢٩﴾ لَمَلْنَا
 نَبْعَ السَّحَرَةِ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ ﴿٣٠﴾. فقوله تعالى: ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾. اليوم
 المعلوم: هو يوم الزينة المذكور هنا. وميقاته وقت الضحى منه المذكور في قوله:
 ﴿وَأَنْ يُخَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ ﴿٣٠﴾.

(١) الشعراء: الآيات (٣٤-٣٥).

(٢) يونس: الآية (٧٨).

(٣) طه: الآية (٦٣).

(٤) الأعراف: الآيات (١٠٩-١١٢).

(٥) الشعراء: الآيات (٣٤-٣٧).

(٦) الشعراء: الآيات (٣٨-٤٠).

(٧) أضواء البيان (٤/٢٧-٢٩).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿فَلَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم، ونوروزهم، وتفرغهم من أعمالهم، واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح بين، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهراً ضحى»^(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال فرعون لما أريناه آياتنا كلها لرسولنا موسى: أجتثنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسَحَرٍ مِّثْلِهِ﴾ فَلَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نتعداه، لنجىء بسحر مثل الذي جئت به، فننظر أينما يغلب صاحبه، لا نخلف ذلك الموعد ﴿وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾ يقول: بمكان عدل بيننا وبينك، ونصف»^(٢).

وقال: «قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾... يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لفرعون، حين سأله أن يجعل بينه وبينه موعداً للاجتماع: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ للاجتماع ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ يعني يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه، ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ يقول: وأن يساق الناس من كل فجٍ وناحية ﴿ضُحًى﴾ فذلك موعد ما بيني وبينك للاجتماع»^(٣).

قال ابن عطية: «هذه المقابلة من فرعون تدل على أن أمر موسى قد كان قوي

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩٣).

(٢) جامع البيان (١٦/١٧٦).

(٣) جامع البيان (١٦/١٧٧).

وكثر متبعوه من بني إسرائيل ، ووقع أمره في نفوس الناس ، وذلك أنها مقالة من يحتاج إلى الحجة ، لا من يصدع بأمر نفسه»^(١) .

قال الرازي : «حكى الله تعالى شبهة فرعون وهي قوله : ﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ ، وتركيب هذه الشبهة عجيب ، وذلك لأنه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدًا وهو قوله : ﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ ، وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان في النهاية ، ولذلك جعله الله تعالى مساويًا للقتل في قوله : ﴿أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾»^(٢) .

ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته ﷺ ، وهي أن ما جئتنا به سحر لا معجز ، ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته ، والسحر مما يمكن معارضته قال : ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾»^(٣) .

قلت : هذه الواقعة وهذا الاقتراح من فرعون عليه لعائن الله لمواجهة موسى ، ودفع ما معه من الحق والنبوة ، له أشباه ونظائر ، فهذا غلام ذكر الله قصته في سورة البروج ، وهي قصة أصحاب الأخدود ، والذي أعطاه الله تعالى ما أعطاه من شفاء الأمراض ، فوحد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته ، وأبى أن يتخذ ملك البلاد إلهًا من دون الله ، فأراد الملك قتله وإبادته ، ففعل به ما فعل من أنواع الابتلاءات والامتحانات ؛ من محاولة إلقائه من أعلى جبل ، وإغراقه في البحر ، فاقترح عليه الغلام أن يجمع الناس في صعيد واحد ، وأن يأخذ سهمًا ويذكر عليه اسم الله فيرميه فيموت ، وكان كذلك ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فانتشر التوحيد بسبب ذلك الحدث ، وتبين أهل الحق ، وهزم أهل الباطل ، وقال الله فيهم : ﴿قُلْ أَخَذْتُ الْأَخْدُودَ﴾»^(٤) أي الذين حفروه .

وكذلك عيسى عليه السلام لما اجتمعوا على قتله رفعه الله إليه ، فنصر الله به التوحيد ، وهزم أهل الكفر والعناد .

وكذلك قصة الرسول ﷺ مع كفار قريش الذين بادروه بمواجهته في بدر فكان

(٢) النساء : الآية (٦٦) .

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٤٨) .

(٣) مفاتيح الغيب (٧٢/ ٧٢) .

(٤) البروج : الآية (٤) .

لهم يوم الزينة فانهزم الشرك وانتصر التوحيد، وكان لهذا اللقاء ما له من أثر في تاريخ الإسلام إلى أن تقوم الساعة.

وهكذا لو تتبعنا جميع المناظرات لأهل السنة والتوحيد تجدناها دائما مثل قصة موسى مع فرعون، ينصر الله فيها التوحيد والسنة، ويهزم فيها الشرك والبدعة. مثل ما وقع لإمام أهل السنة أحمد، وأبي العباس ابن تيمية -رحمة الله عليهما-، في يوم الزينة وما اجتمع فيه لفرعون وموسى كان نصرة للتوحيد، والحمد لله رب العالمين.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ ﴿٦٦﴾

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾، قال بعض العلماء: معناه: انصرف مدبراً من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه هو وموسى. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في سورة النازعات في القصة بعينها: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَنْعَىٰ﴾ ﴿٧٣﴾ فَحَسَرَ فَنَادَىٰ﴾^(١)، وقوله: ﴿فَحَسَرَ﴾ أي جمع السحرة. وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي: أعرض عن الحق الذي جاء به موسى. ومن معنى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾، الظاهر أن المراد بـ ﴿كَيْدَهُ﴾ ما جمعه من السحر ليقلب به موسى في زعمه. وعليه فالمراد بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته، ويدل على هذا أمران:

أحدهما: تسمية السحر في القرآن كيداً؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ﴾^(٣)، وقوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾^(٤)، وكيدهم سحرهم.

الثاني: أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى في الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ﴾^(٥). وقوله: ﴿حَاشِرِينَ﴾، أي: جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته، وقوله في الشعراء: ﴿وَأَنْبِئْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿١٧٢﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٦)، وقوله في يونس: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٧٧﴾^(٧).

(٢) طه: الآية (٤٨).

(٤) طه: الآية (٦٤).

(٦) الشعراء: الآيات (٣٦-٣٨).

(٨) أضواء البيان (٤/٣٢).

(١) النازعات: الآيات (٢٢-٢٣).

(٣) طه: الآية (٦٩).

(٥) الأعراف: الآيات (١١١-١١٢).

(٧) يونس: الآية (٧٩).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ يقول - تعالى ذكره -: فأدبر فرعون معرضاً عما أتاه به من الحق ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ يقول: فجمع مكره، وذلك جمعه سحرته بعد أخذه إياهم بتعلمه ﴿ثُمَّ أَنَّى﴾ يقول: ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته»^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾»^(٢). ﴿ثُمَّ أَنَّى﴾ أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (١٦/١٧٨).

(٢) يونس: الآية (٧٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
فَيُسْجِتَكُمْ بَعْدَ بَعْثٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۖ﴾ ﴿١١٦﴾ فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا
النَّجْوَىٰ ﴿١١٧﴾ قَالُوا إِن هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿١١٨﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا
وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴿١٢٠﴾

★ غريب الآية:

تَقَرَّوْا: من الافتراء، وهو أقبح الكذب، أو الكذب مع التعمد عند من يرى أن
الكذب مخالفة ما في الواقع مطلقاً.

فَيُسْجِتْكُمْ: قُرئ بضم التاء من أسخته، وبفتحها من سخته، أي يهلككم هلاك
استئصال.

النَّجْوَى: يقال: ناجيت فلانا: أي ساررت.

فَنَنْزَعُوا: المنازعة: المجادلة.

المُثْلَى: أي القربى إلى الخير والفضل.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته،
ووقفت الرعايا يمناً ويسرة، وأقبل موسى عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه
هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم
في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون:
﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُفْرَجِينَ ﴿١١٩﴾».

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تُخَيِّلُوا للناس

بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله، ﴿فَيَسْجُذْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ﴾، هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه -يعنون: موسى وهارون- ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم.

وقد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبي يحدث عن علي في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى﴾ قال: أولي الشرف والعقل والأسنان. وقال أبو صالح: ﴿بَطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى﴾ أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المتلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عددا وأموالا، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما.

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿يَطْرِيقُكُمْ الْمُنْتَكَ﴾ بالذي أنتم عليه .
 وقوله: ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ أي اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا، وألقوا
 ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ أَيُّومَ مَنِ
 اسْتَعْلَى﴾ أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو
 فينال الرياسة العظيمة^(١).

قال السعدي: «واجتمع الناس للموعد، فكان الجمع حافلًا حضره الرجال
 والنساء، والملا والأشراف والعوام والصغار والكبار، وحضوا الناس على
 الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ ﴿لَعَلَّنا نَنْفَعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ
 أَكْثَرِينَ﴾^(٢)، فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظمهم موسى عليه السلام، وأقام الحجة
 عليهم، وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي: لا تنصروا
 ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب،
 فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافترائكم، فلا تدركون ما تطلبون
 من النصر والجاه عند فرعون وملائه، ولا تسلمون من عذاب الله. وكلام الحق
 لا بد أن يؤثر في القلوب.

لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا،
 ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم
 إلى الآن، ما تم أمرهم، ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
 وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(٣)، فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على
 مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى
 التي أسروها فسررها بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَحَرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ
 بِسِحْرِهِمَا﴾ كمقالة فرعون السابقة، فيما أن يكون ذلك توافقًا من فرعون والسحرة
 على هذه المقالة من غير قصد، ولما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته، التي صمم عليها
 وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُنتَى﴾ أي:

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) الشعراء: الآيتان (٣٩-٤٠).

(٣) الأنفال: الآية (٤٢).

طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتكم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا:

﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقا رأيكم وكلمتكم، ﴿ثُمَّ أَثَرُوا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فما أصلبهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب، ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل^(١).

قال ابن عاشور: «واعلم أن جميع القراء المعبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة من قوله (هاذان) ما عدا أبا عمرو من العشرة، وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر. وذلك يوجب اليقين بأن إثبات الألف في لفظ (هذان) أكثر تواتراً بقطع النظر عن كيفية النطق بكلمة (إن) مشددة أو مخففة، وأن أكثر مشهور القراءات المتواترة قرأوا بتشديد نون (إن) ما عدا ابن كثير وحفصاً عن عاصم، فهما قرءا (إن) بسكون النون على أنها مخففة من الثقيلة.

وإن المصحف الإمام ما رسموه إلا أتباعاً لأشهر القراءات المسموعة المروية من زمن النبي ﷺ وقرءاء أصحابه، فإن حفظ القرآن في صدور القراء أقدم من كتابته في المصاحف، وما كتب في أصول المصاحف إلا من حفظ الكاتيبين، وما كُتب المصحف الإمام إلا من مجموع محفوظ الحُفاظ وما كتبه كتاب الوحي في مدة نزول الوحي.

فأما قراءة الجمهور «إن هذان لساحران» بتشديد نون (إن) وبالألف في هذان وكذلك في لساحران، فللمفسرين في توجيهها آراء بلغت الستة. وأظهرها أن تكون (إن) حرف جواب مثل: نعم وأجل، وهو استعمال من استعمالات (إن)، أي اتبعوا لما استقر عليه أمرهم بعد التجوى كقول عبدالله بن قيس الرقيات:

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٦٧-١٦٩).

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنّه
أي أجل أو نعم ، والهاء في البيت هاء السكت ، وقول عبد الله بن الزبير
لأعرابي استجداه فلم يعطه ، فقال الأعرابي : لعن الله ناقة حملتني إليك . قال ابن
الزبير : إنّ وراكبها . وهذا التوجيه من مبتكرات أبي إسحاق الزجاج ذكره في
تفسيره . وقال : عرضته على عالمينا وشيخينا وأستاذينا محمد بن يزيد (يعني
المبرد) ، وإسماعيل بن إسحاق بن حمّاد (يعني القاضي الشهير) فقبلاه وذكرنا أنه
أجود ما سمعاه في هذا .

وقلت : لقد صدقا وحققا ، وما أورده ابن جنّي عليه من الرد فيه نظر .

وفي «التفسير الوجيز» للواحيدي سأل إسماعيل القاضي (هو ابن إسحاق بن
حمّاد) ابن كيسان عن هذه المسألة ، فقال ابن كيسان : لما لم يظهر في المبهم
إعراب في الواحد ولا في الجمع (أي في قولهم هذا وهؤلاء إذ هما مثنيان) جرت
التثنية مجرى الواحد إذ التثنية يجب أن لا تغير . فقال له إسماعيل : ما أحسن هذا لو
تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به ، فقال له ابن كيسان : فليقل به القاضي حتى
يؤنس به ، فتبسم .

وعلى هذا التوجيه يكون قوله تعالى : «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» حكاية لمقال فريق
من المتنازعين ، وهو الفريق الذي قبل هذا الرأي ؛ لأن حرف الجواب يقتضي كلاما
سبقه .

ودخلت اللام على الخبر : إما على تقدير كون الخبر جملة حذف مبتدأها وهو
مدخول اللام في التقدير ، ووجود اللام ينبئ بأن الجملة التي وقعت خبرا عن اسم
الإشارة جملة قسمية ؛ وإما على رأي من يجيز دخول اللام على خبر المبتدأ في غير
الضرورة .

ووجهت هذه القراءة أيضًا بجعل (إنّ) حرف توكيد وإعراب اسمها المثنى جرى
على لغة كنانة وبلحارث بن كعب الذين يجعلون علامة إعراب المثنى الألف في
أحوال الإعراب كلها ، وهي لغة مشهورة في الأدب العربي ، ولها شواهد كثيرة منها
قول المتلمس :

فأطرقَ إطرَاقَ الشُّجاع ولو درى مساعًا لنأباهُ الشُّجاعُ لصمّا

وقرأه حفص بكسر الهمزة وتخفيف نون (إن) مسكنة على أنها مخففة (إن) المشددة. ووجه ذلك أن يكون اسم (إن) المخففة ضمير شأن محذوفاً على المشهور. وتكون اللام في (لساحران) اللام الفارقة بين (إن) المخففة وبين (إن) النافية.

وقرأ ابن كثير بسكون نون (إن) على أنها مخففة من الثقيلة وبإثبات الألف في (هذان) وبتشديد نون (هاذان).

وأما قراءة أبي عمرو وحده (إنَّ هَذَيْنِ) بتشديد نون (إن) وبالياء بعد ذال هذين. فقال القرطبي: هي مخالفة للمصحف. وأقول: ذلك لا يطعن فيها لأنها رواية صحيحة ووافقت وجهها مقبولا في العربية.

ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متحدة المقصود. فلا التفات إلى ما روي من ادعاء أن كتابة (إنَّ هَذَيْنِ) خطأ من كاتب المصحف، وروايتهم ذلك عن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه، وعن عروة بن الزبير عن عائشة، وليس في ذلك سند صحيح.

حسبوا أن المسلمين أخذوا قراءة القرآن من المصاحف وهذا تغفل، فإن المصحف ما كتب إلا بعد أن قرأ المسلمون القرآن نيقاً وعشرين سنة في أقطار الإسلام، وما كتبت المصاحف إلا من حفظ الحفظ، وما أخذ المسلمون القرآن إلا من أفواه حُفَاطِهِ قَبْلَ أَنْ تَكْتُبَ المصاحف، وبعد ذلك إلى اليوم فلو كان في بعضها خطأ في الخط لما تبعه القراء، ولكان بمنزلة ما تُرك من الألفات في كلمات كثيرة وبمنزلة كتابة ألف الصلاة، والزكاة، والحياة، والربا بالواو في موضع الألف وما قرأوها إلا بألفاتها^(١).

قال الرازي: «وأما الطعن في القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه: أحدها: أنه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كتنقل جميع القرآن، فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله في جميع القرآن، وذلك يفضي إلى القدح في التواتر، وإلى القدح في كل القرآن وأنه باطل، وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٥١-٢٥٤).

المنقول عن بعض الصحابة .

وثانيها : أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى ، وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنًا وغلطًا ، فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما أن فيه لحنًا وغلطًا .

وثالثها : قال ابن الأنباري : إن الصحابة هم الأئمة والقادة ، فلو وجدوا في المصحف لحنًا لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم في الاتباع ، حتى قال بعضهم : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم . فثبت أنه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة^(١) .

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٧٦/٢٢) .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ (٦٥)
 قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)
 فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ
 مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ
 أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) ﴿

★ غريب الآية:

يُخَيَّلُ: يشبهه، والتخييل هو إبداء أمر لا حقيقة له.
 فَأَوْجَسَ: أوجس أي أحسَّ، وقيل: معناه: أضمر.
 تَلَقَّفَ: أي تأخذ بقوة وسرعة من الهواء، والمعنى: تلتقم وتبتلع.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن السحرة لما جمعهم فرعون واجتمعوا مع موسى للمغالبة، قالوا له متأدبين معه: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ وقد بين تعالى مقاتلتهم هذه في غير هذا الموضع؛ كقوله في الأعراف: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلَفِّينَ﴾^(١). وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يحذف مفعول فعل في موضع، ثم يبين في موضع آخر، فلما نبين ذلك، وقد حذف هنا في هذه الآية مفعول: ﴿تُلْقَىٰ﴾، ومفعول ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، وقد بين تعالى في مواضع آخر أن مفعول إلقاء موسى هو عصاه، وذلك في قوله في الأعراف: ﴿وَأَرْجَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُفُونَ﴾^(٢)، وقوله في الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُفُونَ﴾

(١) الأعراف: الآية (١١٥).

(٢) الأعراف: الآية (١١٧).

﴿١٥﴾^(١)، وقوله هنا: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا﴾. وما في يمينه هو عصاه. كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ^(٢). وقد بين تعالى أيضًا في موضع آخر: أن مفعول إلقاءهم هو حبالهم وعصيتهم، وذلك في قوله في الشعراء: ﴿فَالْقَوَا جَاهُكُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿١٩﴾^(٣). وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضًا بقوله هنا: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاهُكُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِمْ يَسْخَرُهُمْ أَنَّهُ تَنَتَّى﴾ ﴿٢١﴾^(٤).

وقال: «قوله تعالى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾؛ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن نبیه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما خيره سحرة فرعون أن يلقي قبلهم أو يلقوا قبله قال لهم: ﴿أَلْقُوا﴾، يعني: ألقوا ما أنتم ملقون، كما صرح به في الشعراء في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾^(٥)، وذلك هو المراد أيضًا بقوله في الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾^(٦) ﴿٧﴾.

وقال: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِمْ يَسْخَرُهُمْ أَنَّهُ تَنَتَّى﴾ يدل على أن السحر الذي جاء به سحرة فرعون تخيل لا حقيقة له في نفس الأمر. وهذا الذي دلت عليه آية طه هذه، دلت عليه آية الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، لأن قوله: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ يدل على أنهم خيلوا لأعين الناظرين أمرًا لا حقيقة له.

وبهاتين الآيتين احتج المعتزلة ومن قال بقولهم على أن السحر خيال لا حقيقة له. والتحقيق الذي عليه جماهير العلماء من المسلمين: أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة، لا مطلق تخيل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ما له حقيقة قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(٨)، فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود، له حقيقة تكون سببًا للتفريق بين الرجل وامرأته، وقد عبر الله عنه بما الموصولة، وهي تدل على أنه شيء له وجود حقيقي. ومما يدل على ذلك أيضًا قوله

(٢) طه: الآيات (١٧-١٨).

(٤) أضواء البيان (٤/٣٣).

(٦) الأعراف: الآية (١١٦).

(٨) البقرة: الآية (١٠٢).

(١) الشعراء: الآية (٤٥).

(٣) الشعراء: الآية (٤٤).

(٥) الشعراء: الآية (٤٣).

(٧) أضواء البيان (٤/٣٣-٣٤).

تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْمُفَلِّتِينَ فِي الْمَقَادِرِ﴾^(١) ..

وبذلك يتضح عدم التعارض بين الآيات الدالة على أن له حقيقة، والآيات الدالة على أنه خيال. فإن قيل: قوله في طه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ﴾، وقوله في الأعراف: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، الدالان على أن سحر سحرة فرعون خيال لا حقيقة له، يعارضهما قوله في الأعراف: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾^(٢)، لأن وصف سحرهم بالعظم يدل على أنه غير خيال.

فالذي يظهر في الجواب -والله أعلم-: أنهم أخذوا كثيرًا من الحبال والعصي، وخيلوا بسحرهم لأعين الناس أن الحبال والعصي تسعى وهي كثيرة. فظن الناظرون أن الأرض ملئت حيات تسعى، لكثرة ما ألقوا من الحبال والعصي فخافوا من كثرتها، وبتخييل سعي ذلك العدد الكثير وصف سحرهم بالعظم. وهذا ظاهر لا إشكال فيه^(٣).

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ﴾ .. وهذا المعنى الذي ذكره -جل وعلا- هنا في هذه الآية الكريمة: من كونه أمر نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يلقي ما في يمينه أي يده اليمنى، وهو عصاه فإذا هي تبتلع ما يأفكون من الحبال والعصي التي خيلوا إليه أنها تسعى: أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في الأعراف:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٤) فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿٧٩﴾ وقوله تعالى في الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٥) فذكر العصا في الأعراف، والشعراء يوضح أن المراد بما في يمينه في طه أنه عصاه كما لا يخفى^(٦).

وقال: «اعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَى﴾، وذلك دليل على كفره. لأن الفلاح لا يُنفى بالكلية نفياً عاماً إلا عمن

(١) الفلق: الآية (٤).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٣٥-٣٦).

(٢) الأعراف: الآية (١١٦).

(٤) الأعراف: الآيات (١١٧-١١٩).

(٦) أضواء البيان (٤/ ٣٧).

(٥) الشعراء: الآية (٤٥).

لا خير فيه وهو الكافر .

ويدل على ما ذكرنا أمران :

الأول : هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر . كقوله تعالى : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^(١) . فقوله : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ ، يدل على أنه لو كان ساحراً -وحاشاه من ذلك- لكان كافراً . وقوله ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^(٢) صريح في كفر معلم السحر ، وقوله تعالى عن هاروت وماروت مقررًا له : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿وَيُعَلِّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾^(٤) أي : من نصيب ، ونفي النصيب في الآخرة بالكلية لا يكون إلا للكافر عيادًا بالله تعالى . وهذه الآيات أدلة واضحة على أن من السحر ما هو كفر بواح ، وذلك مما لا شك فيه .

الأمر الثاني : أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ يراد بها الكافر ، كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أُنْقُلُوْكُمْ عَلَىٰ آلِهَةٍ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنْ أَرَادْتَ الْغٰثِرُونَ عَلَىٰ آلِهَةٍ أَنْ يَقُولُوا لِيٰ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ يُنْفِخُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾^(٥) ، وقوله في يونس أيضًا : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾﴾^(٦) ، وقوله في الأنعام : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٧﴾﴾^(٧) ، إلى غير ذلك من الآيات . ويفهم من مفهوم مخالفة الآيات المذكورة : أن من جانب تلك الصفات التي استوجبت نفي الفلاح عن السحرة والكفرة وغيرهم أنه ينال الفلاح ، وهو كذلك ، كما بيّنه -جل وعلا- في آيات كثيرة ؛ كقوله : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾^(٨) ،

(١) البقرة : الآية (١٠٢) .

(٣) البقرة : الآية (١٠٢) .

(٢) البقرة : الآية (١٠٢) .

(٥) يونس : الآيات (٦٨-٧٠) .

(٤) البقرة : الآية (١٠٢) .

(٧) الأنعام : الآية (٢١) .

(٦) يونس : الآية (١٧) .

(٨) البقرة : الآية (٥) .

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١)، والآيات بمثل ذلك كثيرة^(٢).

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَالْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾^(٣). ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما عاينوا عصا موسى تبتلع جميع حبالهم وعصيتهم خروا سجداً لله تعالى قائلين: آمنا بالله الذي هو رب هارون وموسى. فهداهم الله بذلك البرهان الإلهي، هذه الهداية العظيمة. وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخرى. كقوله في الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٤) فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥) فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ^(٦) وَالْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدِينَ^(٧) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْمَلَكَيْنِ^(٨) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ^(٩)، وقوله في الشعراء: ﴿فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(١٠) فَالْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدِينَ^(١١) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْمَلَكَيْنِ^(١٢) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ^(١٣)،^(١٤)،^(١٥).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى ﷺ أنهم قالوا لموسى: ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ﴾ أي: أنت أولاً ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(١٦) قَالَ بَلْ أَلْقُوا^(١٧) أي: أنتم أولاً ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جليلة أمرهم، ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ رَعِيبُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْقَى﴾^(١٨)، وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿فَالْوَايِعُ ذَرْوَهُمْ لِنَا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾^(١٩)، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾^(٢٠) وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ رَعِيبُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْقَى﴾.

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناس أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمّاً غفيراً، وجمعاً كبيراً، فألقى كل منهم عصا وحبالاً حتى صار الوادي ملأً من حيات يركب بعضها بعضاً.

وقوله: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾^(٢١) أي: خاف على الناس أن يفتتنوا

(٢) أضواء البيان (٤/٣٩-٤٠).

(٤) الشعراء: الآيات (٤٥-٤٨).

(٦) الشعراء: الآية (٤٤).

(١) المؤمنون: الآية (١).

(٣) الأعراف: الآيات (١١٧-١٢٢).

(٥) أضواء البيان (٤/٦٢-٦٣).

(٧) الأعراف: الآية (١١٦).

بسحرهم وبغترؤا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، فإذا هي ﴿لَلْقَفِّ مَا صَنَعُوا﴾، وذلك أنها صارت تَنِينًا عظيمًا هائلًا ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلففته وابتلعتها، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرَةً، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله وقالوا: ﴿ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ۖ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(١).

ولهذا قال ابن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة^(٢).

قال السعدي: «فلما تمت مكيدتهم، وانحصر قصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ﴾ عصاك، ﴿وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ تَحْتَ الْمَلَكَيْنِ﴾ خيروه موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حالة كانت، فقال لهم موسى: ﴿بَلِّ الْقَوَائِمَ﴾ فآلقوا حبالهم وعصيتهم، ﴿فَإِذَا جِأْتُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِيَلٍ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى موسى ﴿مِنْ سِخْرِهِمُ﴾ البليغ ﴿أَنَّهُ تَسَعَى﴾ أي: أنها حيات تسعى، فلما خيل إلى موسى ذلك، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾^(٣) كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره.

﴿قُلْنَا﴾ له تشبثًا وتطمينًا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويدلوا لك ويخضعوا.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك ﴿لَلْقَفِّ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(٤) أي: كيدهم ومكرهم، ليس بمثمر لهم ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة، الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل، ويخيلون أنهم على

(١) الشعراء: الآيتان (٤٧-٤٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩٥-٢٩٦).

الحق، فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علما يقينا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان. ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدًا ۖ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۝٤٨﴾^(١)، فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم، فصارت بينة ورحمة للمؤمنين، وحجة على المعاندين^(٢).

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿فَأَلْقَى﴾ يدل على قوة البرهان الذي عاينوه. كأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها..

واعلم أن علم السحر مع خسته، وأن الله صرح بأنه لا يضر ولا ينفع، قد كان سببًا لإيمان سحرة فرعون، لأنهم لمعرفتهم بالسحر عرفوا معجزة العصا خارجة عن طور السحر، وأنها أمر إلهي فلم يداخلهم شك في ذلك. فكان ذلك سببًا لإيمانهم الراسخ الذي لا يزعه الوعيد والتهديد. ولو كانوا غير عالمين بالسحر جدًّا، لأمكن أن يظنوا أن مسألة العصا من جنس الشعوذة. والعلم عند الله تعالى^(٣).

وانظر قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ من سورة البقرة^(٤).

وانظر أيضًا أضواء البيان للشنقيطي رحمه الله (٤١/٤-٦٢).

* * *

(١) الشعراء: الآيات (٤٦-٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٦٩-١٧١).

(٣) أضواء البيان (٤/٦٣).

(٤) الآية (١٠٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطَعُونَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا تُصَلِّبُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۝٦٩﴾

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكراً عليهم: ﴿ءَامَنْتُمْ لَكُمْ﴾، أي: صدقتموه في أنه نبي مرسل من الله، وآمنتم بالله قبل أن آذن لكم. يعني أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم، لأنه يزعم أنهم لا يحق لهم أن يفعلوا شيئاً إلا بعد إذنه هو لهم. وقال لهم أيضاً: إن موسى هو كبيرهم. أي كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر. ثم هددهم مقسماً على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلاً. لأنه أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة. لأنه إن كان قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شق كامل صحيح، بخلاف قطعهما من خلاف. فالجنب الأيمن يضعف بقطع اليد، والأيسر يضعف بقطع الرجل كما هو معلوم. وأنه يصلبهم في جذوع النخل، وجذع النخلة هو أخشن جذع من جذوع الشجر، والتصليب عليه أشد من التصليب على غيره من الجذوع كما هو معروف. وما ذكره -جل وعلا- عنه هنا أوضحه في غير هذا الموضع أيضاً. كقوله في سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَقُطُّعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا تُصَلِّبُكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٦٩﴾^(١) وذكر هذا أيضاً في سورة الأعراف وزاد فيها التصريح بفاعل قال، وادعاء فرعون أن موسى والسحرة تمالؤوا على أن يظهروا أنه غلبهم مكرراً ليتعاونوا على إخراج فرعون وقومه من مصر، وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا

(١) الشعراء: الآية (٤٩).

لَمَكُرِّ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ لَا تَطْعَمَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ تَخْلِفُونَ ﴿١٣٢﴾ يَبِينُ أَنَّ التَّصْلِيبَ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ هُوَ مَرَادُهُ بِقَوْلِهِ فِي «الْأَعْرَافِ، وَالشَّعْرَاءِ»: ﴿وَلَا تُصَلِّبُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. أي: في جَذْوَعِ النَّخْلِ»^(١).

وقال: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّى أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّى﴾: يعني أنا، أم رب موسى أشد عذابًا وأبقى. واقتصر على هذا القرطبي. وعليه فرعون يدعي أن عذابه أشد وأبقى من عذاب الله. وهذا كقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَقْبَرُ﴾^(٢)، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾^(٣)، وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ بِالْغَيْرِ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾^(٤). وقال بعضهم: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّى﴾ أنا، أم موسى أشد عذابًا وأبقى. وعلى هذا فهو كالتهمك بموسى لاستضعافه له، وأنه لا يقدر على أن يعذب من لم يطعه. كقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَاذُ بَيِّنٌ﴾^(٥). والله - جل وعلا - أعلم»^(٦).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهدهدهم وأوعدهم وقال: ﴿مَا أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ أَذِّنَ لَكُمْ﴾ أي: وما أمرتكم بذلك، وافتمتتم^(٨) علي في ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٩).

(١) الأعراف: الآيتان (١٢٣-١٢٤).

(٢) أضواء البيان (٤/٦٣-٦٤).

(٣) النزاعات: الآية (٢٤).

(٤) القصص: الآية (٣٨).

(٥) الشعراء: الآية (٢٩).

(٦) الزخرف: الآية (٥٢).

(٧) أضواء البيان (٤/٦٤).

(٨) أي عملتم دون أمري.

(٩) الأعراف: الآية (١٢٣).

ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَجْلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مثلة ولاقتلنكم وأشهرنكم. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أي أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه^(١).

قال السعدي: «قَالَ فرعون للسحرة: ﴿ءَأَمْنُكُمْ لِمَ قِيلَ أَنَّ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟ استغرب ذلك منهم لأدبهم معه، وذلهم وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك. ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تما لا هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر منه وظنوه صدقا ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾^(٢)، مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من مدين وحيدا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليهم، فجاءوا إليه ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص، وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال. ثم توعد فرعون السحرة فقال ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَجْلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد، يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى. ﴿وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي لأجل أن تشهروا وتختزوا، ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه أشد عذابا من الله وأبقى، قلبا للحقائق وترهيبا لمن لا عقل له^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٧).

(٢) الزخرف: الآية (٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧١-١٧٢).

قال ابن عاشور: «ولما رأى فرعون إيمان السحرة تغيّظ ورام عقابهم، ولكنه علم أنّ العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكت لأصول المناظرة، فاختلق للتشقي من الذين آمنوا علة إعلانهم الإيمان قبل استئذان فرعون، فعّد ذلك جرأة عليه، وأوهم أنّهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنهم تواطؤوا مع موسى من قبل، فأظهروا العجز عند مناظرته. ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأن موسى لم يأت بما يعجز السحرة إدخالاً للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات. وهذه شئشينة من قديم الزمان، اختلاق المغلوب بارد العذرة»^(١).

قلت: التاريخ يعيد نفسه، ومهما تسلسل الزمن؛ فإن الباطل تتشابه شبهه، ويتبع بعضها بعضاً، ففرعون لعنه بعدما خطط المخطط، وأنفق عليه من الأموال، وجند له كل جنوده وإمكاناته، ووعد سحرته الذين يريدون أن يتقدموا للمناظرة إن هم غلبوا ليكونن عنده من المقربين وأن لهم من المميزات والإتاوات ما يفوقون به غيرهم، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولتظهر قدرة الله الغالبة، وأن الإنسان مهما أوتي من العدة والعدد، فإذا لم يكن له من الله التوفيق فإن ذلك ينقلب حسرة وندامة، ﴿فَسَيَفْقَهُنَّهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾^(٢)، فانقلب تدبير فرعون من المؤامرة السابقة، والخطط التي دبرها دهرًا من الزمن، إلى ذلة لجنوده ومثليه، الذين سودوا وجهه، وصبروه ضحكة ومهزلة أمام الجموع الغفيرة التي كان ينتظر أن ينتصر فيها وأن يكون سيد الحلبة، وأن تنتهي دعوة موسى وأخيه، وتصبح نسيًا منسيًا كما قال عن نفسه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾^(٣)، وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَاذِبِينَ﴾^(٤)، وقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾^(٥). فكذلك أهل كل زمان مع أهل الحق يثيرون حولهم الشبه ويهددونهم بكل أنواع التهديدات، فالآن تثار حول الكتاب والسنة شبه كثيرة، وتوصف السنة بأوصاف هي بريئة منها، فهي دعوة التوحيد وفصل الأمة عن عبادة الأوثان، وعن البدع، وعن ترديد الأحاديث الموضوعة والضعيفة التي ما أنزل الله بها من

(١) التحرير والتنوير (١٦/٢٦٣-٢٦٤).

(٢) الأنفال: الآية (٣٦).

(٣) النازعات: الآية (٢٤).

(٤) الزخرف: الآية (٥٢).

(٥) غافر: الآية (٢٩).

سلطان، وفصلها عن كل رذيلة، وكل حرام يفسد ذاتها وشؤونها من ربًا وخمر
وتجارة محرمة، وهذا كله لا يعجب المنافقين الذين لا يريدون للأمة إلا السوء،
فيُردونها في كل مصيبة، ويوقعونها في البدع، وفي حماة الرذائل؛ من الزنا
والشذوذ والسحاق، وكل ما فيه هلاك الأمة إذا استمرت على ذلك، بسبب ذنوبها،
فعلى مثيري الشبه أن يرفقوا بأنفسهم، فإن الوبال لا شك نازل بهم.

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ۖ﴾ ﴿٧٣﴾

★ غريب الآية:

نُؤْثِرَكَ: نفُضُّكَ ونختارك.

فَطَرَنَا: أي: أبدعنا وأوجدنا.

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ ..»

ما ذكره -جل وعلا- عنهم في هذا الموضع: من ثباتهم على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده فيما عند الله، قد ذكره في غير هذا الموضع. كقوله في الشعراء عنهم في القصة بعينها: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا نُرِيَنَّكُمْ مَتَىٰ أَنْتُمْ أَهْلُ الْأَعْرَافِ ۖ﴾ ﴿٥٠﴾ وقوله في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّكَ مُنْقَلَبُونَ ۚ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَا لِنَعْتَمِدَ بَنَاتٍ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۚ﴾ ﴿٢١﴾، ﴿٢٣﴾.

وقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ۖ﴾ ۖ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن فرعون لعنه الله لما قال للسحرة ما قال لما آمنوا، قالوا له: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا﴾ يعنون ذنوبهم السالفة كالكفر وغيره من المعاصي، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ أي: ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر. وهذا الذي ذكره عنهم هنا أشار له في غير هذا

(١) الشعراء: الآية (٥٠).

(٢) الأعراف: الآيتان (١٢٥-١٢٦).

(٣) أضواء البيان (٤/٦٥).

الموضع؛ كقوله تعالى في الشعراء عنهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١)، وقوله عنهم في الأعراف: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٢). وفي آية طه هذه سؤال معروف، وهو أن يقال: قولهم ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾، يدل على أنه أكرههم عليه، مع أنه دلت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، كقوله في طه: ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ (١٦) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (١٧) فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَفْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ (١٨). فقولهم: ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَفْتُوا صَفًّا﴾ صريح في أنهم غير مكرهين. وكذلك قوله عنهم في الشعراء: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١٩) قَالِ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرِينَ﴾ (٢٠)، وقوله في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنْ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٢١) قَالِ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرِينَ﴾ (٢٢)، فتلك الآيات تدل على أنهم غير مكرهين.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة: منها: أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرم، فلما أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أنه طائعين، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض، ويدل لهذا قوله: ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٦)، وقوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٧).

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ظاهره المتبادر منه: أن المعنى خير من فرعون وأبقى منه. لأنه باق لا يزول ملكه، ولا يذل ولا يموت، ولا يعزل. كما أوضحنا هذا المعنى في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا﴾ (٨). أي بخلاف فرعون وغيره من ملوك الدنيا فإنه لا يبقى، بل يموت أو يعزل، أو يذل بعد العز. وأكثر المفسرين على أن المعنى: أن ثوابه خير مما وعدهم فرعون في قوله: ﴿قَالُوا إِنْ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٢١) قَالِ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرِينَ﴾ (٢٢).

(١) الشعراء: الآيتان (٥٠-٥١).

(٢) الأعراف: الآية (١٢٦).

(٣) طه: الآيات (٦٢-٦٤).

(٤) الشعراء: الآيتان (٤١-٤٢).

(٥) الأعراف: الآيتان (١١٣-١١٤).

(٦) الشعراء: الآية (٣٦).

(٧) الأعراف: الآية (١١١).

(٨) النحل: الآية (٥٢).

الْمُقَرَّبِينَ ﴿٧٢﴾. وأبقى: أي أودم. لأن ما وعدهم به فرعون زائل، وثواب الله باق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٣﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٤﴾﴾. وقال بعض العلماء: ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أبقى عذاباً من عذابك، وأودم منه. وعليه فهو رد لقول فرعون ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ومعنى ﴿وَأَبْقَى﴾ أكثر بقاء^(٤).

قال ابن كثير: «فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ، و﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات.

يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق العبادة والخضوع لا أنت.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا نَقْضُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك تسلط في هذه الدار، وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار. ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا﴾ أي: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أودم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رضي الله عنه.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: منك عذاباً إن عصي. وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون -لعنه الله- صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء^(٥).

قال السعدي: «لما عرف السحرة الحق ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق أجابوه بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي لن نختارك وما

(٢) النحل: الآية (٩٦).

(٤) أضواء البيان (٤/٦٦-٦٨).

(١) الأعراف: الآيات (١١٣-١١٤).

(٣) الأعلى: الآيات (١٦-١٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/٢٩٧-٢٩٨).

وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أَرانا الله من الآيات البيّنات الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب ﴿إِنَّمَا نَقْضُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضى ويذول ولا يضرنا، بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم.

وهذا كأنه جواب منهم لقوله ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا﴾ أي كفرنا ومعاصينا فإن الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها، وقولهم ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراها. والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم كما تقدم في قوله ﴿وَيَلَّكُم لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾^(١) أثر معهم ووقع منهم موقعا كبيرا، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم حيث قالوا: ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾^(٢) فجروا على ما سنه لهم، وأكرههم عليه، ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراحتهم لمعارضة الحق بالباطل، وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هي التي أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها، ووقفهم للإيمان والتوبة، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾ مما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه، ﴿وَأَبْقَى﴾ ثوابا وإحسانا، لا ما يقول فرعون: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾، يريد أنه أشد عذابا وأبقى، وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل، والله أعلم

(١) طه: الآية (٦١).

(٢) طه: الآية (٦٣).

بذلك وغيره»^(١).

قال ابن عاشور: «أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان وبقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسول إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة، فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد ﷺ مثلُ صدق»^(٢).

قلت: ومثله حمزة بن عبد المطلب وخباب وبلال وكل من أسلم بمكة، فتاريخ الإسلام مليء بالمجاهدين والثابتين على هذه الملة، فآثروا السنة وما يأتي بسببها من ابتلاء، على البدعة وما يأتي بسببها من رفاهية مزعومة. فنرجو الله أن يحشرنا مع أنبيائه ورسله وأوليائه وسلفنا الصالح الذين كانوا على منهاجه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٧٢-١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّكُمْ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (٧٤)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّكُمْ مُجْرِمًا﴾ أي: الأمر والشأن ﴿مَنْ يَأْتِ رَبُّكُمْ﴾، يوم القيامة في حال كونه ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مرتكباً الجريمة في الدنيا حتى مات على ذلك كالكاfer عياداً بالله تعالى، ﴿فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها ف ﴿لَا يَمُوتُ﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة فيها راحة.

وهذا الذي ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع: كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (١١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۖ﴾ (١٥) ﴿مِنْ رَبِّهِ جَهَنَّمَ وَنُفِثَ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ۖ﴾ (١٦) ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۖ﴾ (١٧)، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿وَيَنْجَنِيهَا إِلَّا نَفْسِي ۖ﴾ (١١) ﴿الَّذِي يَصَلَّىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۖ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (١٧)، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَا بِمَلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ ۖ﴾ (٥)، إلى غير ذلك من الآيات» (٦).

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - مخبراً عن قيل السحرة لفرعون ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّكُمْ مِنْ خَلْقِهِ مُجْرِمًا﴾ يقول: مكتسباً الكفر به، ﴿فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول: فإن له جهنم مأوى ومسكناً، جزاء له على كفره، ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتخرج نفسه، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فتستقر نفسه في مقرها فتطمئن، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم» (٧).

قال السعدي: «يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم عليه مجرماً - أي: وصفه الجرم

(٢) إبراهيم: الآيات (١٥-١٧).

(٤) الأعلى: الآيات (١١-١٣).

(٦) أضواء البيان (٤/٦٨).

(١) فاطر: الآية (٣٦).

(٣) النساء: الآية (٥٦).

(٥) الزخرف: الآية (٧٧).

(٧) جامع البيان (١٦/١٩٠).

من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر على ذلك حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا، أجيب بـ ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾^(١)،^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، (أو قال: بخطاياهم) فأماتهم إمانة، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية^(٣).

* غريب الحديث:

ضبائر: جمع ضِبَّارة بكسر الضاد، وهي الجماعة من الناس.
فُبُثُوا: فُرِّقُوا.

* فوائد الحديث:

قال ابن تيمية: «لكن النفس كما تقدم: الإرادة والحركة من لوازمها فإنها حية

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٧٥).

(١) المؤمنون: الآية (١٠٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/٢٥-٢٦)، ومسلم (١/١٧٢-١٧٣/١٨٥)، وابن ماجه (٢/١٤٤١/٤٣٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٠٦/١١٣٢٧).

حياة طبيعية ؛ لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة .
 وكان ما لها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها . فلا هي حية متنعمة بالحياة . ولا هي
 ميتة مستريحة من العذاب . قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۖ ۝٩ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٥
 وَبِجَنَّتِهَا الْأَشْقَى ۝١٦ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٧ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٨ ﴾^(١) ، فالجزاء من
 جنس العمل . لما كان في الدنيا : ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها . بل
 كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتا عديم الإحساس : كان في الآخرة
 كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينتفع به الحي ويستلذ به ، والحي لا بد له
 من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة : لم يحصل له مقصود الحياة ، فإن الألم ليس
 مقصودا . كمن هو حي في الدنيا وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به
 الأحياء . فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ولا يحصل له^(٢) .

* * *

(١) الأعلى : الآيات (٩-١٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/٢٩٧-٢٩٨) .

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ ۖ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ ﴿٧٦﴾

★ غريب الآية:

عَدْنُ: العدن: الإقامة والثبوت، وقيل: عدن عِلْمٌ لمكان بعينه في الجنة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: (ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: «أَنْ» ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: في الدنيا حتى مات على ذلك، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ﴾ عند الله ﴿الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ والعلی: جمع عليا وهي تأنيث الأعلی. وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا آخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(١)، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾^(٢)، ونحو ذلك من الآيات^(٣).

قال ابن جرير: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ موحدا لا يُشرك به ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: قد عمل ما أمره به ربه، وانتهى عما نهاه عنه، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ يقول: فأولئك الذين لهم درجات الجنة العلى..

ثم بين تلك الدرجات العلى ما هي، فقال: هن ﴿جَنَّاتٌ عِدْنُ﴾ يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء، ﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة.. وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ يقول: وهذه الدرجات العلى التي هي جنات عدن على ما وصف ﷺ ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما

(١) الإسراء: الآية (٢١).

(٢) الأحقاف: الآية (١٩).

(٣) أضواء البيان (٤/٦٨).

أمره، ولم يندس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه»^(١).

قال السعدي: «ومن يأت ربه مؤمنا به مصدقا لرسله، متبعا لكاتبه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿قَالُوا لَيْكَ لَهْمُ الدَّرَجَاتِ أَلْعَلَى﴾ أي: المنازل العاليات، في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَذَلِكَ﴾ الثواب، ﴿جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضا نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يترأفون أهل الغرف من فوقهم، كما يترأفون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٣).

★ غريب الحديث:

الدُّرِّي: هو النجم الشديد الإضاءة، وقيل هو النجم العظيم المقدار. الغابر: الذاهب.

* عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألت الله فسلوه الفردوس»^(٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٧٥).

(١) جامع البيان (١٦/١٩٠-١٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/٢٧)، والبخاري (٦/٣٩٤/٣٢٥٦)، ومسلم (٤/٢١٧٧/٢٨٣١)، وأخرجه بنحوه: أبو

داود (٤/٢٨٧-٢٨٨/٣٩٨٧) والترمذي (٥/٥٦٧/٣٦٥٨) وابن ماجه (١/٣٧/٩٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/٣١٦)، والترمذي (٤/٥٨٣/٢٥٣١)، وصححه الحاكم (١/٨٠).

★ فوائد الحديثين:

انظر قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَدَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(١).

* * *

(١) النساء: الآية (٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۖ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ ﴿٧٩﴾﴾

★ غريب الآية:

يَبَسًا : اليبس : المكان الذي يكون فيه ماء فيذهب .
دَرَكًا : من الإدراك ، أي : لا يدركك فرعون وجنوده .
فَغَشِيَهُمْ : أي : أحاط بهم وشملهم .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي : «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ :

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة . أنه أوحى إلى نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : أن يسري بعباده ، وهم بنو إسرائيل فيخرجهم من قبضة فرعون ليلاً ، وأن يضرب لهم طريقاً في البحر يَبَسًا ، أي يابساً لا ماء فيه ولا بلل ، وأنه لا يخاف دركاً من فرعون وراءه أن يناله بسوء . ولا يخشى من البحر أمامه أن يغرق قومه . وقد أوضح هذه القصة في غير هذا الموضع ، كقوله في سورة الشعراء : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ۖ ﴿٥١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ ۖ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ ﴿٥٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ۖ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ۖ ﴿٥٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿٥٦﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ۖ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۖ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ۖ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ ﴿٦٣﴾﴾^(١) . فقوله في الشعراء : ﴿أَوْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ أي : فضربه فانفلق ، يوضح معنى قوله :

(١) الشعراء : الآيات (٥٢-٦٣) .

﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وقوله: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(١)، يوضح معنى قوله: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله في الدخان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ مَثَلَهُمْ كَمِثْلِ خَيْلٍ يَمْشِي الْكَبِيرُ يَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِ الْكَافِرِ كَأَنَّهُمْ يُخْرِجُونَهَا مِنْ مَنَاجِبِهِمْ مُتَبِعُونَ﴾^(٢) وَأَتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من الآيات^(٤).

وقال: ﴿قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَمْشِي وَفَقَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾^(٥) التحقيق: أن اتبع واتبع بمعنى واحد. فقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ أي: اتبعهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾^(٦)، وقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾^(٧). والمعنى: أن موسى لما أسرى ببني إسرائيل ليلاً اتبعهم فرعون وجنوده ﴿فَقَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾، أي البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: أغرق الله فرعون وجنوده في البحر فهلكوا عن آخرهم. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن فرعون أتبع بني إسرائيل هو وجنوده، وأن الله أغرقهم في البحر، أوضحه في غير هذا الموضع. وقد بين تعالى أنهم اتبعوهم في أول النهار عند إشراق الشمس، فمن الآيات الدالة على اتباعه لهم قوله تعالى في الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْكَافِرَ فَتَتَّبِعُونَ﴾^(٨)، يعني سيتبعكم فرعون وجنوده. ثم بين كيفية اتباعه لهم فقال: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَازِنَيْهِ﴾^(٩) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾^(١٠) وَلَهُمْ لَنَا لَعْلَاطُونَ﴾^(١١) وَلَئِنَّا لَجَمِيعٌ حَاقِدُونَ﴾^(١٢) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(١٣) وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ﴾^(١٤) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(١٥) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾^(١٦) فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾^(١٧) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(١٨).

وقوله في هذه الآية: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾^(١٩) أي: أول النهار عند إشراق الشمس. ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى في يونس: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَمِينِ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُودُودٌ بَقِيًّا وَعَدَّوْا﴾^(٢٠)، وقوله في الدخان: ﴿فَأَسْرَى بِعَادِي لَيْلًا لِمَنْكُم مَّتَّبِعُونَ﴾^(٢١)، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إتياعه لهم. وأما

(٢) الدخان: الآيات (٢٢-٢٤).

(٤) الصافات: الآية (١٠).

(٦) الشعراء: الآيات (٥٢-٦٢).

(٨) الدخان: الآية (٢٣).

(١) الشعراء: الآيات (٦١-٦٢).

(٣) أضواء البيان (٤/٦٨-٦٩).

(٥) الأعراف: الآية (١٧٥).

(٧) يونس: الآية (٩٠).

غرقه هو وجميع قومه المشار إليه بقوله هنا : ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَيمٍ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ، فقد أوضحه تعالى في مواضع متعددة من كتابه العزيز . كقوله في الشعراء : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾ (١٣٦) وَأَزَلْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ (١٣٧) وَأَفْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٨) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (١٣٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤٠) ، وقوله في الأعراف : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (٢) ، وقوله في الزخرف : ﴿فَلَمَّا أَهَسُّوْنَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٥) ، وقوله في البقرة : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمَّيْنَكُمُ الْغُرُقَ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ (٤) ، وقوله في يونس : ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغُرُقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٥) ، وقوله في الدخان : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ (١٤) ، إلى غير ذلك من الآيات» (٧) .

وقال : «قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (١٤١) ، يعني : أن فرعون أضل قومه عن طريق الحق وما هداهم إليها . وهذه الآية الكريمة بين الله فيها كذب فرعون في قوله : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٨) ، ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٤٢) إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَاتَّبَعُوْهُ أَمَرَ فِرْعَوْنُ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (١٤٣) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَنَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَمْرُودُ﴾ (٩)» (١٠) .

قال ابن عطية : «هذا استئناف إخبار عن موسى من أمر موسى ، وبينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان حدثت فيها لموسى وفرعون حوادث ، وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغلب موسى وقوي أمره ، وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ، فأقام موسى على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه ، فبعث الله حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآيات الجراد والقمل إلى آخرها ، كلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف

(١) الشعراء : الآيات (٦٣-٦٧) .

(٣) الزخرف : الآية (٥٥) .

(٥) يونس : الآية (٩٠) .

(٧) أضواء البيان (٤/٧١-٧٢) .

(٩) هود : الآيات (٩٦-٩٨) .

(٢) الأعراف : الآية (١٣٦) .

(٤) البقرة : الآية (٥٠) .

(٦) الدخان : الآية (٢٤) .

(٨) غافر : الآية (٢٩) .

(١٠) أضواء البيان (٤/٧٣) .

القول، فإذا انكشف نكت حتى تأتي أخرى، فلما كانت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى أن يخرج بني إسرائيل من مصر في الليل هارباً^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى ﷺ، حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه^(٢)، يقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَيْسَ لَهُمْ مَقَامٌ ﴿٥٥﴾ وَلَهُمْ لَنَا الْقَاطِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾^(٣) ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٥٧﴾﴾^(٤) أي: عند طلوع الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَنَعَانِ ﴿٥٨﴾﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قال كلاًّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٠﴾﴾^(٥)، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن اضرب ﴿لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴿٦١﴾﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق بإذن الله» ﴿فَأَنفَلَقَ فَمَا كَانَ كَلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴿٦٢﴾﴾^(٦)، أي: الجبل العظيم. وأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخْشَى ﴿٦٤﴾﴾ يعني: من البحر أن يغرق قومك.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَبْغُوهُمْ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ﴿٦٥﴾﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ ﴿٦٦﴾﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَمْوَى ﴿٦٧﴾﴾ فَنَشْنَاهَا مَا عَثْنَ ﴿٦٨﴾﴾^(٧)، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو التَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي

أي: الذي يعرف، وهو مشهور.

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد،

(٢) الرساتيق: القُرى.

(٤) الشعراء: الآية (٦٠).

(٦) الشعراء: الآية (٦٣).

(١) المحرر الوجيز (٤/٥٤).

(٣) الشعراء: الآيتان (٥٤-٥٥).

(٥) الشعراء: الآيتان (٦١-٦٢).

(٧) النجم: الآيتان (٥٣-٥٤).

كَذَلِكَ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْزُودُ﴾ (١١)، (١٢).

قال السعدي: «لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدر أن يظهر إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرا، ويقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى أن يواعد بني إسرائيل سرا ويسيروا أول الليل، ليتmadوا في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا مجيب، فحق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل ليقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره. فتكاملت جنود فرعون فصار بهم يتبع بني إسرائيل، ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (١٣) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿١٤﴾ وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم قد امتلأ عليهم غيظا وحنقا، وموسى مطمئن القلب ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (١٥) فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفراق اثني عشر طريقا، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله طرقهم التي انفراق عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلخوا في تلك الطرق.

فجاء فرعون وجنوده فسلخوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه.

(١) هود: الآية (٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٠-٣٠١).

(٣) الشعراء: الآيتان (٦٠ و٦١).

(٤) الشعراء: الآية (٦٢).

وهذه عاقبة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال^(١).

قلت: سبحان الله، هذه عاقبة الطغيان والظلم والشرك والكفر والبدعة تابعا ومتبوعا، فنهايتهم هو الهلاك، وقد يتنوع الهلاك من إنسان إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، فالكائدون والمتآمرون على الأنبياء والرسل وعلى أهل الاستقامة، فمآلهم البوار والخسران، والله يفعل ما يشاء، وهو الذي يختار صفة وكيفية الهلاك لمن أراد إهلاكه، كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّنْ أَرْسِلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَيَمْهَلُ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَيَمْهَلُ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَيَمْهَلُ مَن أَغْرَقْنَا﴾^(٢) وما هي من الظالمين ببعيد، فكل من كاد للسنة وأهلها فسيتهي إلى ما انتهى إليه فرعون وجنوده، ولا شك أن في كل زمان فرعون وجنوده، يجندون لنصرة الباطل ورد الحق؛ فإن الله يستدرجهم بنعمه حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فاللهم من كاد للسنة وأهلها فعليك به وأذقه بأسك، وأغرقه في وحله، وأهلكه بما يتمتع به، وأبدل نعمه نقما؛ لحقده على السنة وأهلها، إنك القادر على ما تريد.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٧٦-١٧٨).

(٢) العنكبوت: الآية (٤٠).

قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ۖ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۖ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ۝﴾ ﴿٨٢﴾

★ غريب الآية:

هَوَى: أي شقي، وقيل: وقع في الهاوية، يقال: هوى يهوي هويًا إذا سقط من علو إلى سفلى.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: امتنانه على بني إسرائيل بإنجائهم إياهم من عدوهم فرعون، وأنه واعدهم جانب الطور الأيمن، وأنه نزل عليهم المن والسلوى، وقال لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم. ولا تطغوا فيغضب عليكم ربكم. وما ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع؛ كقوله في امتنانه عليهم بإنجائهم من عدوهم فرعون في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝﴾ (١)، وقوله في الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝﴾ (٢)، وقوله في الدخان: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۖ ﴿١٥﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ۝﴾ (٣)، وقوله في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ

(١) البقرة: الآية (٤٩).

(٢) الأعراف: الآية (١٤١).

(٣) الدخان: الآية (٣٠-٣١).

نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٨١﴾ ﴿١﴾، وقوله في الشعراء: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٨٢﴾﴾ ﴿٢﴾، وقوله في الدخان: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ﴿٣﴾، وقوله في الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا ﴿٨٤﴾﴾ ﴿٤﴾، وقوله في القصص: ﴿وَرِئْدٌ أَن نَّمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجَّيْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾، إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ ﴿٥﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا: ﴿وَوَعَدْنَاهُ جَانِبَ آلِ يُوسُفَ الْأَيْمَنَ﴾ الأظهر أن ذلك الوعد هو المذكور في قوله: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴿٦﴾﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴿٧﴾﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ ﴿٨﴾، وهو الوعد بإنزال التوراة. وقيل فيه غير ذلك.

وقوله هنا: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلَوىَ﴾ قد أوضح امتنانه عليهم بذلك في غير هذا الموضع. كقوله في البقرة: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوىَ ﴿٩﴾﴾، وقوله في الأعراف: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوىَ ﴿١٠﴾﴾، ﴿١١﴾، ﴿١٢﴾.

وقال: «وقوله في آية طه هذه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: من المن والسلوى، والأمر فيه للإباحة والامتنان.

وقد ذكر ذلك أيضًا في غير هذا الموضع، كقوله في البقرة: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوىَ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣﴾﴾، وقوله في الأعراف: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوىَ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾، ﴿١٥﴾.

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَلِيْلَى لَفَقَارٍ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَمْتَدَى ﴿٨٦﴾﴾؛ ذكر

(١) إبراهيم: الآية (٦).

(٢) الشعراء: الآية (٥٩).

(٣) الدخان: الآية (٢٨).

(٤) الأعراف: الآية (١٣٧).

(٥) القصص: الآيتان (٦٥).

(٦) الأعراف: الآية (١٤٢).

(٧) البقرة: الآية (٥١).

(٨) طه: الآية (٨٦).

(٩) البقرة: الآية (٥٧).

(١٠) الأعراف: الآية (١٦٠).

(١١) أضواء البيان (٧٤-٧٣/٤).

(١٢) البقرة: الآية (٥٧).

(١٣) الأعراف: الآية (١٦٠).

(١٤) أضواء البيان (٧٥/٤).

اللَّهُ - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة : أنه غَفَّارٌ أي : كثير المغفرة لمن تاب إليه من معاصيه وكفره ، وآمن به وعمل صالحاً ثم اهتدى . وقد أوضح هذا المعنى في مواضع متعددة من كتابه ، كقوله : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ^(١) . وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَظُورٌ رَجِيمٌ ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَحْيَايَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنْفُسُهُمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٣) ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُمْ ^(٤) ، إلى غير ذلك من الآيات ^(٥) .

قال ابن كثير : « يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ، ومننه الجسام ، حيث نَجَّاهُمْ من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم منه ، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَانْتَرَوْهُمْ ﴾ ^(٦) .

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن ، وهو الذي كلمه تعالى عليه ، وسأل فيه الرؤية ، وأعطاه التوراة هناك . وفي غُصُونِ ذَلِكَ عَبْدٌ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعَجَل ، كما يقصه تعالى قريباً .

وأما المن والسلوى ، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها . فالمن : حلوى كانت تنزل عليهم من السماء . والسلوى : طائر يسقط عليهم ، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد ، لطفاً من الله ورحمة بهم ، وإحساناً إليهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي : كلوا من هذا الذي رزقناكم ، ولا تطغوا في رزقي ، فتأخذوه من غير حاجة ، وتخالفوا ما أمركم به ، ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي : أغضب عليكم ، ﴿ وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوِيَ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أي : فقد شقي .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ أي : كل من تاب إليّ تبتُّ عليه من أي ذنب كان ، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل . وقوله :

(١) الأنفال : الآية (٣٨) .

(٢) المائدة : الآية (٧٤) .

(٣) الزمر : الآيتان (٥٣-٥٤) .

(٥) البقرة : الآية (٥٠) .

(٤) أضواء البيان (٤/ ٧٦-٧٧) .

﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية.

وقوله: ﴿وَأَمَّنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. ورُوي نحوه

عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي:

لزم الإسلام حتى يموت.

وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: علم أن لهذا ثوابًا.

و(ثم) هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا

بِالصَّبْرِ وَتَوَصَّوْا بِالْمَرَّةِ ۖ﴾ (١١)، (١٢).

قال السعدي: يُذَكِّرُ تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم،

ومواعده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام

الجليلة، والأخبار الجميلة، فتتم عليهم النعمة الدينية بعد النعمة الدنيوية، ويذكر

منته أيضًا عليهم في التيه بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل

لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم:

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿وَلَا

تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: في رزقه فتستعملوه في معاصيه، وتبطلوا النعمة، فإنكم إن فعلتم

ذلك حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم ثم عذبتكم، ﴿وَمَن يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ

هَوَى﴾ أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عُدِمَ الرضا والإحسان، وحل عليه

الغضب والخسران.

ومع هذا، فالتوبة معروضة ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال:

﴿وَلِيَّ لَفْقَارٍ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق،

وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحا من أعمال القلب

والبدن، وأقوال اللسان.

(١) البلد: الآية (١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٠١-٣٠٢).

﴿ثُمَّ أَفْتَدَى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب^(١).

قال الشنقيطي: «واعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرمانه، تظهر آثارها في المغضوب عليهم. نعوذ بالله من غضبه - جل وعلا - . ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذب بشيء من ذلك. مع تنزيهنا التام له - جل وعلا - عن مشابهة المخلوقين ﷺ عن ذلك علواً كبيراً»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن يوم عاشوراء يوم نجى الله فيه

موسى، وقد أمر النبي ﷺ بصيامه

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «استشكل ظاهر الخبر لاقتضائه أنه ﷺ حين قدومه المدينة وجد اليهود صياما يوم عاشوراء، وإنما قدم المدينة في ربيع الأول،

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٧٨-١٧٩).

(٢) أضواء البيان (٥/٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/٢٩١ و ٣١٠)، والبخاري (٤/٣٠٦/٢٠٠٤)، ومسلم (٢/٧٩٥/١١٣٠)، وأبو داود (٢/

٨١٨/٢٤٤٤)، والنسائي في الكبرى (٢/١٥٦/٢٨٣٤)، وابن ماجه (١/٥٥٢/١٧٣٤).

والجواب عن ذلك أن المراد أن أول علمه بذلك وسؤاله عنه كان بعد أن قدم المدينة لا أنه قبل أن يقدمها علم ذلك. وغايته أن في الكلام حذفاً تقديره: قدم النبي ﷺ المدينة فأقام عاشوراء فوجد اليهود فيه صياماً، ويحتمل أن يكون أولئك اليهود كانوا يحسبون يوم عاشوراء بحساب السنين الشمسية، فصادف يوم عاشوراء بحسابهم اليوم الذي قدم فيه ﷺ المدينة. وهذا التأويل مما يترجح به أولوية المسلمين وأحقيتهم بموسى - عليه الصلاة والسلام - لإضلالهم اليوم المذكور وهداية الله للمسلمين له^(١).

وقال: «وصوم رسول الله ﷺ يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم كما في الحج، أو أذن الله له في صيامه على أنه فعل خير، فلما هاجر ووجد اليهود يصومونه وسألهم وصامه، وأمر بصيامه، احتمل ذلك أن يكون ذلك استئلاً لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم، ويحتمل غير ذلك. وعلى كل حال فلم يصمه اقتداء بهم، فإنه كان يصومه قبل ذلك، وكان ذلك في الوقت الذي يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه. . . واستشكل بأن التعليل بنجاة موسى وغرق فرعون يختص بموسى واليهود، وأجيب باحتمال أن يكون عيسى كان يصومه، وهو مما لم ينسخ من شريعة موسى، لأن كثيراً منها ما نسخ بشريعة عيسى، لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنْدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)، ويقال: إن أكثر الأحكام الفرعية إنما تتلقاها النصارى من التوراة^(٣).

* * *

(١) الفتح (٤/٣١٠).

(٢) آل عمران: الآية (٥٠).

(٣) فتح الباري (٤/٣١١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾

★ غريب الآية:

أَعَجَلَكْ: من العجلة وهي طلب الشيء وتَحَرَّيْه قبل أوانه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «أشار -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة إلى قصة مواعده موسى أربعين ليلة وذهابه إلى الميقات، واستعجاله إليه قبل قومه. وذلك أنه لما واعده ربه وجعل له الميقات المذكور، وأوصى أخاه هارون أن يخلفه في قومه، استعجل إلى الميقات فقال له ربه ﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ﴾. وهذه القصة التي أجملها هنا أشار لها في غير هذا الموضع؛ كقوله في الأعراف: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا يَ عَشْرًا فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴿٨٤﴾ (١)» (٢).

قال ابن كثير: «لما سار موسى ﷺ ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَكْفُفُونَ عَلَيَّ أَصْنَاءَ لَهُمْ﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾» (٣)، وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشرا، فتمت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلا ونهارا. وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك. فسارع موسى ﷺ مبادرا إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ قَالَ

(١) الأعراف: الآيتان (١٤٢-١٤٣).

(٢) أضواء البيان (٧٧/٤).

(٣) الأعراف: الآيتان (١٣٨-١٣٩).

هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي ﴿٨٣﴾ أَي: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿وَعَجَلْتُ لِرَبِّ لِرَضَىٰ﴾^(١) أَي: لتزداد عني رضا^(١).

قال ابن عاشور: «والذي يؤخذ من كلام المفسرين وتشير إليه الآية: أن موسى تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبان الذي عينه الله له، اجتهدًا منه ورغبة في تلقي الشريعة حسيمًا وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة ما يحفّ بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذّرهم مكر من يتوسّم فيه مكرًا»^(٢).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٠٢/٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧٧/١٦).

قوله تعالى : ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۖ﴾^(٨٥)
 فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَتَقَوَّمُ آلَمَ يَعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا
 حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ۖ ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا
 أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۖ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ
 عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌّ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ۖ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا
 يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ ﴿٨٩﴾

★ غريب الآية:

أَسْفًا : أي شديد الغضب .

بِمَلِكِنَا : قرئت بثلاث الميم ، والمعنى على جميع القراءات : ما أخلفنا موعدك
 بأن ملكنا أمرنا .

أَوْزَارًا : أي أثقالا ، سموها أوزارا لأنها أحمال ثقال .

خُوَارٌّ : أي صوت ، واختص ذلك بالبقر .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي : «قوله تعالى : ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ :
 الظاهر أن الفتنة المذكورة هي عبادتهم العجل . فهي فتنة إضلال . كقوله : ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا
 فَتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾^(١) . وهذه الفتنة بعبادة العجل جاءت مبينة في آيات متعددة ؛
 كقوله : ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٢) ونحو
 ذلك من الآيات .

(١) الأعراف : الآية (١٥٥) .

(٢) البقرة : الآية (٥١) .

قوله هنا : ﴿وَأَضْلَلَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أوضح كيفية إضلاله لهم في غير هذا الموضع ؛ كقوله : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِبَلًا جَدًّا لَهُمْ خُورًا﴾ إلى قوله : ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(١) أي : اتخذوه إلهًا وقد صنعه السامري لهم من حلي القبط فأضلهم بعبادته . وقوله هنا : ﴿فَكَذَّبَكَ الَّذِينَ آلَوْا السَّامِرِيَّ﴾^(٢) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِبَلًا جَدًّا لَهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾^(٣) .

وقال : «قوله تعالى : ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ . . وما ذكره - جل وعلا - في آية «طه» هذه من كون موسى رجع إلى قومه ﴿غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ ذكره في غير هذا الموضع ، وذكر أشياء من آثار غضبه المذكور ، كقوله في الأعراف : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ إِنَّمَا خَلَقْتُهُنَّ مِنْ بَعْدِي﴾^(٤) . وقد بين تعالى أن من آثار غضب موسى إلقاء الألواح التي فيها التوراة ، وأخذه برأس أخيه يجره إليه ، كما قال في الأعراف : ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾^(٥) . وقال في طه مشيرًا لأخذه برأس أخيه : ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ يَلْحَقِي وَلَا بِرَأْسِي﴾^(٦) . وهذه الآيات فيها الدلالة على أن الخبر ليس كالعيان ، لأن الله لما أخبر موسى بكفر قومه بعبادتهم العجل كما بينه في قوله : ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضْلَلَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ، وهذا خبر من الله يقين لا شك فيه لم يلق الألواح ، ولكنه لما عاين قومه حول العجل يعبدونه أثرت فيه معاينة ذلك أثرًا لم يؤثره فيه الخبر اليقين بذلك ، فألقي الألواح حتى تكسرت ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما أصابه من شدة الغضب من انتهاك حرمت الله تعالى»^(٧) .

وقال : «قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾



بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة سخافة عقول الذين عبدوا العجل ، وكيف عبدوا ما لا يقدر على رد الجواب لمن سأله ، ولا يملك نفعًا لمن عبده ، ولا ضررًا لمن عصاه . وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزًا عن النفع

(٢) أضواء البيان (٤/ ٧٨).

(٤) الأعراف : الآية (١٥٠).

(٦) أضواء البيان (٤/ ٨٠).

(١) الأعراف : الآية (١٤٨).

(٣) الأعراف : الآية (١٥٠).

(٥) طه : الآية (٩٤).

والضرر ورد الجواب . وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع . كقوله في الأعراف في القصة بعينها : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(١) ولا شك أن من اتخذ من لا يكلمه ولا يهديه سبيلاً إلهاً أنه من أظلم الظالمين . ونظير ذلك قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿يَتَأْتَى لِمَ قَبَدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(٢) ، وقوله تعالى عنه أيضاً : ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦١﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٦٢﴾﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿اللَّهُمَّ أَزْجِلْ يَمَشُونَ ﴿٦٣﴾ أَمْ لَمْ أَزْجِلْ يَمَشُونَ ﴿٦٤﴾﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿٦٧﴾﴾^(٦) ، إن تدعوهم لا يسمعوهم دُعَاءُكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿٦٨﴾﴾^(٧) .

قال ابن جرير : «يقول الله - تعالى ذكره - : قال الله لموسى : فلما يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل ، وذلك كان فنتتهم من بعد موسى . ويعني بقوله ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ من بعد فراقك إياهم ، يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَأَضَلُّهُمْ السَّامِرِيُّ﴾ ، وكان إضلال السامري إياهم دعاء إياهم إلى عبادة العجل . وقوله ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ يقول : فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة ﴿غَضِبْنَا أَسْفًا﴾ متغيظاً على قومه ، حزينا لما أحدثوه بعده من الكفر بالله . .

وقوله : ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ يقول : ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، ويعدكم جانب الطور الأيمن ، وينزل عليكم

(٢) مريم : الآية (٤٢) .

(٤) الأعراف : الآية (١٩٥) .

(١) الأعراف : الآية (١٤٨) .

(٣) الشعراء : الآيتان (٧٢-٧٣) .

(٥) الأحقاف : الآيتان (٥-٦) .

(٦) فاطر : الآيتان (١٣-١٤) .

(٧) أضواء البيان (٨٤/٤) .

المنّ والسلوى ، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى : ألم يعدكموه ربكم ، وقوله : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يقول : أفتال عليكم العهد بي ، وبجميل نعم الله عندكم ، وأياديه لديكم ، أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم : يقول : أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل ، وكفركم بالله ، فأخلفتكم موعدي . وكان إخلافهم موعده عكوفهم على العجل ، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم ، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ، ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى : ﴿ لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْكَ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ (١) . . ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (٢) فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوارٌ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . . يقول - تعالى ذكره - : قال قوم موسى لموسى : ما أخلفنا موعدك ، يعنون بموعده : عهده الذي كان عهده إليهم .

وقوله ﴿ بِمَلِكِنَا ﴾ يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ ، وقالوا : إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب ، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة . . واختلف أيضاً أهل التأويل في تأويله ، فقال بعضهم : معناه : ما أخلفنا موعدك بأمرنا . . وقال آخرون : معناه : بطاقتنا . . وقال آخرون : معناه : ما أخلفنا موعدك بهوانا ، ولكننا لم نملك أنفسنا . . وقوله : ﴿ وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ يقول : ولكننا حملنا أثقالاً وأحمالاً من زينة القوم ، يعنون من حلي آل فرعون . .

وقوله : ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ يقول : فألقينا تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ يقول : فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، فكذلك ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل . .

وقوله : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ ﴾ يقول : فأخرج لهم السامري مما قذفوه ومما ألقاه جسداً له خوار ، ويعني بالخوار : الصوت ، وهو صوت البقر . .

وقوله : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ يقول : فضل وترك . ثم اختلف أهل التأويل في قوله ﴿ فَنَسِيَ ﴾

من قائله ومن الذي وصف به وما معناه، فقال بعضهم: هذا من الله خبر عن السامري، والسامري هو الموصوف به، وقالوا: معناه: أنه ترك الدين الذي بعث الله به موسى وهو الإسلام. وقال آخرون: بل هذا خبر من الله عن السامري، أنه قال لبني إسرائيل، وأنه وصف موسى بأنه ذهب يطلب ربه، فأضلّ موضعه، وهو هذا العجل..

قال أبو جعفر: والذي هو أولى بتأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن هؤلاء، وهو أن ذلك خبر من الله عزّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبراً من السامري عنه بذلك أشبه من غيره..

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩) .. يقول -تعالى ذكره- موبخا عبدة العجل، والقائلين له ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنسَىٰ﴾ وعابهم بذلك، وسفه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه: أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم، وإن كلّموه لم يرد عليهم جواباً، ولا يقدر على ضرر ولا نفع، فكيف يكون ما كانت هذه صفته إلهاً؟^(١).

قال ابن كثير: «أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري.. وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾»^(٢) أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحقق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب.

(٢) الأعراف: الآية (١٤٥).

(١) جامع البيان (١٦/١٩٦-٢٠٢).

وقال مجاهد: ﴿غَضِبْنَا أَسْفَا﴾ أي: جزعاً. وقال قتادة، والسدي: ﴿أَسْفَا﴾ أي: حزيناً على ما صنع قومه من بعده.

﴿قَالَ يَتَقَوِّرُ أَلَمَ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَاً حَسَنًا﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما قد شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ أَلْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وعدكم الله. ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ «أم» هاهنا بمعنى «بل» وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَقْتُمْ مُّوْعِدِي﴾ ﴿قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مُّوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرون عن تورعهم عما كان بأيديهم من حُلِي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَدَفْنَاهَا﴾ أي: ألقيناها عنا. فقالوا -أي: الضُّلال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه-: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُّوسَىٰ قَتْسَى﴾ أي: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدم في حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد.

وقال سِماك عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿قَتْسَى﴾ أي: نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُّوسَىٰ قَتْسَى﴾ قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله، يقول الله: ﴿قَتْسَى﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام يعني: السامري.

قال الله تعالى ردّاً عليهم، وتقريعاً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ﴿قَالُوا﴾ أي: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: في دنياهم ولا في آخراهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج

من فيه، فيسمع له صوت..

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأل رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعني: هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر، عليه السلام: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ يعني: الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض؟^(١)^(٢).

قال الرازي: «هذه الآية تدل على وجوب النظر في معرفة الله تعالى، وقال في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكُفُّهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾^(٣)، وهو قريب في المعنى من قوله في ذم عبدة الأصنام: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا﴾^(٤)^(٥).

قلت: هكذا حال بني إسرائيل، وحال من شابههم من الأمم؛ فارقهم نبينهم في مدة وجيزة، وأنقذهم من قبضة فرعون، وأراهم من الآيات ما أراهم، وخلف عليهم أخاه هارون حتى لا تنقضي دعوته ولا تموت، وذهب لأمر عظيم أتاهم فيه بخيري الدنيا والآخرة، وكلمه خالق الكون والسموات والأرض، فذهابه وإيابه كان كله خير وبركة، ومع ذلك أوقعهم السامري في موبقة الشرك، وعبادة حيوان واضح من ظاهره أنه من الحيوانات التي معها نوع من العبيية والهمجية، ومع ذلك اختاروه إلهًا معبودًا!!

وكذلك من هذه الأمة الإسلامية من يرون شخصًا أحقق جمع جميع أوصاف الذم؛ من قذارة، وهذيان لا ينضبط، وأشياء لا تليق حتى بالحيوانات، ومع ذلك يسمونه وليًا لله!! ويعتبرون هذه المثالب كلها مناقب!! كما ذكر الشعراني في طبقاته لكثير من هؤلاء، وكتاب الإبريز من جلده إلى جلده من هذا النوع، كله حماقات تذكر باسم الولاية، وهي ارتكاسات ووقوع في الشرك الأكبر، الذي ما أنزل الله به من سلطان، ويبنى على هؤلاء الأضرحة باسم الولي والصالح والسيد

(١) أخرجه: أحمد (٨٥/٢)، والبخاري (١٠/٥٢٢/٥٩٩٤)، والترمذي (٣٧٧٠/٦١٥/٥) وقال: «صحيح»، والنسائي في الكبرى (١٥٠/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٠٣-٣٠٤).

(٣) الأعراف: الآية (١٤٨).

(٤) الأعراف: الآية (١٩٥).

(٥) مفاتيح الغيب (١٠٦-١٠٥/٢٢).

وغيرها من الألقاب والأسماء، التي أملاها عليهم إبليس، فما أشبه عبادة العجل بعبادة الحمقى الذين لا يدري حالهم هل هم في الجنة أو في النار، ولو كانوا في الجنة لما جاز الدعاء عندهم، ولا الصلاة لهم، ولا تخصيص حَرَمٍ لهم، ولا إقامة موسم أسبوعي أو شهري أو سنوي، كل هذه من أفعال الجاهلية، وهي مشابهة لأفعال السامري، فعلى الداعية إلى الله أن يراقب دعوته وألا يتخلف عنها حتى لا تنقلب دعوة التوحيد إلى دعوة الشرك، وحتى لا يتلاعب بها المتلاعبون. فرضي الله عن أبي بكر الصديق الذي قاتل المرتدين والمنتبئين ومانعي الزكاة، لتبقى دعوة الرسول ﷺ مصونة من عبث العابثين، ومن مخططات الماكرين، ورحم الله أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد، وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب، وكل من قام بإحياء التوحيد والسنة وصانها من أن تدخلها أيادي المرتزقة والمتسولين، وكفى الله المؤمنين شرهم بما شاء وكيف شاء.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقَوِرْ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾

★ غريب الآية:

لَنْ نَبْرَحَ: أي لا نزال.

عَاكِفِينَ: العكوف: اللبث والإقامة، وقيل: هو الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «يَبِّين - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين: أن بني إسرائيل لما فتنهم السامري وأضلهم بعبادة العجل، نصحهم نبي الله هارون عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويَبِّين لهم أن عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها. أي كفر وضلال ارتكبهوا بذلك، ويَبِّين لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء - جل وعلا -، وأن عجلاً مصطنعاً من حلي لا يعبد إلا مفتون ضال كافر. وأمرهم باتباعه في توحيد الله تعالى، والوفاء بموعد موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وأن يطيعوه في ذلك. فصارحوه بالتمرد والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى. وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في الأعراف: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيْسَى الْقَوْمُ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقُولُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾^(١). فقوله عنهم في خطابهم له ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ يدل على استضعافهم له وتمردهم عليه المصرح به في الأعراف كما بينا^(٢).

(١) الأعراف: الآية (١٥٠).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٨٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ يقول: لقد قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون، من قبل رجوع موسى إليهم، وقيله لهم ما قال مما أخبر الله عنه ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ يقول: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظةكم على دينكم بهذا العجل الذي أحدث فيه الخوار، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب، الشاك في دينه. . . وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ يقول: وإن ربكم الرحمن الذي يعم جميع الخلق نعمه، فأتبعوني على ما أمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمري فيما أمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له، وقوله: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ﴾ يقول: قال عبدة العجل من قوم موسى: لن نزال على العجل مقيمين نعبد، حتى يرجع إلينا موسى^(١).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه^(٢).

قال القرطبي: «وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأعلم -حرس الله مدته- أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد ﷺ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه، ويحضرون شيئاً يأكلونه.

هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفنونا ماجورين، يرحمكم الله، وهذا القول الذي يذكرونه:

يَا شَيْخُ كُفِّ عَنِ الذُّنُوبِ قَبْلَ التَّفَرُّقِ وَالزَّلَلِ
وَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا مَا دَامَ يَنْقُضُكَ الْعَمَلُ

(١) جامع البيان (١٦/٢٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٠٤-٣٠٥).

أَمَّا الشَّيْبَابُ فَقَدْ مَضَى وَمَشِيبُ رَأْسِكَ قَدْ نَزَلَ
في مثل هذا ونحوه .

الجواب : -يرحمك الله- مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حوالبه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ، وأما القضيب فأول من اتخذ الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ، وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين ، وبالله التوفيق^(١) .

قلت : هذا إمام المالكية ، وسيد من ساداتهم ، يفسر لنا مذهب الصوفية ، ويبين ما هم عليه من ضلال ، وأفعالهم التي يظنونها قرينة إلى الله وهي أفعال السامري التي ذم الله صنيعه في القرآن في غير ما آية ، فرقصهم وسقوطهم وغيبوبتهم ووجدتهم ، وكل ما يزعمون أنهم في اتصال مع الله بهذه الأفعال والأقوال المشينة فهي أفعال شيطانية ، يدعوهم إليها إبليس ، ويؤزهم إليها أژا ، ويذكي فيهم هذه الحماسات الفاسدة ، فيظهرون للناس أنهم أولياء وصالحون ، يخدعونهم ويأكلون أموالهم بالباطل ، ويستحذون عليهم بكل أنواع الاستحواذ .

فأصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا على هذا الباطل ، وإنما كان عندهم الاقتداء بالنبي ﷺ ، وإذا اجتمعوا تذكروا كتاب ربهم وسنة نبيهم ، ولم يكن اجتماعهم على غير هذا ، وكان الوقار سمتهم ، والحياء جلبابهم ، والقناعة أخلاقهم ، وقطع الطمع في البشر شيمتهم ، فلله درهم ما أحسن صنعهم ، وبئس ما أحدثه المحدثون من صوفية مقية أفسدت الأمة وما تزال ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الرازي : «اعلم أن الأمر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب . ثم إن

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/١٥٨) .

هارون عليه السلام رأى القوم متهاقين على النار، ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم، بل صرح بالحق فقال: ﴿يَقُومُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ الآية، وههنا دقيقة وهي أن الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»^(١) ثم إن هارون ما منعه التقية في مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره، فلو كانت أمة محمد ﷺ على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هارون عليه السلام، وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول: ﴿فَأَتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمة كانوا على الصواب، واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ ثم دعاها ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَأَتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة. فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، وإنما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ فخص هذا الموضع باسم الرحمن لأنه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو الرحمن الرحيم، ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون، ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا: ﴿لَنْ تَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوقِنٌ﴾ كأنهم قالوا: لا نقبل حجتك، ولكن نقبل قول موسى، وعادة المقلد ليس إلا ذاك^(٢).

قلت: ما أحسن ما قاله الرازي، وما فصله في الآية، وما أفاده من فوائد، فالفائدة الأولى نعتبرها موقفاً للرازي من الروافض الأخباث، الذين يفترون على الله الكذب فهم لا يفلحون، حيث وصفوا أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يجوز في حقهم، وألصقوا بعلي من الغلو ما لا يليق به، ومن ذلك ما حاولوا بثه من شبه حول حديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى». ورحم الله الرازي إذ قرر أن علياً لو كان مشابهاً لهارون لكان عليه أن يقوم كما قام هارون، ويبين للناس أنه وصي

(١) أخرجه أحمد (١/١٧٠) والبخاري (٧/٨٩/٣٧٠٦) ومسلم (٤/١٨٧٠/٢٤٠٤) والترمذي (٥/٥٩٩/٣٧٣١).

(٢) والنسائي في الكبرى (٥/٨١٣٨/٤٤) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/١٠٧-١٠٨).

رسول الله ﷺ، وأن الصحابة ظلموه وأخذوا حقه الموصى له به، فلما لم يفعل ﷺ تبين كذب الرافضة، وأن عليًا مهما علت منزلته عند رسول الله ﷺ؛ فإنه يبقى تابعًا للأئمة قبله: أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم أجمعين-، وأنه أحد رعاياهم تجب عليه طاعتهم في المعروف، وما سوى هذا فهو هذيان وبهتان.

الثانية: التسلسل والتدرج في الدعوة إلى الله، وأن التخلية يجب أن تكون قبل التحلية، ولهذا كانت دعوة الرسول ﷺ مؤسسة على اجتثاث الشرك، وقلعه من جذوره، وإزالته من صدور أصحابه، ثم غرس التوحيد والنبوة والقرآن. واستمرت دعوته ودعوة أصحابه على هذا المنوال وهذا المنهاج. فهنئيًا لمن وفق في دعوته إلى هذا الترتيب المبارك الطيب الذي استنتجه الرازي من هذه الآية.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٩٢) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٩٣) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤)

★ غريب الآية:

لَمْ تَرْقُبْ: لم تراع ولم تحفظ.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾. الظاهر أن أمره المذكور في هذه الآية هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اكْخُفْ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾» (١).

وهذه الآية الكريمة تدل على اقتضاء الأمر للوجوب. لأنه أطلق اسم المعصية على عدم امتثال الأمر، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة: كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٣)، فجعل أمره وأمر رسوله ﷺ مانعاً من الاختيار، موجباً للامتثال» (٤).

وقال: «قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤): ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن هارون قال لأخيه موسى ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ وذلك يدل على أنه لشدة غضبه أراد أن يمسك برأسه ولحيته. وقد بين تعالى في الأعراف أنه أخذ برأسه يجره إليه. وذلك في قوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ (٥)، وقوله: ﴿وَلَمْ

(٢) النور: الآية (٦٣).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٩١).

(١) الأعراف: الآية (١٤٢).

(٣) الأحزاب: الآية (٣٦).

(٥) الأعراف: الآية (١٥٠).

تَرْقُبُ قَوْلِي ﴿ من بقية كلام هارون . أي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ، وأن تقول لي لم ترقب قولي أي لم تعمل بوصيتي وتمثل أمري ﴾^(١) .

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : قال موسى لأخيه هارون لما فرغ من خطاب قومه ومراجعتة إليهم على ما كان من خطأ فعلهم : يا هارون أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم ، فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني .

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي عدل موسى عليه أخاه من تركه اتباعه ، فقال بعضهم : عدله على تركه السير بمن أطاعه في أثره على ما كان عهد إليه . . وقال آخرون : بل عدله على تركه أن يصلح ما كان من فساد القوم . .

وقوله : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ، وفي هذا الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه ، فقال هارون : ﴿ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ فاختلف أهل العلم في صفة التفريق بينهم ، الذي خشيه هارون ، فقال بعضهم : كان هارون خاف أن يسير بمن أطاعه ، وأقام على دينه في أثر موسى ، ويخلف عبدة العجل ، وقد ﴿ قَالُوا ﴾ له : ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ فيقول له موسى : ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ بسيرك بطائفة ، وتركك منهم طائفة وراءك . .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : خشيت أن تقتل فيقتل بعضنا بعضا . .

قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك بالصواب ، القول الذي قاله ابن عباس من أن موسى عدل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان ، فقال له هارون : إني خشيت أن تقول ، فرقت بين جماعتهم ، فتركت بعضهم وراءك ، وجئت ببعضهم ، وذلك بين في قول هارون للقوم ﴿ يَقُولُونَ إِنَّمَا قُتِلَ بِهَذَا وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَانْصَبُوا أَلْسِنَهُمْ لِيَنْصَرِفَ عَنْكُمْ ﴾^(٢) ، وفي جواب القوم له وقيلهم : ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾^(٣) .

(١) أضواء البيان (٤/ ٩١) .

(٢) طه : الآية (٩٠) .

(٣) طه : الآية (٩١) .

وقوله ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ يقول: ولم تنظر قولي وتحفظه، من مراقبة الرجل الشيء، وهي مناظرته بحفظه^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن موسى ﷺ، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه.. وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلا تَتَّبِعَنِ ۚ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۚ﴾ أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۚ﴾^(٢). قال: ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، أي: في الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۚ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۚ».

هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً^(٣).

قلت: نستنتج من هذه الآية الكريمة وتفسير المفسرين لها؛ عظمة التوحيد وهيبته، وأن وصية الأولين والآخرين كانت به، وأن الشرك من أعظم المناكير التي تتغير لها القلوب وتتغيظ، وأن الغضب في حقه واجب، مهما كانت مكانة الفاعل.

وأن هارون ﷺ توقف في هذا الأمر الذي أوصاه به موسى لما خاف من المفساد التي تترتب على قوله أو فعله لو قال أو فعل، كما فعل رسول الله ﷺ في قضية الكعبة لحدثة عهد الناس بالكفر والشرك.

فالداعية إلى الله يجب أن يراعي في دعوته المصالح والمفاسد، وأن لا يحدث قولاً أو فعلاً يكون ضرره أضعاف خيره. فاللهم صلّ على الأنبياء والرسل جميعاً.

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة بضميمة آية الأنعام إليها تدل على لزوم إعفاء

(٢) الأعراف: الآية (١٤٢).

(١) جامع البيان (١٦/٢٠٣-٢٠٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٠٥).

اللحية، فهي دليل قرآني على إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾^(١). ثم إنه تعالى قال بعد أن عدّ الأنبياء الكرام المذكورين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةً﴾^(٢) فدل ذلك على أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالافتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمر لنا. لأن أمر القدوة أمر لاتباعه كما بيّنا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة المائدة.

وقد قدّمنا هناك: أنه ثبت في صحيح البخاري^(٣): أن مجاهدًا سأل ابن عباس: من أين أخذت السجدة في (ص) قال: أما تقرأ في ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾^(٤)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةً﴾ فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ، فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالافتداء بهم في سورة الأنعام، وعلمت أن أمره أمر لنا؛ لأن لنا فيه الأسوة الحسنة، وعلمت أن هارون كان موفرًا شعر لحيته بدليل قوله لأخيه: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾؛ لأنه لو كان حالقًا لما أراد أخوه الأخذ بلحيته، تبين لك من ذلك بإيضاح: أن إعفاء اللحية من السمات التي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم. والعجب من الذين مسخت ضمائرهم، واضمحل ذوقهم، حتى صاروا يفرون من صفات الذكورية، وشرف الرجولة، إلى خنوثة الأنوثة، ويمثلون بوجوههم بحلق أذقانهم، ويتشبهون بالنساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسية بين الذكر والأنثى وهو اللحية. وقد كان ﷺ كثر اللحية، وهو أجمل الخلق وأحسنهم صورة. والرجال الذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها: ليس فيهم حالق، نرجو الله أن يرينا وإخواننا المؤمنين الحق حقًا، ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه.

أما الأحاديث النبوية الدالة على إعفاء اللحية، فلسنا بحاجة إلى ذكرها لشهرتها بين الناس، وكثرة الرسائل المؤلفة في ذلك. وقصدنا هنا أن نبين دليل ذلك من القرآن^(٥).

(١) الأنعام: الآية (٨٤).

(٢) الأنعام: الآية (٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٨/٦٩٨/٤٨٠٧).

(٥) أضواء البيان (٤/٩٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

★ غريب الآية:

بَصُرْتُ: يقال: بصر بالشيء، أي علمه.

قَبْضَةٌ: القبضة: ملء الكف.

فَنَبَذْتُهَا: أي: فرميتها وطرحتها.

سَوَّلَتْ: أي: زينت وحسنت.

مِسَاسٌ: أي مماسة.

لَنَنْسِفَنَّهُ: أي: لنذرينه تذرية كما تذر الرياح الغبار.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟، فقال:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل عليه السلام على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ﴾ حافر فرسه، ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ على العجل، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فَاذْهَبْ﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني،

ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ﴾ فتجازى بعملك، من خير وشر، ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: العجل ﴿لَنُخْرِقَنَّكَ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلها، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى ﷺ إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى داع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٧٨﴾.

أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يرجى ولا يخاف، ولا يدعى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه^(١).

قال ابن عاشور: «أما قوله: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ﴾ فهو إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حظه في حياته أن يقول لا مِسَاس، أي سلبه الله الأنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوسًا ووسوسًا وتوحشًا، فأصبح متباعدًا عن مخالطة الناس، عائشًا وحده لا يترك أحدًا يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مِسَاس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك، أو أراد لا اقتراب مني، فإن المس يطلق على الاقتراب كقوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهاَ بِسُوءٍ﴾^(٢)، وهذا أنسب بصيغة المفاعلة، أي مقارنة بيننا، فكان يقول ذلك، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية^(٣).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٧٨﴾».

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) هود: الآية (٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٨).

بَيِّن - جل وعلا - في هذه الآية : أن العجل الذي صنعه السامري من حلي القبط لا يمكن أن يكون إلهاً ؟ وذلك لأنه حصر الإله أي المعبود بحق بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي أداة حصر على التحقيق في خالق السموات والأرض ، الذي لا إله إلا هو ، أي لا معبود بالحق إلا هو وحده - جل وعلا - ، وهو الذي وسع كل شيء علماً . وقوله ﴿عِلْمًا﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أي وسع علمه كل شيء .

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة : من أنه تعالى هو الإله المعبود بحق دون غيره ، وأنه وسع كل شيء علماً ، ذكره في آيات كثيرة من كتابه تعالى ؛ كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(١) ، وقوله : ﴿قَالَتْ أَنَّى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في إحاطة علمه بكل شيء : ﴿وَمَا يَمْرُؤُا عَنْ رَّبِّكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِي سَمَاءٍ مُبِينٍ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا رَاحٌ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾^(٤) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً^(٥) .

قال ابن عاشور : ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ هذه الجملة من حكاية كلام موسى عليه السلام فموقعها موقع التذييل لوعظه ، وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمة إعرافاً عن خطابه تحقيراً له ، وقصدًا لتنبيههم على خطئهم ، وتعليمهم صفات الإله الحق ، واقتصر منها على الوحداية وعموم العلم ؛ لأن الوحداية تجمع جميع الصفات . . .
وأما عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم^(٦) .

* * *

(٢) محمد : الآية (١٩) .

(٤) الأنعام : الآية (٥٩) .

(١) البقرة : الآية (٢٥٥) .

(٣) يونس : الآية (٦١) .

(٥) أضواء البيان (٩٣/٤) .

(٦) التحرير والتنوير (٣٠١-٣٠٠/١٦) .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

(٥) هود: الآية (٤٩).

بِهِ فَوَادَكَ ﴿١﴾. وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٢﴾، وقوله في يوسف أيضًا: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿٣﴾، وقوله في القصص: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ﴿٤﴾، وقوله فيها: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ ﴿٥﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَنْتَنَّا﴾ ﴿٦﴾، إلى غير ذلك من الآيات. يعني لم تكن حاضراً يا نبي الله لتلك الوقائع، فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما علمته. وقوله ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: أخبار ما مضى من أحوال الأمم والرسل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾؛ أي: أعطيناك من عندنا ذكراً وهو هذا القرآن العظيم، وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله؛ كقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُكْرِرُونَ﴾ ﴿٧﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٨﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٩﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿١٠﴾، وقوله تعالى: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١١﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ﴿١٢﴾، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١٣﴾، إلى غير ذلك من الآيات ﴿١٤﴾.

وقال: «قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿١٥﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿١٦﴾: ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي صدّ وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ويعتبر بما فيه

(١) هود: الآية (١٢٠).

(٢) يوسف: الآية (١٠٢).

(٤) القصص: الآية (٤٤).

(٦) القصص: الآية (٤٥).

(٨) آل عمران: الآية (٥٨).

(١٠) الحجر: الآية (٦).

(١٢) الزخرف: الآية (٤٤).

(١٤) أضواء البيان (٤/ ٩٣-٩٥).

(٣) يوسف: الآية (٣).

(٥) القصص: الآية (٤٦).

(٧) الأنبياء: الآية (٥٠).

(٩) الأنبياء: الآية (٢).

(١١) ص: الآية (١).

(١٣) الحجر: الآية (٩).

من القصص والأمثال، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة. سمّاها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بهره. أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له - : قد دلت آيات كثيرة من كتاب الله : على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم . أي : أثقال ذنوبهم على ظهورهم . كقوله في سورة الأنعام : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَلْقَاءُ اللَّهَ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشُرُنَا عَلَى مَا فَرَقْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ ﴾ (١) ، وقوله في النحل : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ ﴾ (٢) ، وقوله في العنكبوت : ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَنْوًا كَأَنَّا بِقُرْبٍ ﴾ (٣) ، وقوله في فاطر : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (٤) .

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن، تعلم أن معنى قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّهُ يُحْمَلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ أن المراد بذلك الوزر المحمول أثقال ذنوبهم وكفرهم، يأتون يوم القيامة يحملونها (٥) .

قال ابن كثير : « يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : كما قَصَصْنَا عَلَيْكَ خَيْرَ مُوسَى ، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية وبالأمر الواقع ، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي : عندنا ﴿ ذِكْرًا ﴾ وهو القرآن العظيم ، الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٦) ، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد - صلى الله عليه وسلم تسليمًا - ، كتابًا مثله ولا أكمل منه ، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ أي : كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا ، وابتغى الهدى في غيره ،

(١) الأنعام : الآية (٣١) .

(٢) النحل : الآية (٢٥) .

(٣) العنكبوت : الآية (١٣) .

(٤) فاطر : الآية (١٨) .

(٥) فصلت : الآية (٤٢) .

(٦) البقرة : الآية (١٣٠) .

(٧) البقرة : الآية (١٣٠) .

(٨) البقرة : الآية (١٣٠) .

(٩) البقرة : الآية (١٣٠) .

فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾ أي : إثماً ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾^(١) .

وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم ، أهل الكتاب وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿لَا تُؤْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٢) . فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع ، فمن اتبعه هدي ، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا ، والنار موعده يوم القيامة ؛ ولهذا قال : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ : أي : لا مَجِيدَ لَهُمْ عنه ولا انفكاك ، ﴿وَسَاءَ لِمَنْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ أي : وبئس الحمل حملهم^(٣) .

قال السعدي : «يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين ، وأخبار السالفين ، كهذه القصة العظيمة ، وما فيها من الأحكام وغيرها ، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب ، فأنت لم تدرس أخبار الأولين ، ولم تتعلم ممن دراها ، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم ، دليل على أنك رسول الله حقاً ، وما جئت به صدق ، ولهذا قال : ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي : عطية نفيسة ، ومنحة جزيلة من عندنا . ﴿ذِكْرًا﴾ وهو هذا القرآن الكريم ، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة ، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة ، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي ، وأحكام الجزاء ، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام ، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها ، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها ، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته ، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم ، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم ، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم .

وأما مقابله بالإعراض ، أو ما هو أعظم منه من الإنكار ، فإنه كفر لهذه النعمة ، ومن فعل ذلك ، فهو مستحق للعقوبة ، ولهذا قال : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به ، أو

(١) هود : الآية (١٧) .

(٢) الأنعام : الآية (١٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٥) .

تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهِ﴾ أي: في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابا على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وَسَاءَ لَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جِمْلًا﴾ أي: بشس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة^(١).

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان، ولا إيناس السامعين بالحديث، إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها. فللايماء إلى هذا قال تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿٩٩﴾ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهِ﴾^(٢).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٥-١٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾^(١٠٢)
 يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
 أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

★ غريب الآية:

يَتَخَفَتُونَ: يتسارون.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً: أي أقربهم إلى الصواب، وأرشدهم مذهباً.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرْق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم، أي: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: في حال تناجيهم بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾^(٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا

فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ^(١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾^(٢)، أي: إنما كان لبئكم فيها قليلا لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدّمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي^(٣).

قال السعدي: ﴿يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَتَخْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٧﴾﴾ . . أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كل على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا، والمجرمون يحشرون زرقا ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ امْكُلُوا مِنْ طَرِيقَةٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٩﴾﴾ والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والشبور.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾^(٤).

* * *

(١) فاطر: الآية (٣٧).

(٢) المؤمنون: الآيات (١١٢-١١٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٠٩/٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١٨٧-١٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

★ غريب الآية:

قَاعًا: القاع: المستوي من الأرض.

صَفْصَفًا: هو المستوي من الأرض، وقيل: كأنه على صف واحد، وقيل: هو الخالي المستوي من الأرض.
أَمْتًا: الأمت في الأصل المكان المرتفع، ومعنى: ولا أمتا، أي لا ارتفاع فيها ولا انخفاض.

هَمْسًا: أصل الهمس: الصوت الخفي.

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾».

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنهم يسألونه عن الجبال، وأمره أن يقول لهم: إن ربه ينسفها نسفًا، وذلك بأن يقلعها من أصولها، ثم يجعلها كالرمل المتهايل الذي يسيل، وكالصفوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا.

واعلم أنه -جل وعلا- بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه. فبين أنه ينزعها من أماكنها. ويحملها فيدكها دكًا. وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٠٦﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٠٧﴾﴾^(١).

ثم بين أنه يسيّرهما في الهواء بين السماء والأرض. وذلك في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَرِيرٍ ﴿١٠٨﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ

تَحْسِبَهَا جامِدةً وَهِيَ تَمُوتُ مَرَّ السَّحَابِ صُنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴿١﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ﴿٢﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ﴿٣﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿٤﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَمُورُ السَّمَاءَ مَوْرًا﴾ ﴿٥﴾ وَنَسِيرُ الْجِبَالَ سِيرًا ﴿٦﴾ ﴿٥﴾.

ثم بين أنه يفتتها ويدقها كقوله: ﴿وُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ ﴿٦﴾ ﴿٦﴾، أي: فتت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَحُلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكُّمَا ذُكَّةً وَجِدَّةً﴾ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾.

ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل، وكالعن المنفوش، وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ ﴿٨﴾ ﴿٨﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ﴿٩﴾ ﴿٩﴾، في المعارج، والقارعة. والعن: الصوف المصبوغ. ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كَأَنَّ فُتَاتِ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْقَنَا لَمْ يُحْطَمِ

ثم بين أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿وُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿١﴾ ﴿١٠﴾، ثم بين أنها تصير سرابًا، وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿٦﴾ ﴿١١﴾ وقد بين في موضع آخر أن السراب لا شيء. وذلك قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ ﴿١٢﴾، وبين أنه ينسفها نسفًا في قوله هنا: ﴿وَتَكُونُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٣﴾.

وقال: «قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي. والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب. قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك

(٢) الكهف: الآية (٤٧).

(٤) النبأ: الآية (٢٠).

(٦) الواقعة: الآية (٥).

(٨) المزمل: الآية (١٤).

(١٠) الواقعة: الآيتان (٥-٦).

(١٢) النور: الآية (٣٩).

(١) النمل: الآيتان (٨٧-٨٨).

(٣) التكويد: الآية (٣).

(٥) الطور: الآيتان (٩-١٠).

(٧) الحاقة: الآية (١٤).

(٩) المعارج: الآية (٩).

(١١) النبأ: الآية (٢٠).

(١٣) أضواء البيان (٩٧/٤-٩٦).

لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ، فَيَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَيَتَّبِعُونَهُ. وَمَعْنَى ﴿لَا عِوَجَ لَكُمْ﴾: أَي: لَا يَحِيدُونَ عَنْهُ، وَلَا يَمِيلُونَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا. وَقِيلَ: لَا عِوَجَ لِدَعَاءِ الْمَلِكِ عَنْ أَحَدٍ، أَي: لَا يَعْدِلُ بِدَعَائِهِ عَنْ أَحَدٍ، بَلْ يَدْعُوهُمْ جَمِيعًا. وَمَا ذَكَرَهُ -جَل وَعَلَا- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ لِلدَّاعِي لِلْحِسَابِ، وَعَدَمِ عَدُولِهِمْ عَنْ بَيْنِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَزَادَ أَنَّهُمْ يَسْرِعُونَ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ ۖ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۖ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ۝ (١)﴾^(١)، وَالْإِهْطَاعُ: الْإِسْرَاعُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۝ (٢) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْعَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ۝ (٣)﴾^(٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۝ (٤)﴾^(٣)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أَي: خَفَضَتْ وَخَفَّتْ، وَسَكُنَتْ هَيْبَةً لِلَّهِ، وَاجْتِلَالًا وَخَوْفًا ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ صَوْتًا عَالِيًا، بَلْ لَا تَسْمَعُ ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أَي: صَوْتًا خَفِيًّا خَافِتًا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ. أَوْ ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أَي: إِلَّا صَوْتَ خَفَقِ الْأَقْدَامِ وَنَقْلِهَا إِلَى الْمَحْشَرِ، وَالْهَمْسُ يَطْلُقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْخَفَاءِ، فَيَشْمَلُ خَفَضَ الصَّوْتِ وَصَوْتَ الْأَقْدَامِ. كَصَوْتِ أَخْفَافِ الْإِبِلِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي فِيهَا يَابَسَ النَّبَاتُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ:

وَهَنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسًا

وَمَا ذَكَرَهُ -جَل وَعَلَا- هُنَا أَشَارَ لَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، كَقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝ (١) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ (٢)﴾^(٤)، ^(٥).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أَي: هَلْ تَبْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ تَزُولُ؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أَي: يَذْهَبُهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا وَيَمْحَقُهَا وَيَسِيرُهَا تَسِيرًا. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أَي: الْأَرْضُ ﴿فَقَاعًا صَفْصَفًا﴾ أَي: بِسَاطًا وَاحِدًا.

وَالْقَاعُ: هُوَ الْمُسْتَوِيُّ مِنَ الْأَرْضِ. وَالصَّفْصَفُ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ، وَقِيلَ: الَّذِي

(٢) ق: الْآيَاتُ (٤١-٤٢).

(٤) النَّبَأُ: الْآيَاتُ (٣٧-٣٨).

(١) الْقَمَرُ: الْآيَاتُ (٦-٨).

(٣) الْإِسْرَاءُ: الْآيَةُ (٥٢).

(٥) أَضْوَاءُ الْبَيَانِ (٤/١٠٠).

لا نبات فيه . والأول أولى ، وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم ؛ ولهذا قال : ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي : لا ترى في الأرض يومئذ واديًا ولا رابية ، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا ، كذلك قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن البصري ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد من السلف .

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ أي : يوم يرون هذه الأحوال والأحوال ، يستجيبون مسارعين إلى الداعي ، حيثما أمروا بادرُوا إليه ، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم ، كما قال تعالى : ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتُؤْتِنَا﴾^(١) ، وقال : ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ غَيْرٌ﴾^(٢) .

قال محمد بن كعب القرظي : يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ، وتطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادي مناد ، فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ . وقال قتادة : ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ لا يميلون عنه .

وقال أبو صالح : ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ لا عوج عنه .

وقوله : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ : قال ابن عباس : سكنت : وكذا قال

السدي .

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يعني : وطم الأقدام . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ : الصوت الخفي . وهو رواية عن عكرمة ، والضحاك .

وقال سعيد بن جبير : ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ : الحديث ، وسره ، ووطء الأقدام . فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل ، أما وطم الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع . وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال ، فقد قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقْتُ﴾

(١) مريم : الآية (٣٨) .

(٢) القمر : الآية (٨) .

وَسَوِّدٌ ﴿١١﴾، (٢).

قال السعدي: «يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿وَسَتَلَوْنَكَ عَنِ الْغِبَالِ﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا، فتضمحل وتتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعا صفصفا، مستويا لا يرى فيها الناظر عِوَجًا، هذا من تمام استوائها ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقا وصدقا، لجميع الخلق، يسمعهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرولن لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سرا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذلل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحببيه، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٣)، فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به

(١) هود: الآية (١٠٥).

(٣) عبس: الآية (٣٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٠٩/٥-٣١٠).

وبرسله بالرحمة ، فإن قيل : من أين لكم هذا الأمل ؟ وإن شئت قلت : من أين لكم هذا العلم بما ذكر ؟

قلنا : لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه ، ومن سعة جوده ، الذي عم جميع البرايا ، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا ، من النعم المتواترة في هذه الدار ، وخصوصا في فصل القيامة ، فإن قوله : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ مع قوله : ﴿ أَلَمْ تَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ ^(١) مع قوله ﷺ : «إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة ، بها يتراحمون ويتعاطفون ، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه أي : - من الرحمة المودعة في قلبها ، فإذا كان يوم القيامة ، ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة ، فرحم بها العباد» ^(٢) . مع قوله ﷺ : «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها» ^(٣) فقل ما شئت عن رحمته ، فإنها فوق ما تقول ، وتصور ما شئت ، فإنها فوق ذلك ، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته ، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته ، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء ، وعم كرمه كل حي ، وجل من غني عن عباده ، رحيم بهم ، وهم مفتقرون إليه على الدوام في جميع أحوالهم ، فلا غنى لهم عنه طرفة عين» ^(٤) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الصور

* عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «الصور قرن ينفخ فيه» ^(٥) .

* فوائد الحديث :

انظر فوائد هذا الحديث والكلام على النفخ في الصور في سورة الأنعام الآية (٧٣) والنمل الآية (٨٧) والزمر الآية (٦٨) .

(١) الفرقان : الآية (٢٦) .

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٤/٢) ومسلم (٢١٠٨/٤) وابن ماجه (١٤٣٥/٢) (٤٢٩٣) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٣/١٠) ومسلم (٢١٠٩/٤) (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١٨٨-١٩١) .

(٥) أخرجه : أحمد (١٦٢/٢) ، وأبو داود (٤٧٤٢/١٠٧/٥) ، والترمذي (٣٢٤٤/٥) ، وحسنه ، والنسائي في الكبرى (٣٩٢/٦) (١١٣١٢) ، وصححه ابن حبان (الإحسان-١٦/٣٠٣/٧٣١٢) ، والحاكم (٥٦٠/٤) ووافقه الذهبي .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾ أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿١١٠﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾^(٣)، وقال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٤)، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاطِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿١١٠﴾^(٥)، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^(٦) أي: يحيط علما بالخلائق كلهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^{(٧) (٨)}.

قال السعدي: «وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا من أذن له في الشفاعة، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعته من أحد»^(٩).

(٢) النجم: الآية (٢٦).

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٥) النبأ: الآية (٣٨).

(٤) سبأ: الآية (٢٣).

(٦) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٧) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٠-٣١١).

(٩) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الشفاعة

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال - في حديث الشفاعة الطويل - : «... فأنطلق حتى أستاذن على ربي فيؤذن، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقُلْ يسمع، واشفع تشفع. فأزفُع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود»^(١).

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»^(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال سليمان بن عبد الله: «يحصل للعبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعة الرسول ﷺ وغيرها ما لا يحصل بغيره من الأعمال، وإن كان صالحاً لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ، فكيف بما لم يأمر به من الأعمال، بل نهى عنه، فذلك لا ينال به خير لا في الدنيا ولا في الآخرة، مثل غلو النصارى في المسيح، فإنه يضرهم ولا ينفعهم، ونظير هذا في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً»^(٣)، وكذلك في أحاديث الشفاعة كلها إنما يشفع في أهل التوحيد، فبحسب توحيد العبد لربه، وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها.

وقال ابن القيم ما معناه: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال

(١) أخرجه: أحمد (٣/٢٤٤)، والبخاري (٨/٢٠٢-٢٠٣/٤٤٧٦)، ومسلم (١/١٨٠-١٨١/١٩٣)، وابن ماجه (٢/١٤٤٢-١٤٤٣/٤٣١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١١٦)، والبخاري (١/١٣٨-١٣٩/٤٤)، ومسلم (١/١٨٢/١٩٣ [٣٢٥])، والترمذي (٤/٦١٣-٢٥٩٣)، وابن ماجه (٢/١٤٤٣/٤٣١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٤٢٦) ومسلم (١/١٨٩/١٩٩) والترمذي (٥/٥٤١-٥٤٢/٣٦٠٢) وابن ماجه (٢/١٤٤٠/٤٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بها شفاعته تجريد التوحيد؛ عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء، وعبادتهم ومولاتهم من دون الله، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع. ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا من رضي قوله وعمله، كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١) وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾^(٢)، وبقي فصل ثالث وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله ﷺ. فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاما وعقلها. انتهى ملخصاً.

وقال الحافظ: المراد بهذه الشفاعة، المسؤول عنها هنا بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ: «أمتي أمتي» فيقال له: أخرج من النار من كان في قلبه وزن كذا من الإيمان^(٣). فأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه، وأما الشفاعة العظمى، فالإراحة من كرب الموقف. فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة، وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم، وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب، ثم من يصيبه لفح من النار ولا يسقط^(٤).

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٢) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣/٥٧٩-٥٨٠/٧٥١٠) ومسلم (١/١٨٢-١٨٤/١٩٣ [٣٢٦]).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٥٣-٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

★ غريب الآية:

عَنَت: أي خضعت مستأسرة بعناء.

خَابَ: الخيبة: فوت الطلب، وعدم الظفر بالبغية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «واعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: المراد بالوجوه التي ذلت وخشعت للحي القيوم: وجوه العصاة خاصة وذلك يوم القيامة: وأسند الذل والخشوع لوجوههم، لأن الوجه تظهر فيه آثار الذل والخشوع. ومما يدل على هذا المعنى من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١)، وقوله: ﴿وُجُوهُ يَوْمٍ بِأَسْرَةٍ﴾^(٢) تَقُلُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمٍ خَشَعَتُ﴾^(٤) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ^(٥) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً^(٦)...»^(٧)

وقال بعض العلماء: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾: أي: ذلت وخضعت وجوه المؤمنين لله في دار الدنيا، وذلك بالسجود والركوع. وظاهر القرآن يدل على أن المراد الذل والخشوع لله يوم القيامة، لأن السياق في يوم القيامة، وكل الخلائق تظهر عليهم في ذلك اليوم علامات الذل والخشوع لله -جل وعلا-.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، قال بعض العلماء: أي: خسر من حمل شركًا. وتدلل لهذا القول الآيات القرآنية الدالة على تسمية الشرك

(١) الملك: الآية (٢٧).

(٢) القيامة: الآيتان (٢٤-٢٥).

(٣) الغاشية: الآيات (٢-٤).

ظلمًا؛ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات، والأظهر أن الظلم في قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، يعنى الشرك وغيره من المعاصي. وخيبة كل ظالم بقدر ما حمل من الظلم، والعلم عند الله تعالى^(٥).

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: استسرت وجوه الخلق، واستسلمت للحَيِّ القيوم الذي لا يموت، القيوم على خلقه بتدبيره إياهم، وتصريفهم لما شاءوا...»

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ يقول - تعالى ذكره -: ولم يظفر بحاجته وطلبته من حمل إلى موقف القيامة شركًا بالله، وكفرًا به، وعملاً بمعصيته^(٦).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه^(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الظلم ظلمات يوم القيامة،

واظلم الظلم الشرك بالله

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٨).

(٢) البقرة: الآية (٢٥٤).

(٤) الأنعام: الآية (٨٢).

(٦) جامع البيان (١٤/٢١٥-٢١٧).

(١) لقمان: الآية (١٣).

(٣) يونس: الآية (١٠٦).

(٥) أضواء البيان (٤/١٠١).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/٣١١).

(٨) أخرجه: أحمد (٣/٣٢٣)، ومسلم (٤/١٩٩٦/٢٥٧٨) والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣).

★ غريب الحديث:

الشُّح: هو البخل مع الحرص.

★ فوائد الحديث:

قال الشيخ العثيمين: «واعلم أن الظلم هو النقص. قال الله تعالى: ﴿كُنَّا الْجَنَّةَ إِنَّا أَكَلْنَا مِنَّا وَكَلَّ تَطْلِيلًا إِنَّهُ شَيْءٌ﴾^(١) يعني لم تنقص منه شيئاً. والنقص إما أن يكون بالتجرؤ على ما لا يجوز للإنسان، وإما بالتفريط فيما يجب عليه. وبذلك يدور الظلم على هذين الأمرين، إما ترك واجب، وإما فعل محرم.

والظلم نوعان: ظلم يتعلق بحقوق الله ﷻ، وظلم يتعلق بحقوق العباد، وأعظمهما المتعلق بحقوق الله والإشراك به، فإن النبي ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله ندا وهو خالقك»^(٢) ويليه الظلم في الكبائر، ثم الظلم في الصغائر.

أما في حقوق الله فالظلم يدور على ثلاثة أشياء، بينها النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع، فقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»^(٣) الظلم في النفس هو الظلم في الدماء، يكون بأن يعتدي الإنسان على حق غيره، بسفك الدماء أو الجروح أو ما أشبه ذلك، الظلم في الأموال بأن يعتدي الإنسان ويظلم غيره في الأموال، إما بعدم بذل الواجب، وإما بإتيان محرم، وإما بأن يمتنع من واجب عليه، وإما بأن يفعل شيئاً محرماً في مال غيره. وأما الظلم في الأعراض، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنا، واللواط، والقذف، وما أشبه ذلك.

وكل الظلم بأنواعه محرم، ولن يجد الظالم من ينصره أمام الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيٍّ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(٤)، أي أنه يوم القيامة، لا يجد الظالم

(١) الكهف: الآية (٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٠/١) والبخاري (٢٢٩/١٢) ومسلم (١٤٢/٩١/١) وأبو داود (٧٣٢-٧٣٣/٢).

(٣) الترمذي (٣١٥/٥) والنسائي (٤٠٢٦/١٠٤/٧) من حديث عبد الله بن مسعود ؓ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٠/١) والبخاري (٧٣٩/٣). وأخرجه الترمذي (٢١٩٣/٤٢١/١) مختصراً دون

ذكر موضع الشاهد من حديث عبد الله بن عباس ؓ.

(٤) غافر: الآية (١٨).

حميما أي صديقا ينجيه من عذاب الله، ولا يجد شفيعا يشفع له فيطاع، لأنه منبوذ بظلمه وغشمه وعدوانه، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(١)، يعني لا يجدون أنصارا ينصرونهم ويخرجونهم من عذاب الله ﷻ في ذلك اليوم.. فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ويوم القيامة ليس هناك نور إلا من أنار الله تعالى له، وأما من لم يجعل الله له نورا فما له من نور. والإنسان إن كان مسلما فله نور بقدر إسلامه، ولكن إن كان ظالما فقد من هذا النور بمقدار ما حصل من الظلم، لقوله ﷻ: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٢).

قوله: «اتقوا الظلم»؛ قال القرطبي: «ظاهره: أن الظالم يعاقب يوم القيامة؛ بأن يكون في ظلمات متوالية يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم، وبأيمانهم حين: ﴿يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾»^(٣)،^(٤).

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٧٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/٥٩٥-٥٩٧).

(٣) الحديد: الآية (١٣).

(٤) المفهم (٦/٥٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿٣٧﴾

★ غريب الآية:

هَضْمًا: أي نقصًا، يقال: هضمته واهتضمته وتهضمته، أي نقصته حقه، وقيل: الظلم والهضم متقاربان، وفرّق بعضهم بينهما فقال: الظلم منع جميع الحق، والهضم منع بعضه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه -: ومن يعمل من صالحات الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يقول: وهو مصدّق بالله، وأنه مجاز أهل طاعته وأهل معاصيه على معاصيهم ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ يقول: فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿٣٧﴾، لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظْلَمُونَ ولا يُهْضَمُونَ، أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص»^(٢).

(١) جامع البيان (١٦/٢١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣١٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما رغبتنا أهل الإيمان في صالحات الأعمال، بوعدناهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا فأزلنا هذا القرآن عربيا، إذ كانوا عربا، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ فبيناه: يقول: وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقول: كي يتقونا، بتصرفنا ما صرّفنا فيه من الوعيد، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يقول: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة، فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم التي كذبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله»^(١).

قال ابن كثير: «يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة، أنزلنا القرآن بشيرا ونذيرا، بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات»^(٢).

قال السعدي: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾؛ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب، باللسان الفاضل العربي، الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه، ولا معناه.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: نوعناها أنواعا كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثالات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال

(١) جامع البيان (١٦/٢١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣١٢).

القيامة، وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربياً، وكونه مصرفاً فيه من الوعيد، أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٩٢).

قوله تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١١٤﴾

اهوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن. فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي. فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإن الله يسر له حفظه. وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع؛ كقوله في القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١١٠﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١١١﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْ قُرْآنَهُ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١١٣﴾ ﴿١﴾، ﴿٢﴾.

قال ابن كثير: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذي هو حق، ووعدته حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثه الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة» ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١١٠﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١١١﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْ قُرْآنَهُ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١١٣﴾، أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراءه بعده، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علماً.

قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله ﷻ. ولهذا

(١) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

(٢) أضواء البيان (٤/١٠٢-١٠٣).

جاء في الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم تُوفِّي رسول الله ﷺ»^(١) «(٢)».

قال السعدي: «لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عباده، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه، وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ أي: جل وارتفع وتقدس عن كل نقص وآفة، ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم ممالك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية، نافذة فيهم.

﴿الْحَقُّ﴾ أي: وجوده وملكه وكمالُه حق، فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكا حيا قيوما جليلا.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقراه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ١٣ إِنَّ عَيْنَا جَمَعْنَاهُ وَفُزَّانَهُ ١٤ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ ١٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ١٦ ﴿٣﴾، ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعبءه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المستول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف

(١) أخرجه: أحمد (٣/٢٣٦)، البخاري (٩/٣-٤/٤٩٨٢)، ومسلم (٤/٢٣١٢/٣٠١٦)، والنسائي في الكبرى

(٥/٧٩٨٣) من حديث أنس بن مالك ؓ.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣١٢).

(٣) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

المقصود منه قبل الجواب ، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب^(١) .
وانظر قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْرُكْ يَدَيْهِ لِسَانُكَ لَتَعْجَلَ بِهِ ﴾ من سورة القيامة .

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٩٣-١٩٤) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا﴾ ﴿١١٥﴾

★ غريب الآية:

عَزْمًا: أي تصميمًا على ما هم به .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ أي: أوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة. وهذا العهد إلى آدم الذي أجمله هنا بيّنه في غير هذا الموضع، كقوله في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾»، فقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هو عهده إلى آدم المذكور هنا. وقوله في الأعراف: ﴿وَتَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١١﴾» (٢) (٣).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدوهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقد بما فعل ذلك أبوهم آدم ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ يقول: ولقد وصينا آدم وقلنا له ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ (٤)، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وعنى -جلّ ثناؤه- بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هؤلاء الذين أخبر أنه صرّف لهم الوعيد في هذا القرآن، وقوله ﴿فَنَسَى﴾ يقول: فترك عهدي..

وقوله: ﴿وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا﴾ اختلف أهل التأويل في معنى العزم هاهنا، فقال بعضهم: معناه الصبر.. وقال آخرون: بل معناه: الحفظ، قالوا: ومعناه: ولم نجد له حفظًا لما عهدنا إليه.

(٢) الأعراف: الآية (١٩).

(٤) طه: الآية (١١٧).

(١) البقرة: الآية (٣٥).

(٣) أضواء البيان (٤/١٠٣).

قال أبو جعفر: وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله -تبارك وتعالى-، وهو قوله ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه^(١).

قال السعدي: «أي: ولقد وصينا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهدا ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له وانقاد، وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجري عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له»^(٢).

قال ابن عطية: «قال الطبري: المعنى وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي ويخالفوا رسلي ويطيعوا إبليس، فقد بما^(٣) فعل ذلك أبوهم آدم ﷺ. وهذا التأويل ضعيف، وذلك أن يكون ﴿ءَادَمَ﴾ مثالا للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء، و﴿ءَادَمَ﴾ إنما عصى بتأويل ففي هذا غضاضة عليه ﷺ»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب تسمية الإنسان إنساناً

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إنما سمي الإنسان: لأنه عهد إليه فني»^(٥).

* فوائد الحديث:

دل الحديث على سر تسمية الإنسان بالإنسان، وأن ذلك من نسيانه ما عهد إليه. إشارة إلى آدم أصل الإنسانية. والعهد الذي عهد إليه هو عدم الأكل من الشجرة.

* * *

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٩٤).

(١) جامع البيان (١٦/٢٢٠-٢٢١).

(٣) في الأصل: فقدما، والصواب ما أثبتناه وانظر كلام الطبري المتقدم.

(٤) المحرر الوجيز (٤/٦٦).

(٥) أخرجه: ابن جرير (١٦/٢٢١) وابن أبي حاتم (٧/٢٤٣٧/١٣٥٤٦) وصححه الحاكم (٢/٣٨١) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾
﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾
﴿فَتَشَفَّى﴾ ﴿١٧٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى. أي: أبى أن يسجد. فذكر عنه هنا الإباء ولم يذكر عنه هنا الاستكبار. وذكر عنه الإباء أيضا في الحجر في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(١). وقوله في آية الحجر هذه ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ يبين معمولا (أبى) المحذوف في آية (طه) هذه التي هي قوله ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: أبى أن يكون مع الساجدين، كما صرح به في الحجر، وكما أشار إلى ذلك في الأعراف في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢)، وذكر عنه في سورة ص الاستكبار وحده في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣)، وذكر عنه الإباء والاستكبار معا في سورة البقرة في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤)»^(٥).

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - معلما نبيه محمدا ﷺ، ما كان من تضييع آدم عهده، ومعرفة بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أن يسجد له ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ﴾ ولذلك من شأنه لم يسجد لك، وخالف أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به، فيخرجكما بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له ﴿مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَفَّى﴾ يقول: فيكون عيشك من كدّ

(١) الحجر: الآية (٣١).

(٢) الأعراف: الآية (١١).

(٣) ص: الآية (٧٤).

(٤) البقرة: الآية (٣٤).

(٥) أضواء البيان (١٠٦/٤).

يدك، فذلك شقاؤه الذي حذر به»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً. . يذكر فيها تعالى خَلَقَ آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: امتنع واستكبر. ﴿فَقُلْنَا يَتَّخِذُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني: حواء، ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة»^(٢).

قال السعدي: «لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراماً وتعظيماً وإجلالاً فبادروا بالسجود ممثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾»^(٣) فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدواً لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ إذا أخرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهنيء، والراحة التامة»^(٤).

قال القرطبي: «﴿فَتَشْقَى﴾ يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد، ولم يقل: فتشقى لأن المعنى معروف، وآدم عليه السلام هو المخاطب، وهو المقصود. وأيضاً لما كان الكادّ عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص.

وقيل: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده، وهو شقاوة البدن، ألا ترى أنه عقبه بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾^(٥) أي في الجنة، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(٦) فأعلمه أن له في الجنة هذا كله: الكسوة والطعام والشراب والمسكن، وأنت إن ضيعت الوصية، وأطعت العدو أخرجكما من الجنة

(١) جامع البيان (١٦/٢٢٢).

(٣) الأعراف: الآية (١٢).

(٥) طه: الآية (١١٨).

(٦) طه: الآية (١١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣١٣-٣١٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/١٩٥).

فشقيت تعباً ونصباً، أي جعت وعريت وطمئت وأصابتك الشمس، لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة.

وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان: يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم؛ كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية.

وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، فإذا أعطاهها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها، لأن بها إقامة المهجة^(١).

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/١٦٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِىٰ﴾ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُمَا فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

★ غريب الآية:

لَا تَظْمَأُ: أي لا تبرز للضحى، وحقيقته أنه مصون من الشمس.

سَوَاتُهُمَا: عوراتهما.

طَفِقَا: أي شرعا.

يَخْصِفَانِ: الخصف: تطبيق بعض جلود النعل على بعض، ثم عبر به عن ضم الورق على بونهما لما زال عنهما لباسهما.

اجْتَنَبَاهُ: الاجتناء: الاصطفاء والاختيار.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «اعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: كلمه كلامًا خفيًا فسمعه منه آدم وفهمه. والدليل على أن الوسوسة المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول، وذلك في قوله ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾. فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة. وقد أوضح هذا في سورة الأعراف وبيّن أنه وسوس إلى حواء أيضًا مع آدم، وذلك في قوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ إلى قوله ﴿وَقَاَسَمَهُمَا إِيَّيْكَمَا لَيَنْ أَتَّبِعِينَ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾. فدلّهما بقرينة (١)، (٢).

(١) الأعراف: الآيات (٢١-٢٢).

(٢) أضواء البيان (٤/١١٠).

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾. . . ما ذكره -جل وعلا- في آية (طه) هذه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾^(١)، وقوله فيها أيضا: ﴿كَأَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبِعَهُمَا﴾^(٢).

وقد دلّت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستر به سوءاتهما، وأنهما لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة. فبدت سوءاتهما أي عوراتهما. وسميت العورة سوءة لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة، كما قال هنا: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، وقال في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾^(٣)،^(٤).

وقال: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى﴾^(٥)؛ الاجتباء: الاضطفاء والاختيار. أي: ثم بعد ما صدر من آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره فتأبى عليه وهداه إلى ما يرضيه. ولم يبيّن هنا السبب لذلك، ولكنه بيّن في غير هذا الموضع أنه تلقى من ربه كلمات فكانت سبب توبة ربه عليه، وذلك في قوله: ﴿فَلَلَّحَ آدَمَ مِنْ رِبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٦)، أي: بسبب تلك الكلمات كما تدل عليه الفاء. وقد قدمنا في سورة البقرة: أن الكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٧)، وخير ما يفسر به القرآن القرآن^(٨).

قال السعدي: «﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾^(٩) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى»^(١٠) أي: تصيبك الشمس بحرّها، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١١) فلم يزل الشيطان يوسوس لهما، ويزين

(١) الأعراف: الآية (٢٢).

(٢) أضواء البيان (٤/١١٣).

(٣) الأعراف: الآية (٢٣).

(٤) الأعراف: الآية (١٩).

(٥) البقرة: الآية (٣٧).

(٦) أضواء البيان (٤/١١٩-١٢٠).

(٧) الأعراف: الآية (٢٢).

(٨) الأعراف: الآية (٢٣).

(٩) أضواء البيان (٤/١١٩-١٢٠).

أكل الشجرة، ويقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة. ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبَلَى﴾ أي: لا ينقطع إذا أكلت منها، فأناه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم، فأكلا من الشجرة فسقط في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضح معصيتهما، وبدا لكل منهما سوءة الآخر، بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليستترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فبادرا إلى التوبة والإنابة، وقالوا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَفَوُّرٌ لَنَا وَنَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، فاجتباه ربه، واختاره، ويسر له التوبة ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلا ونهارا، ﴿يَتَّبِعْ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُمْ يَرُنْكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)،^(٣).

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾^(٤) إنما قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع دُلَّ الباطن، والعري دُلَّ الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(٥) وهذا أيضا متقابلا، فالظما: حر الباطن، وهو العطش. والصحى: حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبَلَى﴾^(٦)، قد تقدم أنه ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾^(٧)؛ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَيْنٌ فَتَصَبَّحَا﴾^(٨)،^(٩). وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكثه^(١٠).

(١) الأعراف: الآية (٢٣).

(٢) الأعراف: الآية (٢٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٥-١٩٧).

(٤) الأعراف: الآية (٢٢).

(٥) الأعراف: الآية (٢١).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٤).

قال الشوكاني: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝﴾ أي في الجنة. والمعنى: إن لك فيها تمتعاً بأنواع المعاش وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية، فإنه لما نفى عنه الجوع والعري أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له، وهكذا قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝﴾ فإن نفى الظمأ يستلزم حصول الريّ ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحو، يقال: ضحي الرجل يضحى ضحواً: إذا برز للشمس فأصابه حرّها، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش وتعب الكدّ في تحصيله، ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي تحصيل الشبع والريّ والكسوة والكنّ، وما عدا هذه فضلات يمكن البقاء بدونها، وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجته من الجنة إلى الدنيا فيحلّ به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعري والظمأ والضحو. فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا، كما قاله كثير من المفسرين، لا شقاء الأخرى^(١).

قال الرازي: «واعلم أن واقعة آدم عجيبة؛ وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله: ﴿فَلَا يَخْرُجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝» ورغبه إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ۝﴾، وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ۝﴾ فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه، إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها.

ثم إن آدم ﷺ مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة - والمقصود الواحد - قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له، وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي. ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه، وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة، فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره^(٢).

(١) فتح القدير (٣/ ٥٥٠-٥٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٢٧).

قال القرطبي في معرض كلامه على ذنوب الأنبياء: «وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم وتنصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك أحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهم -صلوات الله وسلامه عليهم- وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبته، بل قد تلافاهم، واجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه»^(١).

قال الشنقيطي: «الذي يظهر لنا أنه الصواب في هذه المسألة: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يقع منهم ما يزري بمراتبهم العلية، ومناصبهم السامية. ولا يستوجب خطأ منهم ولا نقصاً فيهم صلوات الله وسلامه عليهم، ولو فرضنا أنه وقع منهم بعض الذنوب؛ لأنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة، والإخلاص، وصدق الإنابة إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلى درجاتهم، فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئاً من ذلك. ومما يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾. فانظر أي أثر يبقى للعضيان والغى بعد توبة الله عليه، واجتباؤه أي اصطفائه إياه، وهدايته له، ولا شك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة. والعلم عند الله تعالى»^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَا يَأْتِيْنَكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنْ اَتَّبَعَ هُدَاىْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقٰى ۝۲۳۱ وَمَنْ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِىْ فَاِنَّ لَهٗ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهٗ يَوْمَ الْقِيَمَةِ اَعْمٰى ۝۲۳۲ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىْ اَعْمٰى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا ۝۲۳۳﴾ قَالَ كَذٰلِكَ اُنْتَكٰ ءَايٰتُنَا فَتَسِيْنَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ نُنْسٰى ﴿۲۳۴﴾

★ غريب الآية:

ضَنْكًا: الضنك: الضيق والشدة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَاِمَا يَأْتِيْنَكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنْ اَتَّبَعَ هُدَاىْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقٰى﴾».

الظاهر أن الخطاب لبني آدم. أي: فإن يأتكم مني هدى أي: رسول أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، فمن اتبع منكم هداي أي: من آمن برسلي وصدق بكتبي، وامثل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه على السنة رسلي. فإنه لا يضل في الدنيا، أي لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعروة الوثقى، ولا يشقى في الآخرة لأنه كان في الدنيا عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى وطاعة رسله. وهذا المعنى المذكور هنا ذكر في غير هذا الموضع. كقوله في البقرة ﴿فَاِمَا يَأْتِيْنَكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) ونحو ذلك من الآيات. وفي هذه الآيات دليل على أن الله بعد أن أخرج أبونا من الجنة لا يرد إليها أحداً منا إلا بعد الابتلاء والامتحان بالتكاليف من الأوامر والنواهي، ثم يطيع الله فيما ابتلاه به^(٢).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٢٥).

(١) البقرة: الآية (٣٨).

وبين في مواضع آخر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر الله فاطاعوه تعالى: أن عيشهم يصير واسعاً رغداً لا ضنكاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْبَلُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥)، وكقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٦﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٧﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٨﴾﴾^(٦)، وقوله تعالى عن هود: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿وَأَلِّوْا أَسْقُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٣﴾ لِنَبَيِّتَهُمْ فِيهِ﴾^(٨)، إلى غير ذلك من الآيات.

(٨) الجبر: الآيتان (١٦-١٧).

وعن الحسن أن المعيشة الضنك : هي طعام الضريع والزقوم يوم القيامة وذلك المذكور في آيات من كتاب الله تعالى ، كقوله : ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝١﴾ (١) ، وقوله : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقْوَمِ ۝١٦ طَعَامٌ لِّالَّذِينَ ۝١٧﴾ (٢) ، الآية ونحو ذلك من الآيات . وعن عكرمة والضحاك ومالك بن دينار : المعيشة الضنك : الكسب الحرام ، والعمل السيئ . وعن أبي سعيد الخدري وعبدالله بن مسعود وأبي هريرة : المعيشة الضنك : عذاب القبر وضغطته . وقد أشار تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝٣٧﴾ (٣) .

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له - : قد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة : أن المعيشة الضنك في الآية : عذاب القبر . وبعض طرقه بإسناد جيد كما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية . ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا . وطعام الضريع والزقوم . فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والبرزخ والآخرة ، والعياذ بالله تعالى (٤) .

وقال : «قوله تعالى : ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ؛ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة : أن من أعرض عن ذكره يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى . قال مجاهد وأبو صالح والسدي : أعمى أي لا حجة له . وقال عكرمة : عمي عليه كل شيء إلا جهنم . وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول . وقد ذكرنا أمثلة متعددة لذلك . فإذا علمت ذلك فاعلم : أن في هذه الآية الكريمة قرينة دالة على خلاف قول مجاهد وأبي صالح والسدي وعكرمة . وأن المراد بقوله : ﴿أَعْمَى﴾ أي : أعمى البصر لا يرى شيئاً . والقرينة المذكورة هي قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝١١٥﴾ فصريح بأن عماه هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين ، لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله ، وقد زاد - جل وعلا - في سورة بني إسرائيل أنه مع ذلك العمى يحشر أصم أبكم أيضاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ

(٢) الدخان : الآيتان (٤٣-٤٤) .

(٤) أضواء البيان (١٢٦/٤-١٢٧) .

(١) الغاشية : الآية (٦) .

(٣) إبراهيم : الآية (٢٧) .

يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَكُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَإِنَّكُمْ لَفِي جَهَنَّمَ كَلَمًا خَبَتْ زِدْتُهُمْ سَعِيرًا ﴿١٢٣﴾ (١)، (٢).

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذ آدم وبنوه الشيطان عدوا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبا، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى، بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣)، «اتباع الهدى، بتصديق الخبر، وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: فإن جزاءه، أن نجعل معيسته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابا.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر. والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُلُومُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ (٤) الآية. والثالثة قوله: ﴿مِنْ الْعَذَابِ الَّتِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ (٥) والرابعة قوله عن آل فرعون: ﴿الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَلَيْهَا غَُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (٦) الآية.

والذي أوجب لمن فسرهما بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - واللّه أعلم - آخر الآية، وأن اللّه ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة. وبعض

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٢٧-١٢٨).

(٤) الأنعام: الآية (٩٣).

(٦) غافر: الآية (٤٦).

(١) الإسراء: الآية (٩٧).

(٣) البقرة: الآية (٣٨).

(٥) السجدة: الآية (٢١).

المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها. ﴿وَتَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكَآ وَصُمَآ﴾^(١).

قال على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بَصِيرًا﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة. ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَكْبَرُ أَبْنَاتًا فَنَسِينَهَا﴾ بإعراضك عنها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِيْكَ﴾ أي: تترك في العذاب، فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب»^(٢).

قال ابن كثير: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداة ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلالة، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات عذاب القبر

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «عذاب القبر»^(٤).

(١) الإسراء: الآية (٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣١٦/٥).

(٣) أخرجه: البزار كما في تفسير ابن كثير (٣١٧/٥)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» حديث (٦٩)، (٧٠)، والحاكم (٣٨١/١)، وابن حبان (الإحسان ٣٨٨-٣٨٩/٧)، وقال ابن كثير في التفسير (٣١٧/٥): «إسناده جيد». وفي الباب عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً أخرجه: البيهقي في «إثبات عذاب القبر» حديث (٧١)، والحاكم (٣٨١/٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره.

فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تتوارى عند سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر. فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه، وفي البرزخ ويوم معاده ولا تفر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا باللهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل.

فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تفر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١)، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة» (٢).

* * *

(١) النحل: الآية (٩٧).

(٢) الجواب الكافي (ص: ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ ﴿٢٢٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يجازي المفسرفين ذلك الجزاء المذكور. وقد دلّ مسلك الإيماء والتنبيه على أن ذلك الجزاء لعله إسرافهم على أنفسهم في الطغيان والمعاصي، وبين في غير هذا الموضع أن جزاء الإسراف النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^(١)، وبين في موضع آخر: أن محل ذلك إذا لم يُنبِئوا إلى الله ويتوبوا إليه، وذلك في قوله: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٢)، إلى قوله: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن عذاب الآخرة أشد وأبقى. أي: أشد ألمًا وأدوم من عذاب الدنيا، ومن المعيشة الضنك التي هي عذاب القبر. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٦)، إلى غير ذلك من الآيات^(٧).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: وهكذا نجزي، أي نثيب من أسرف فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ كما قد بينا

(٢) الزمر: الآية (٥٣).

(٤) الرعد: الآية (٣٤).

(٦) القلم: الآية (٣٣).

(١) غافر: الآية (٤٣).

(٣) الزمر: الآية (٥٤).

(٥) فصلت: الآية (١٦).

(٧) أضواء البيان (٤/ ١٢٩-١٣٠).

قبل، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ يقول -جل ثناؤه-: ولعذاب في الآخرة أشدّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى، يقول: وأدوم منها، لأنه إلى غير أمد ولا نهاية^(١).

قال السعدي: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: هذا الجزاء ﴿يَجْزَى﴾ به ﴿مَنْ أَشْرَفَ﴾ بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِتَائِبَتِ رَبِّهِ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة ﴿وَأَبْقَى﴾ لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة

* عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال للملأعِن: . . وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة^(٣).

* فوائد الحديث:

قال ابن تيمية: «قد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة، ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَنْقُورُ إِلَىٰ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿يَمِثِلْ دَأْبُ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَنَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ ﴿وَيَنْقُورُ إِلَىٰ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ﴾^(٥)، وقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٨٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٩-٢٠٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩)، ومسلم (٢/ ١١٣٠-١١٣١/ ١٤٩٣)، والترمذي (٣/ ٥٠٦-٥٠٧/ ١٢٠٢)،

والنسائي (٦/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٣٤٧٣).

(٤) غافر: الآيات (٣٠-٣٣).

(٥) القلم: الآية (٣٣).

ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ^(١)، وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢) وقال: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٣) إلى قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾^(٤)، ولهذا يذكر الله في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا، وما أعد له في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط، إذ عذاب الآخرة أعظم، وثوابها أعظم، وهي دار القرار^(٥).

قلت: رحم الله ابن تيمية على هذا البيان العظيم الذي فيه واقع عذاب الآخرة، وأنه هو العذاب، فمهما وقع في الدنيا من مكابدة ومشقة وعناء وتعب، ومهما طبق على الإنسان من الحدود؛ فحذِّ إما بالجلد، وإما بالرجم، وإما بالقتل؛ فإنه بالمقارنة مع عذاب الآخرة سهل ويسير. فنرجو الله أن يقينا العذابين الدنيوي والأخروي، وأن يعافينا منهما، فإننا ضعفاء مستغيثون به، محتاجون إلى عفوه ولطفه ورحمته، ومستعيذون به من عذابه وأليم عقابه.

* * *

(١) التوبة: الآية (١٠١).

(٢) السجدة: الآية (٢١).

(٣) الدخان: الآيات (١٠-١٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣٩/٢٨).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ ﴿١٢٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم..»

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذبة رسلها قبلهم، وحلول مثلاتنا بهم لكفرهم بالله ﴿لَآيَاتٍ﴾ يقول: لدلالات وعبرا وعظات ﴿لِّأُولِي النُّهَى﴾ يعني: لأهل الحجى والعقول، ومن ينهاه عقله وفهمه ودينه عن مواجهة ما يضره^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢)، وقال في سورة ألم السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^(٣) ﴿١٢٨﴾^(٤).

(١) الحج: الآية (٤٦).

(١) جامع البيان (١٦/٢٣١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/٣١٨).

(٣) السجدة: الآية (٢٦).

قال السعدي: «أي: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟

فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾^(١)، لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيرا من أولئك حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم؛ بل هم شر منهم؛ لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة، وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون إن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم، ويطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهى، أي العقول السليمة والفطر المستقيمة والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي»^(٢).

* * *

(١) القمر: الآيتان (٤٣-٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٠٠-٢٠١).

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿١٢٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير : «أي : لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة»^(١).

قال السعدي : «هذه تسلية للرسول ، وتصيير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين ، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم ، ولزومه لهم ؛ لأن الله جعل العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب ، ملازمًا لها ، وهؤلاء قد أتوا بالسبب ، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم ، وضرب الأجل المسمى ، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله ، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها ، ولعلمهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم ، ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحقق عليهم الكلمة»^(٢).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣١٨/٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٠١/٥).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَثْنَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ ﴿١٣٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر. وقوله: ﴿وَمِنْ أَثْنَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: من ساعاته فتعبد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾.

قال السعدي: «أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، ولعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر» ﴿٣﴾.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل صلاتي الصبح والعصر

ورضى الله ﷻ عن عباده المؤمنين

* عن عمارة بن ربيعة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»، يعني الفجر والعصر. فقال له رجل من أهل البصرة: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال الرجل: وأنا أشهد أني سمعته من رسول الله ﷺ سمعته أذناي ووعاه قلبي ﴿٤﴾.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣١٨-٣١٩).

(١) الضحي: الآية (٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٠١-٢٠٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/١٣٦)، ومسلم (١/٤٤٠/٦٣٤)، وأبو داود (١/٢٩٧/٤٢٧)، والنسائي (١/٢٥٤).

* فوائد الحديث:

قوله: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»: «يعني: الفجر والعصر. أي: لن يدخل النار من عاهد وحافظ على هاتين الصلاتين ببركة المداومة عليهما، واللّه أعلم»^(١).

* عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «من صلى البردين دخل الجنة»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال الخطابي: «يريد بالبردين: صلاتي الفجر والعصر، وذلك لأنهما تصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سورة الحر»^(٣).

قال الحافظ: «قال البزار في توجيه اختصاص هاتين الصلاتين بدخول الجنة دون غيرهما من الصلوات ما محصله: إن من موصولة لا شرطية، والمراد الذين صلوهما أول ما فرضت الصلاة ثم ماتوا قبل فرض الصلوات الخمس، لأنها فرضت أولاً ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، ثم فرضت الصلوات الخمس، فهو خبر عن ناس مخصوصين لا عموم فيه. قلت: ولا يخفى ما فيه من التكلف، والأوجه أن (من) في الحديث شرطية. وقوله: (دخل) جواب الشرط، وعدل عن الأصل وهو فعل المضارع كأن يقول يدخل الجنة إرادة للتأكيد في وقوعه بجعل ما سيقع كالواقع»^(٤).

* عن جرير بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون - أو لا تضاهون - في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾»^(٥).

(١) المفهم (٢/٢٦٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٨٠). والبخاري (٢/٦٦/٥٧٤)، ومسلم (١/٤٤٠/٦٣٥).

(٣) أعلام الحديث (١/٤٤٨).

(٤) الفتح (٢/٦٧).

(٥) طه: الآية (١٣٠).

(٦) أخرجه البخاري (٢/٦٦/٥٧٣) ومسلم (١/٤٣٩/٦٣٣). وأبو داود (٥/٩٧-٩٨/٤٧٢٩). وابن ماجه (١/

١٧٧/٦٣). والنسائي في الكبرى (٤/٤١٩/٧٧٦٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «في حديث جرير فضل المبادرة والمحافظة على صلاة الصبح والعصر وأن بذلك تنال رؤية الله تعالى يوم القيامة، وإنما خصنا بالذكر والتأكيد لفضلهما باجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار فيها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١)»^(٢).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله -تبارك وتعالى- يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم نعط أحدا من خلقك. فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «رضواني» بكسر أوله وضمه، وفي حديث جابر قال «رضواني أكبر» وفيه تلميح بقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٤) لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة، وكل من علم أن سيده راض عنه كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم. وفي هذا الحديث أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة لا مزيد عليه»^(٥).

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن فضل نعيم الآخرة دوام رضى المولى سبحانه عن عبيده المؤمنين أهل دار كرامته»^(٦).

وقال: «وفيه دليل على أن الخير كله إنما هو في رضى المولى ﷻ، وأن دونه من النعيم على اختلاف أنواعه في كلا الدارين إنما هو من أثر ذلك الخير، وهو النعيم الحقيقي»^(٧).

(٢) شرح البخاري (٢/١٩٩).

(١) الإسراء: الآية (٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٨٨) والبخاري (١١/٥٠٦-٥٠٧/٦٥٤٩) ومسلم (٤/٢١٧٦/٢٨٢٩) والترمذي (٤/٢١٧٦/٢٨٢٩).

(٥) ٥٩٥/٢٥٥٥ والنسائي في الكبرى (٤/٤١٦/٧٧٤٩).

(٥) فتح الباري (١١/٥١٥).

(٤) التوبة: الآية (٧٢).

(٦) بهجة النفوس (٤/٢٨٨).

(٧) بهجة النفوس (٤/٢٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٣١﴾

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ولا تنظر إلى ما جعلنا لضرباء هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم وأشكالهم، متعة في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها، من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ يقول: لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك، ونبتليهم، فإن ذلك فاني زائل، وغرور وخدع تضمحل، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي وعدك أن يرزقك في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه ﴿خَيْرٌ﴾ لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ يقول: وأدوم؛ لأنه لا انقطاع له ولا نفاذ»^(١).

قال السعدي: «أي: لا تمد عينيك معجبا، ولا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها -بقطع النظر عن الآخرة- القوم الظالمون، ثم تذهب سريعا، وتمضي جميعا، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم القيامة، وإنما جعلها الله فتنه واختبارا، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾^(٢)، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجا في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لكونه

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٣٥).

(٢) الكهف: الآية (٧-٨).

لا ينقطع، أكلها دائم وظلها كما قال تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ ﴿١٧﴾ وَأَبْقَى ﴿١٨﴾﴾^(١).

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحا إلى زينة الدنيا وإقبالاً عليها أن يذكر ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا^(٢).

قال الرازي: «في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وجهان: أحدهما: المراد منه نظر العين، وهؤلاء قالوا: مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه إعجاباً به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٣) حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بقولهم: ﴿وَيَلَيْكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(٤)، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك كما إذا نظر الإنسان إلى شيء مرة ثم غص، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطباع قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له. ولقد شدد المتقون في وجوب غص البصر عن أبنية الظلمة وعُدَد الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك؛ لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمقوي لهم على اتخاذها. القول الثاني: قال أبو مسلم: الذي نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ليس هو النظر، بل هو الأسف، أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الدنيا والتسابق إلى زهرتها

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض»، قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا» فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه. فقال: «أين السائل؟» قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك. قال: «لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً، أو يلم، إلا أكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت الشمس فاجترت وثلثت وبالت ثم عادت

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٢).

(٤) القصص: الآية (٨٠).

(١) الأعلى: الآيتان (١٦-١٧).

(٣) القصص: الآية (٧٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٣٦).

فأكلت، وإن هذا المال حلوة، من أخذه بحقه، ووضع في حقه، فنعم المعونة هو. ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»^(١).

★ غريب الحديث:

زهرة الدنيا: بفتح الزاي وسكون الهاء أي الزينة والبهجة.

حَبَطًا: بفتح المهملة والموحدة والطاء المهملة، والحبط انتفاخ البطن من كثرة الأكل.

يُلِمُّ: بضم أوله أي يقرب من الهلاك.

أكلة الخضر: بالمد وكسر الكاف، والخضر بفتح الخاء وكسر الضاد هو ضرب من الكلا يعجب الماشية.

اجترت: أي استرفعت ما أدخلته في كرشها من العلف فأعادت مضغه.

ثَلَّطت: أي ألقت ما في بطنها رقيقا.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: «ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا، فقال رجل: يا رسول الله أيأتي الخير بالشر؟ فقال له رسول الله ﷺ: إن الخير لا يأتي إلا بخير أو خير هو» فمعناه: أنه ﷺ حذرهم من زهرة الدنيا وخاف عليهم منها، فقال هذا الرجل: إنما يحصل ذلك لنا من جهة مباحة كغنيمة وغيرها، وذلك خير، وهل يأتي الخير بالشر؟ وهو استفهام إنكار واستبعاد، أي يبعد أن يكون الشيء خيرا ثم يترتب عليه شر، فقال له النبي ﷺ: أما الخير الحقيقي فلا يأتي إلا بخير، أي لا يترتب عليه إلا خير، ثم قال: «أو خير هو» معناه: أن هذا الذي يحصل لكم من زهرة الدنيا ليس بخير، وإنما هو فتنة، وتقديره: الخير لا يأتي إلا بخير، ولكن ليست هذه الزهرة بخير لما تؤدي إليه من الفتنة والمنافسة والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة، ثم ضرب لذلك مثلا فقال ﷺ: «إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا أكلة الخضر... إلى آخره»

(١) أخرجه أحمد (٩١/٣) والبخاري (٦٤٢٧/٢٩٣/١١) ومسلم (١٠٥٢/٧٢٧/٢) والنسائي (٩٤/٥-٩٥/٩٥).

ومعناه: أن نبات الربيع وخضره يقتل حبطا بالتخمة لكثرة الأكل، أو يقارب القتل إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصدة فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم من يستكثر منه ويستغرق فيه غير صارف له في وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب إهلاكه، ومنهم من يقتصد فيه فلا يأخذ إلا يسيرا، وإن أخذ كثيرا فرقه في وجوهه كما تثلطه الدابة فهذا لا يضره^(١).

قال ابن بطال: «هذه الأحاديث تنبيه في أن زهرة الدنيا ينبغي أن يخشى سوء عاقبتها وشر فتنها من فتح الله عليه الدنيا، ويحذر التنافس فيها والطمأنينة إلى زخرفها الفاني؛ لأن النبي ﷺ خشي ذلك على أمته، وحذرهم منه لعلمه أن الفتنة مقرونة بالغنى^(٢)».

وقال: «.. فهذا كله يدل أن الغنى بلية وفتنة، ولذلك استعاذ النبي ﷺ من شر فتنه، وقد أخبر الله تعالى بهذا المعنى فقال لرسوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٤)، ولهذا أثر أكثر سلف الأمة التقلل من الدنيا وأخذ البلغة؛ إذ التعرض للفتن غرر^(٥)».

وقال النووي: «فيه التحذير من الاغترار بالدنيا والنظر إليها والمفاخرة بها^(٦)».

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في حديث طويل وفي آخره: «.. وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وإن عند رجله قرظا مصبورا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك. فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة^(٧)».

(١) شرح مسلم (١٢٧/٧-١٢٨).

(٢) التغبين: الآية (١٥).

(٣) شرح صحيح البخاري (١٥٦/١٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٣٣-٣٤)، والبخاري (٨٤٨-٨٤٩/٨)، ومسلم (١١٠٨-١١١٠/٢).

(٥) أخرجه: الترمذي (٣٩١-٣٩٤/٥)، والنسائي (٤٤٣-٤٤٤/٤)، مختصرا دون ذكر

موضع الشاهد، وابن ماجه (١٣٩٠-١٣٩١/٢).

★ غريب الحديث:

من آدم: أي من جلد.

ليف: هو ما يخرج من أصول سعف النخل.

قَرْطًا مَضْبُورًا: أي مجموعا غير منتشر وإن كان في غير وعاء.

أُهْب: جمع إهاب وهو الجلد قبل الدباغ.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال الطبري: وفيه الإبانة عن أن كل لذة وشهوة قضاه المرء في الدنيا فيما له مندوحة عنها؛ فهو استعجال بذلك من نعيم الآخرة الذي لو لم يستعجله في الدنيا كان مدخورا له في الآخرة، وذلك لقوله ﷺ لعمر: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» فأخبر أن ما أوتيهم فارس والروم من نعيم الدنيا تعجيل من الله لهم نظير ما دخر لأهل ولايته عنده؛ فكره لأمته أن تؤتى مثل ما أوتي فارس والروم على سبيل التلذذ والتنعم»^(١).

وقال النووي: «وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من التقليل من الدنيا والزهادة فيها»^(٢).

قال الحافظ: «فيه إيثار القناعة وعدم الالتفات إلى ما خص به الغير من أمور الدنيا الفانية»^(٣).

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه: أنه ليس التوسع من الدنيا دليلا على رضا الله ﷻ إلا في المؤمنين خاصة، لقول عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يوسع على أمتك؛ فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله».

وفي هذا الحديث: «أنه إذا خطر على قلب المؤمن أن ما في يد مثل كسرى وفارس والروم من الدنيا دليل خير لهم أن ينكر عليه ذلك، ألا ترى أن رسول الله ﷺ استوى جالسا وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم

(١) شرح البخاري (٣١٣/٧-٣١٤).

(٢) شرح مسلم (٧٩/١٠).

(٣) فتح الباري (٣٦٦/٩).

طبيباتهم في الحياة الدنيا» حتى فزع عمر إلى الاستغفار بقوله: «يا رسول الله استغفر لي»^(١).

* * *

(١) الإنصاح (١/١٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿١٣٢﴾

★ غريب الآية:

اصْطَبِرْ: أي تحمل الصبر بجهدك.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ﴾ يا محمد ﴿أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ يقول: لا نسألك مالا، بل نكلفك عملا ببدنك، نؤتيك عليه أجرا عظيما وثوابا جزيلا: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يقول: نحن نعطيك المال ونكسبك، ولا نسألك، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ يقول: والعاقبة الصالحة من عمل كل عامل لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقابا، ولا يرجو له ثوابا»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾»^(٢).

وقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۚ﴾^(٤) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾، ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وقال الشوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك الطلب..

(٢) التحريم: الآية (٦).

(١) جامع البيان (١٦/٢٣٦).

(٣) الطلاق: الآيات (٢-٣).

(٤) الذاريات: الآيات (٥٦-٥٨).

﴿وَالْمَعْبُتَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله^(١).

قال السعدي: «أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمرا بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائما، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال: ﴿تَحْنُ رِزْقُكَ﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْمَعْبُتَةُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَى﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَعْبُتَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(٢) (٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا دخل عليه بعض الضيق في الرزق أمر أهله بالصلاة ثم قرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الآية^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال محمد بن نصر المروزي رحمه الله: «ولقد ذكر أن النبي ﷺ، كان إذا رأى بأهله شدة، أو ضيقا أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١/ ٤٨٧/ ٨٩٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٧): «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات». وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٧٦).

نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴿١٣٢﴾ الآية .

وأمر الله عباده أن يأتوا بمحمد ﷺ، وأمرهم محمد إذا رأوا الآيات التي يخافون فيها العذاب أن يفزعوا إلى الصلاة، فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، فإذا انكسفت، فافزعوا إلى الصلاة^(١)، وفزع هو إلى الصلاة، ولا نعلم طاعة يدفع الله بها العذاب مثل الصلاة، فصلى عند الكسوف، بزيادة في الركوع، وبكى في سجوده وتضرع^(٢).

* عن أسلم أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: «الصلاة الصلاة» ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلنَّفَّاثِ﴾^(٣).

* فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «فيه ما كان عليه عمر من قيام الليل وأنه لم تشغله أمور المسلمين وما كان إليه منهم عن الصلاة بالليل، وذلك لفضل صلاة الليل. وفيه أنه لم يكن يكلف أهله من الصلاة ما كان هو يفعله منها بالليل. ويحتمل أن يكون إيقاظه أهله ليدركوا شيئاً من صلاة الأسحار والاستغفار فيها.

ويحتمل أن يكون إيقاظه لهم للصلاة المفروضة صلاة الصبح، وأبها كان فإنه امتثل في ذلك الآية التي ذكر مالك وامتثل أيضاً والله أعلم، قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٤).

قال أهل العلم بتأويل القرآن ومعانيه: أدبهم وعلموهم^(٥).

* عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت

(١) أخرجه أحمد (٧٦/٦) والبخاري (١٠٤٦/٦٧٨) ومسلم (٩٠١/٦١٨) وأبو داود (٦٩٧/١) وابن ماجه (١٢٦٣/٤٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/٢٣٠).

(٣) أخرجه: مالك (١/١١٩)، وعبد الرزاق (٤٧٤٣/٤٩/٣).

(٤) الاستذكار (٥/٢١٦).

(٥) التحريم: الآية (٦).

الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعة الله، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب، فلا بد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله؛ فلا بد أن تضره محبته، ويعذب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤٠﴾ يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَتَكَوَّىٰ بَهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ تَذَوِّقُونَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْبُدْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٣).

والتفسير المختار لهذه الآية أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهدته على تحصيلها، والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب»^(٤).

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا، ولم أسد فقرك»^(٥).

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/١٣٧٥/٤١٠٥)، وقال البوصيري: إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٢) التوبة: الآيتان (٣٤-٣٥).

(٣) التوبة: الآية (٥٥).

(٤) إغاثة اللهفان (٨١-٨٢ موارد الظمان).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/٣٥٨)، والترمذي (٤/٥٥٤/٢٤٦٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه (٢/١٣٧٦).

(١٣٧٦/٤١٠٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/١١٩/٣٩٣)، والحاكم (٢/٤٤٣) ووافقه الذهبي. إلا أن الحديث سنده ضعيف من أجل زائد بن شيط لم يوثقه غير ابن حبان وقال عنه الحافظ مقبول. وللحديث شاهد قوي من حديث معقل بن يسار أخرجه الحاكم (٤/٣٢٦)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر الصحيحة (١٣٥٩).

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «من أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل، وتفريق القلب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

وفي الترمذي أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «يقول الله -تبارك وتعالى-: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلًا، ولم أسد فقرك».

وهذا أيضًا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا، ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم؛ كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا؛ فليوطن نفسه على تحمل المصائب».

ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هم لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي. وذلك أن محبتها لا ينال منها شيئًا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه»^(١).

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»^(٢).

★ غريب الحديث:

ابن طاب: هو نوع من الرطب معروف، وهو مضاف إلى ابن طاب، رجل من أهل المدينة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن تيمية: «إن أكثر بني آدم قد يفعل بعض المأمور به، ولا يترك المنهي عنه إلا الصديقون، كما قال سهل، لأن المأمور به له مقتضى في النفس، وأما ترك المنهي عنه إلى خلاف الهوى، ومجاهدة النفس، فهو أصعب وأشق، فقل أهلله،

(١) إغاثة اللهفان (٨٣-٨٤ موارد الظمان).

(٢) أخرجه: أحمد (٢١٣/٣)، ومسلم (١٧٧٩/٤)، وأبو داود (٢٨٦/٥)، والنسائي في الكبرى (٧٦٤٤/٣٨٨/٤).

ولا يمكن أحدا أن يفعله إلا مع فعل المأمور به، لا تتصور تقوى وهي فعل ترك قط، فإن من ترك الشرك واتباع الهوى المضل، واتباع الشهوات المحرمات، فلا بد أن يفعل من المأمور به أمورا كثيرة تصده عن ذلك. فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التي أمروا بها، وتمنعهم من السيئات التي تضرهم، بخلاف من فعل ما أمر به وما نهى عنه مثلا، فإن وجود المنهي عنه يفسد عليه من المأمور به ما يفسد، فلا يسلم له، ولهذا كانت العاقبة للتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَنْبِقَةُ لِلتَّقْوَى﴾، ﴿وَالْمَنْبِقَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١)، ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾^(٢).

وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع، واتقى الأطعمة المؤذية، فصح جسمه، وكانت عاقبته سليمة، وغير المتقي بمنزلة من خلط من الأطعمة، فإنه وإن اغتذى بها، لكن تلك التخاليل قد تورثه أمراضا إما مؤذية وإما مهلكة.

ومع هذا فلا يقول عاقل إن حاجته وانتفاعه بترك المضر من الأغذية أكثر من حاجته وانتفاعه بالأغذية النافعة، بل حاجته وانتفاعه بالأغذية التي تناولها أعظم من انتفاعه بما تركه منها، بحيث لو لم يتناول غذاء قط لهلك قطعاً. وأما إذا تناول النافع والضار، فقد يرجى له السلامة، وقد يخاف عليه العطب، وإذا تناول النافع دون الضار حصلت له الصحة والسلامة.

فالأول نظير من ترك المأمور به، والثاني نظير من فعل المأمور به والمنهي عنه، وهو المخلط الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا. والثالث نظير المتقي الذي فعل ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، فعظم أمر التقوى لتضمنها السلامة مع الكرامة لا لأجل السلامة فقط، فإنه ليس في الآخرة دارا إلا الجنة أو النار، فمن سلم من النار دخل الجنة، ومن لم ينعم عذب، فليس في الآدميين من يسلم من العذاب والنعيم جميعا، فتدبر هذا فكل خصلة قد أمر الله بها أو أثنى عليها، ففيها فعل المأمور به ولا بد، تضمننا أو استلزاما، وحمدنا لنيل الخير عن الشر والثواب عن العقاب^(٣).

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣٦/٢٠-١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿١٣٣﴾

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا يأتينا محمد ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أُمِّي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِندَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (١)، (٢).

قال السعدي: «أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٥٦﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن تَحْتِهَا نَاقُتَاتُ الْوِجَارِ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَنَاتٌ يَّرْكَبْنَ فِي السَّحَابِ ﴿٥٨﴾ أَوْ تُفْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَ كِلَابِهَا ﴿٥٩﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُفَّتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَهُةٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٦٠﴾﴾ (٣).

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم فإنهم هم والرسول بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله.

ولأن قولهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ﴾ يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه

(١) العنكبوت: الآيات (٥٠-٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٢).

ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة المطابق لها المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضًا مذكور فيها ومبشر بالرسول بها. وهذا كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) ﴿١١﴾ فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها فلا يؤمنون بها ولا ينتفعون بها ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٧) ﴿٢﴾ (٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن القرآن أعظم آيات النبوة لشموليته وبقائه، ولما حواه من علم وتشريع

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (٤).

★ فوائد الحديث:

قلت: تقدم الكلام على هذا الحديث مستوفى عند قوله تعالى من سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٥) الآية فالحمد لله على منه وتوفيقه وإحسانه.

(٢) يونس: الآيات (٩٦-٩٧).

(١) العنكبوت: الآية (٥١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤١)، والبخاري (٩/ ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١١٢٩/ ٣٣٠).

(٥) يونس: الآية (٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۖ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ۚ فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۚ﴾

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا﴾. أمر الله -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار الذين يقترحون عليه الآيات عنادًا وتعنتًا: كل منا ومنكم متربِّص، أي: منتظر ما يحلّ بالآخر من الدوائر كالموت والغلبة. وقد أوضح في غير هذا الموضع أن ما ينتظره النبي ﷺ وأصحابه والمسلمون كله خير، بعكس ما ينتظره ويتربص الكفار. كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾^(١)، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَسْجُدُ مَا يُفْقِئُ مَقَرَّمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۝٥٣﴾^(٢)، إلى غير ذلك من الآيات. والتربص: الانتظار.

قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الكفار سيعلمون في ثاني حال من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى. أي: وفق لطريق الصواب والديمومة على ذلك. وأمر نبيه أن يقول ذلك للكفار. والمعنى: سيتضح لكم أنا مهتدون، وأنا على صراط مستقيم، وأنكم على ضلال وباطل. وهذا يظهر لهم يوم القيامة إذا عاينوا الحقيقة، ويظهر لهم في الدنيا لما يرونه من نصر الله لنبيه ﷺ.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا بيّنه في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَصْلُ سَبِيلَا ۝٥٤﴾^(٣)، وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَن الْكَذَابُ الْآخِرُ ۝٥٥﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ۝٥٦﴾^(٥) إلى غير ذلك من الآيات^(٦).

(١) التوبة: الآية (٥٢).

(٢) الفرقان: الآية (٤٢).

(٣) التوبة: الآية (٩٨).

(٤) القمر: الآية (٢٦).

(٥) ص: الآية (٨٨).

(٦) أضواء البيان (٤/ ١٣١-١٣٢).

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم ، ومن قبل أن نبعث داعيا يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعداذب ننزله بهم بكفرهم بالله ، ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة إذ وردوا علينا فأردنا عقابهم : ﴿رَبَّنَا﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا إلى طاعتك ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ يقول : ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ حجتك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ﴾ بتعذيبك إيانا ﴿وَنُخْرِجَ﴾ به ..

﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ ، يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يا محمد كلکم أيها المشركون بالله ﴿مُتَرَبِّصِينَ﴾ يقول : منتظر لمن يكون الفلاح وإلى ما يؤول أمري وأمركم متوقف ينتظر دوائر الزمان ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يقول : فترقبوا وانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ﴾ أهل الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ؛ أنحن أم أنتم ؟ ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ يقول : وستعلمون حينئذ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم^(١).

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي لو أننا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم ، لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ، كما قال: ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنُخْرِجَ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢) ، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ﴾^(٤) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾^(٥) ﴿وَقَالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِمْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا

(١) جامع البيان (١٦/٢٣٨).

(٢) يونس: الآية (٩٧).

(٣) الأنعام: الآيات (١٥٥-١٥٧).

زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوًا^(١)، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٤﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَهُمْ وَابْنَعُهُمْ كَمَا نَزَّلُ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(٢)﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لمن كذبتك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلُّ مُتَرَيِّسٍ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الضُّرْطِ السَّوِيِّ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿وَمَنْ أَهْتَلَى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ لَئِنْ يَرَوْا الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا^(٣)﴾، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ^(٤)﴾،^(٥).

* * *

(١) فاطر: الآية (٤٢).

(٢) الأنعام: الآيتان (١٠٩-١١٠).

(٣) الفرقان: الآية (٤٢).

(٤) القمر: الآية (٢٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة الأنبياء

* عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي^(١).

★ غريب الحديث:

العتاق: جمع عتيق، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيق. تلادي: التلاد قديم الملك، أي مما حفظ قديما.

★ فوائد الحديث:

قال البيهقي: «يريد تفضيل هذه السور لما تضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأخبار الأمم. والتلاد ما كان قديماً من المال. يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم»^(٢).

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «الأغراض التي ذكرت في هذه السورة هي:

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٩/٥٥٦/٨).

(٢) شعب الإيمان (٤٧٦/٢).

الإندار بالبعث وتحقيق وقوعه ، وإنه لتحقيق وقوعه كان قريبا .
 وإقامة الحجة عليه بخلق السموات والأرض عن عدم وخلق الموجودات من
 الماء .

والتحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله .
 والتذكير بأن هذا الرسول ﷺ ما هو إلا كأمثاله من الرسل ، وما جاء إلا بمثل ما
 جاء به الرسل من قبله .

وذكر كثير من أخبار الرسل ﷺ .
 والتنبؤ بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين ، وشأن رسول الإسلام
 ﷺ وأنه رحمة للعالمين .

والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم ، وأن وعد الله
 للذين كذبوا واقع ولا يغفرهم تأخيرهم فهو جاء لا محالة .
 وحذرهم من أن يغتروا بتأخيرهم كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة ،
 وذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج .

وذكرهم بما في خلق السموات والأرض من الدلالة على الخالق .
 ومن الإيمان إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزى كل نفس
 بما كسبت وينتصر الحق على الباطل .

ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذا لا يستقيم هذا النظام
 بتعدد الآلهة .

وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد ، والاستدلال على وحدانية الله
 تعالى .

وما يكرهه على فعل ما لا يريد .

وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء .

وأعقب ذلك تذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ .

ثم عطف الكلام إلى ذكر الرسل والأنبياء .

وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد ﷺ وأحوال قومه .

وكيف نصر الله الرسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم .
وأن الرسل كلهم جاءوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطعه الضالون
قطعا .

وأثنى على الرسل وعلى من آمنوا بهم .
وأن العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة ، وأن الله سيحكم بين الفريقين
بالحق ويعين رسله على تبليغ شرعه^(١) .

وزاد المراغي : « خلاصة ما تتضمنه هذه السورة :

- ١- الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها .
- ٢- إنكار المشركين نبوة محمد ﷺ ؛ لأنه بشر مثلهم وأن ما جاء به أضغاث
أحلام ، وأنه قد افتراه ولو كان نبيا حقا لأتى بآية كآيات موسى وعيسى .
- ٣- الرد على هذه الشبهة بأن الأنبياء جميعا كانوا بشرا ، وأهل العلم من اليهود
والنصارى يعلمون ذلك حق العلم .
- ٤- الإخبار بأن الله أهلك كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها وأنشأ بعدهم أقواما
آخرين .

٥- بيان أن السموات والأرض لم تخلقا عبثا ، وأن الملائكة لا يستكبرون عن
عبادته ولا يملون .

٦- إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى والنعي على من يتخذ آلهة من دونه بلا
دليل على صدق ما يقولون مع أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم أنه لا إله إلا هو .

٧- النعي على من ادعى أن الملائكة بنات الله .

٨- وصف النشأة الأولى ببيان أن السموات والأرض كانتا رتقا فانفصلتا ، وأن
الجبال جعلت في الأرض أوتادا حتى لا تميد بأهلها ، وأن كلا من الشمس والقمر
يسبح في فلكه .

٩- استعجال الكافرين للعذاب ، مع أنهم لو علموا كنهه ما طلبوه .

(١) التحرير والتنوير (١٧/٦-٨) .

- ١٠- بيان أن الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.
- ١١- قصص بعض الأنبياء كموسى وهارون وإبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل ويونس وزكريا وقصص مريم.
- ١٢- بيان أن الدين الحق عند الله هو الإسلام وبه جاءت جميع الشرائع، والاختلاف بينها إنما هو في الرسوم بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة.
- ١٣- حادث يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة واقترب يوم القيامة.
- ١٤- بيان أن الأصنام وعابديها يكونون يوم القيامة حطب جهنم، وأنهم لو كانوا آلهة حقاً ما دخلوها.
- ١٥- وصف ما يلاقيه الكفار من الأهوال في النار يوم القيامة.
- ١٦- وصف النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة إذ ذاك.
- ١٧- بيان أن الأرض ستبدل غير الأرض، وأن السماء تطوى طي السجل للكتاب.
- ١٨- الوحي إنما جاء بالتوحيد وأن لا إله إلا إله واحد، وأن الواجب الاستسلام له والانقياد لأمره.
- ١٩- ما ختمت به السورة من طلب الرسول ﷺ أن يحكم الله بينه وبين أعدائه المشركين، وأن الله هو المستعان على ما يصفونه به من أنه مفتر، وأنه مجنون، وأنه شاعر يتربصون به ريب المنون^(١).



(١) تفسير المراغي (١٧/ ٨١-٨٢).

قوله تعالى: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْخَيْرَ الرِّجْمَ﴾
 أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم وأجسامهم ومطاعمهم ومشاربهم وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة وعن دنو محاسبته إياهم منهم، واقترا به لهم في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب جهلاً منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال»^(١).

قال السعدي: «هذا تعجب من حالة الناس، وأنه لا ينجع فيهم تذكير، ولا يرفعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به. كأنهم للدنيا خلقوا، وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم»^(٢).

قال ابن عاشور: «إعراضهم هو إيايتهم التأمل في آيات القرآن التي تذكرهم بالبعث وتستدل لهم عليه، فمتعلق الإعراض غير متعلق الغفلة؛ لأن المعرض عن الشيء لا يعد غافلاً عنه، أي أنهم لما جاءتهم دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان وإنذارهم بيوم القيامة استمروا على غفلتهم عن الحساب بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به. فكانت الغفلة عن الحساب منهم غير مقلوعة من نفوسهم بسبب تعطيلهم

(١) جامع البيان (١٧/١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٠٧).

ما شأنه أن يقلع الغفلة عنهم بإعراضهم عن الدلائل المثبتة للبعث»^(١).

قال المكي الناصري: «يقول تعالى ردا على منكري البعث: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ والمراد باقتراب الحساب اقتراب وقته، ومن أجل هذا الاقتراب ينبغي لعقلاء الناس أن يعدوا العدة ويتأهبوا ليوم الحساب، حتى لا يرجعوا من الغنيمة بالإياب، وبنفس المعنى جاء قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٢) والقرب والبعد أمران نسيان، فقد يكون قرب يوم الحساب بالنسبة إلى علم الله وتقديره على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٣)، وقد يكون قرب يوم الحساب بالنسبة لبقاء العالم على اعتبار أن ما بقي من مدته أقصر مما مضى على حد قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٤) ومهما يكن من أمر فإن كل ما هو آت قريب، وإن طال انتظاره قرونا وأجيالا»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهل الغفلة

* عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: في الدنيا»^(٦).

* فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له وقد ذم سبحانه أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٧) وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾^(٨) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠-١١).

(٣) الحج: الآية (٤٧).

(٢) القمر: الآية (١).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٠) والبخاري (٩/ ٥٤٨/ ٥٣٠١) ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد (٥) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١١١).

(٦) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٧/ ١١٣٣٢). وله شاهد أخرجه: أحمد (٣/ ٩) والبخاري (٨/ ٥٤٧/ ٤٧٣٠) ومسلم (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩) والترمذي (٤/ ٥٩٧/ ٢٥٥٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٣/ ١١٣١٦).

من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «يوتى بالموت كهنة كيش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة.. ثم قرأ ﴿وَأَنْذَرْتُمْ يَوْمَ الْقِسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧).

(٧) الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٨) الكهف: الآية (٢٨).

يَهَىٰ أَوْلِيَّكَ كَالْأَقْمَرِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٧٩﴾^(١)، وقال النبي ﷺ في وصيته لنساء المؤمنين: «لا تغفلن فتنسين الرحمة»^(٢) وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره.

فالقلب الغافل مأوى الشيطان فإنه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوسواس والخيالات الباطلة، فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله فهو دائما بين الوسوسة والخنس»^(٣).



(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٧٠/٦) وأبو داود (١٥٠١/٤٧١/١) والترمذي (٣٥٨٣/٥٧١/٥) وصححه الحاكم (١/

٧٣٢) من حديث حميدة بنت ياسر عن جدتها يسيرة رضي الله عنها.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٣٧٣-٣٧٤).

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ❶ **لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ** ❧

★ غريب الآية:

لا هية : ساهية مشتغلة بما لا يعنيتها .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- : ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس ، ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعوه ، وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم»^(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما أكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا ، فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء ، فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا . وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب ، كما قال: ﴿كَالْمُرْجُونَ الْقَدِيرِ﴾^(٢) وقال: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾^(٣) وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُلُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيرٌ﴾^(٤) وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ﴾ ❷ ❧ وكذلك قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾^(٥) لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه ؛ ولكن قال: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي صيرناه عربيا ؛ لأنه قد كان قادرا على أن ينزله عجميا ، فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي»^(٦) .

(٢) يس : الآية (٣٩) .

(٤) الأحقاف : الآية (١١) .

(٦) الزخرف : الآية (٣) .

(١) جامع البيان (٢/١٧) .

(٣) يوسف : الآية (٩٥) .

(٥) الشعراء : الآيتان (٧٥ و٧٦) .

(٧) مجموع الفتاوى (٥٢٢/١٢) .

قال السعدي: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحزنهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ﴾ سماعاً، تقوم عليهم به الحجة، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ① لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ② أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية، وأبدانهم لآعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل، والأقوال الرديئة، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه، وتستمعه استماعاً، تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم، وتستقيم أحوالهم، وتزكو أعمالهم ③.

قال المكي الناصري: «يقول الله تعالى نعيًا على الغافلين اللاهين: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ① لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ② والمراد بالذكر هنا كتاب الله، ووصفه بالمحدث يصدق بمعنيين اثنين:

المعنى الأول: أن القرآن إنما أنزل منجماً، سورة بعد سورة، وآية بعد آية، فكان نزوله يتجدد من وقت لآخر، ولم ينزل دفعة واحدة كما هو معلوم، على حد قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ ②.

والمعنى الثاني: أن القرآن هو أحدث الكتب الإلهية نزولاً وخاتمتها بالمرة، على حد قول ابن عباس فيما رواه عنه البخاري: «وكتابكم أحدث الكتب بالله، تقرأونه محضاً لم يشب» ③ ④.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سؤال أهل الكتاب

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضاً لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا فكتبوا بأيديهم قالوا: هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمننا قليلاً، أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٠٧-٢٠٨).

(٢) الإمراء: الآية (١٠٦).

(٣) هو حديث الباب.

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٤/١١١).

مساءلتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(١).

★ غريب الحديث:

لم يشب : لم يخالطه غيره .

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال : «سأل بعض علماء النصارى محمد بن وضاح فقال : ما بال كتابكم معشر المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان ، وكتابنا بخلاف ذلك؟ فقال له : لأن الله وكل حفظ كتابكم إليكم فقال : ﴿بِمَا أَسْتَخْفِطُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٢) فما وكله إلى المخلوقين دخله الخرم والنقصان ، وقال في القرآن : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣) فتولى الله حفظه ، فلا سبيل إلى الزيادة فيه ولا إلى النقصان»^(٤).

قال الغنيمان : «يعني أن الله قد أغناكم بما جاءكم به نبيكم ﷺ ، فقد أنزل الله عليه آخر الكتب التي قضى الله تعالى أن تنزل إلى الأرض من عنده ، فهو أحدثها بالله ، وأقربها عهدا به ، وقد وصل إلينا خالصا ليس فيه ما يداخله من غيره ، فكيف بعد ذلك يسوغ للمسلم أن يذهب يسأل اليهود أو النصارى عما في أيديهم من كتبهم .

وقد أعلمنا الله تعالى أنهم حرفوها ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، ثم كذبوا على الناس بأن قالوا : هذا من عند الله ، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى : ﴿قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ لَكُمْ مِمَّا كُتِبَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿وَلَا يَنْهَرُ لَعْنَةً يَلْعَنُ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَمَا هُوَ مِنْ أَكْتَابٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٦) ، وقال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٧) إلى غير ذلك مما ذكره الله تعالى عنهم من الكذب والتزوير ، وتحريف كلام الله عن مواضعه ، وتغييره وتبديله»^(٨).

(١) أخرجه البخاري (١٣/٦٠٧/٧٥٢٣).

(٢) المائدة : الآية (٤٤).

(٣) الحجر : الآية (٩).

(٤) شرح صحيح البخاري (٨/٧٤).

(٥) البقرة : الآية (٧٩).

(٦) آل عمران : الآية (٧٨).

(٧) آل عمران : الآية (٧١).

(٨) شرح صحيح البخاري (٢/٤٠٦-٤٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرِوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وأسرو هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعة منهم وهم في غفلة معرضون، لاهية قلوبهم، النجوى بينهم، يقول: وأظهروا المناجاة بينهم فقالوا: هل هذا الذي يزعم أنه رسول من الله أرسله إليكم إلا بشر مثلكم، يقولون: هل هو إلا إنسان مثلكم في صوركم وخلقكم، يعنون بذلك محمدا ﷺ. وقال الذين ظلموا، فوصفهم بالظلم بفعلهم وقيلهم الذي أخبر به عنهم في هذه الآيات أنهم يفعلون ويقولون من الإعراض عن ذكر الله والتكذيب برسوله»^(١).

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن الكفار أخفوا النجوى فيما بينهم، قائلين: إن النبي ﷺ ما هو إلا بشر مثلهم، فكيف يكون رسولا إليهم؟ والنجوى: الإسرار بالكلام وإخفاؤه عن الناس. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من دعواهم: أن بشرا مثلهم لا يمكن أن يكون رسولا، وتكذيب الله لهم في ذلك جاء في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيرا من ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٢)، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَآسَفَقُوا اللَّهُ﴾^(٣) الآية، وقوله: ﴿فَقَالُوا ابْشِرْنَا مِنَّا وَجِدًا تَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾^(٤) وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ * وَلَكِنْ أَلْعَنَهُمُ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِذْ أَخْبَرْتُمْ^(٥)، وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ فِي الْإِنْسَانِ﴾^(٦) الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾^(٧) الآية. والآيات بمثل ذلك

(٢) الإسراء: الآية (٩٤).

(٤) القمر: الآية (٢٤).

(٦) الفرقان: الآية (٧).

(١) جامع البيان (٢/١٧).

(٣) التغابن: الآية (٦).

(٥) المؤمنون: الآيتان (٣٣ و٣٤).

(٧) إبراهيم: الآية (١٠).

كثيرة جدا، كما تقدم إيضاح ذلك .

وقد رد الله عليهم هذه الدعوى الكاذبة التي هي منع إرسال البشر، كقوله هنا في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَنَسَلَوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ اَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ اِلَّا اِنَّهُمْ لِبَاكُوْنَ اَلطَّعَامِ وَيَشْتَوْنَ فِي الْاَسْوَاقِ﴾ (٣)، وقوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُوْنَ اَلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِيْنَ﴾ (٤)، إلى غير ذلك من الآيات» (٥).

قال السعدي: «ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطأوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ، إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه، لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه» (٦).

قال ابن عاشور: «وجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطلع المسلمون على ما تأمروا به لئلا يتصدى الرسول ﷺ للرد عليهم؛ لأنهم علموا أن حجبتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضللوا الدهماء، أو أنهم أسروا بذلك لفريق رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبي ﷺ لما تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتتابع دخول الناس في الإسلام، فاختلوا بقوم ما زالوا على الشرك، وناجوههم بذلك ليدخلوا الشك في قلوبهم» (٧).

* * *

(٢) الرعد: الآية (٣٨).

(٤) الأنبياء: الآية (٨).

(١) النحل: الآية (٤٣).

(٣) الفرقان: الآية (٢٠).

(٥) أضواء البيان (٤/٥٥٤-٥٥٥).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٠٨-٢٠٩).

(٧) التحرير والتنوير (١٧/١٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الذي يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم وفي هذا تهديد لهم ووعد»^(١).

قال الشنقيطي: «المعنى: أنهم زعموا أن ما جاء به نبينا ﷺ سحر، وبناء على ذلك الزعم الباطل أنكروا على أنفسهم إتيان السحر وهم يبصرون. يعنون بذلك تصديق النبي ﷺ، أي لا يمكن أن نصدقك ونتبعك، ونحن نبصر أن ما جئت به سحر. وقد بين -جل وعلا- في غير هذا الموضع أنهم ادعوا أن ما جاء به ﷺ سحر، كقوله عن بعضهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ جَحْنُونَ﴾^(٣). وقد رد الله عليهم دعواهم أن القرآن سحر بقوله هنا: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) يعني أن الذي يعلم القول في السماء والأرض الذي هو السميع العليم، المحيط علمه بكل شيء، هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، وكون من أنزله هو العالم بكل شيء يدل على كمال صدقه في الأخبار وعدله في الأحكام، وسلامته من جميع العيوب والنقائص، وأنه ليس بسحر. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٥).

(٢) المدثر: الآية (٢٤).

(٤) الأنبياء: الآية (٤).

(٣) الذاريات: الآية (٥٢).

يَعْلَمُ الْبِرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢﴾ إلى غير ذلك من الآيات» (٣).

قال السعدي: «هذا، وهم يعلمون أنه رسول الله حقا بما يشاهدون من الآيات الباهرة، ما لم يشاهده غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علما بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أي: الخفي والجلي ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿أَعْلَمُ﴾ بما في الضمائر، وأكنته السرائر» (٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في السحر

* عن جندب البجلي أنه قتل ساحرا كان عند الوليد بن عقبة ثم قال: ﴿أَفْتَأُتُكَ السِّحْرَ وَأَنْتَ تُبْصِرُوكَ﴾ (٥).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم -أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتانني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعدا أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلهما رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله،

(٢) النساء: الآية (١٦٦).

(١) الفرقان: الآية (٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٩/٥).

(٣) أضواء البيان (٥٥٥-٥٥٦).

(٥) أخرجه: البخاري في التاريخ (٢/٢٢٢/٢٢٦٨) والدارقطني (٣/١١٤/١١٣) والبيهقي في السنن الكبرى

(٨/١٣٦). وأخرج القصة مطولة: الحاكم (٤/٣٦١) وسكت عنها وكذا الذهبي. وقال الألباني رحمه الله في

الضعيفة (١٤٤٦): «وهذا إسناد صحيح موقوف».

فكرمت أن أثير على الناس فيه شرا، فأمر بها فدفنت^(١).

★ فوائد الحديث:

تقدم الكلام حول حكم السحر وما جاء في حده في سورة البقرة عند الآية (١٠٢).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥٧/٦) والبخاري (١٠/٢٧٢/٥٧٦٣) ومسلم (٤/١٧١٩-١٧٢٠/٢١٨٩) والنسائي في الكبرى (٤/٣٨٠/٧٦١٥) وابن ماجه (٢/١١٧٣/٣٥٤٥).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ
فَلْيَأْنِئْنَا بِثَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٥﴾

★ غريب الآية:

أضغات: أخلاط مجتمعة لا يعلم تأويلها. واحدها: ضغت.
افتراه: اختلقه وكذبه. والافتراء: الكذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ما صدقوا بحكمة هذا القرآن، ولا أنه من عند الله، ولا أقروا بأنه وحي أوحى الله إلى محمد ﷺ، بل قال بعضهم: هو أهاويل رؤيا رآها في النوم. وقال بعضهم: هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه. وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر ﴿فَلْيَأْنِئْنَا﴾ به يقول: قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقا في قوله أن الله بعثه رسولا إلينا، وأن هذا الذي يتلوه علينا وحي من الله أوحاه إلينا ﴿بِثَايَةٍ﴾ يقول: بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدعي ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ يقول: كما جاءت به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى، وإبراء الأكهم والأبرص، وكناقة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل»^(١).

قال البقاعي: «ولما كانت أقوالهم في أمر القرآن قد اضطربت، والاضطراب من أمارات الباطل، وكان وصفهم له بأنه سحر مما يهول السامع ويعلم منه أنه معجز، فربما أدى إلى الاستبصار في أمره، أخبر أنهم نزلوا به عن رتبة السحر على سبيل الاضطراب فقال: ﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي عن هذا الذكر الحكيم أنه ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ أي تخاليط نائم مبناه الباطل وإن كان ربما صدق بالأخبار ببعض المغيبات التي كشف الزمان عن أنها كما أخبر القرآن، ثم نزلوا عن ذلك إلى وصف موجب

(١) جامع البيان (٣/١٧).

لأعظم النفرة عنه وعن ظهر عنه فقالوا: ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾ أي تعمد وصفه من عند نفسه ونسبه إلى الله.

ولما كان ذلك لا ينافي كون مضمونه صادقا في نفسه، قالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي يخيل ما لا حقيقة له كغيره من الشعراء، نتربص به ريب المنون لأنه بشر كما تقدم، فلا بد أن يموت ونستريح بعد موته، وإليه أشار في آخر التي قبلها ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾^(١) إلى آخره، فاضطربت أقوالهم وعولوا أخيرا على قريب من السحر في نفي الحقيقة.

ولما كانوا يصفون القرآن بجميع هذه الأوصاف جملة، يقولون لكل شخص ما رأوه أنسب له منها، نبه الله سبحانه كل من له لب على بطلانها كلها بتناقضها بحرف الإضراب إشارة إلى أنه كان يجب على من قالها على قلة عقله وعدم حيائه أن لا ينتقل إلى قول منها إلا بعد الإعراض عن الذي قبله، وأنه مما يضرب عنه لكونه غلطا، ما قيل إلا عن سبق لسان وعدم تأمل، ستر لعناده وتدليسا لفجوره، ولو فعل ذلك لكانت جديرة بانكشاف بطلانها بمجرد الانتقال فكيف عند اجتماعها. ولما كانت نسبتها إلى الشعر أضعفها شأنا، وأوضحها بطلانا، لم يحتج إلى إضراب عنه، وعبروا في الأضغاث بوصف القرآن تأكيدا لعبه، وفي الافتراء والشعر بوصفه بغيره لذلك.

ولما أنتج لهم ذلك على زعمهم القدح في أعظم المعجزات، سببوا عن هذا القدح طلب آية فقالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ أي دليلا على رسالته ﴿بَيِّنَةٍ﴾ أي لأنا قد بينا بطعننا أن القرآن ليس بآية؛ ثم خيلوا النصفة بقولهم: ﴿كَمَا﴾ أي مثل ما، وبنوا الفعل للمفعول إشارة إلى أنه متى صحت الرسالة كان ذلك بزعمهم من غير تخلف لشيء أصلا فقالوا: ﴿أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي بالآيات مثل تسبيح الجبال، وتسخير الريح، وتفجير الماء، وإحياء الموتى، وهذا تناقض آخر في اعترافهم برسالة الأولين مع معرفتهم أنهم بشر، وإنكارهم رسالته بغيره لكونه بشرا، ولم يستحيوا بعد التناقض من المكابرة فيما أتاهم به من انشقاق القمر، وتسبيح الحصى، ونبع الماء، والقرآن المعجز، مع كونه أميًّا إلى غير ذلك^(٢).

(١) طه: الآية (١٣٥).

(٢) نظم الدرر (١٢/٣٨٦-٣٨٨).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن الإضراب في قوله هنا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَعْيُنُنَا﴾ الخ، إضراب انتقالي لا إبطالي، لأنهم قالوا ذلك كله، وقال بعض العلماء: كل هذه الأقوال المختلفة التي حكاها الله عنهم صدرت من طائفة متفقة لا يشتون على قول، بل تارة يقولون هو ساحر، وتارة شاعر، وهكذا، لأن المبطل لا يثبت على قول واحد. وقال بعض أهل العلم: كل واحد من تلك الأقوال قالته طائفة: كما قدمنا الإشارة إلى هذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفِرْعَانَ عِزِينَ﴾ (١) وقد رد الله عليهم هذه الدعاوى الباطلة في آيات من كتابه: كرده دعواهم أنه شاعر أو كاهن في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٢) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذَرُونَ (٣) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤) وَلَوْ نَفَوَّلْ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَابِلِ (٥) لَأَنذَرْنَا مِنْهُ بِالْبَیِّنِ (٦) ثُمَّ لَفَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٧) فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ (٨) وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٩) لِّئِنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٠)﴾ (١١)، وقوله في رد دعواهم إنه افتراه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يَقْرَأَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن نَّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ (١٤)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِينَ (١٥) وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦)﴾ (١٧)، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن نَّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨)﴾ (١٩) إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله في رد دعواهم إنه كاهن أو مجنون: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٠)﴾ (٢١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾ (٢٣)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خَمَلٍ (٢٤) وَقَدْ دَخَلْنَا نَزَّلْنَا ذُوقُوا عَذَابَ شَدِيدٍ (٢٥)﴾ (٢٦)، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ (٢٧)﴾ (٢٨) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ

(٢) الحاقة: الآيات (٤١-٤٧).

(٤) يونس: الآيات (٣٧ و٣٨).

(٦) يوسف: الآية (١١١).

(٨) التكوين: الآية (٢٢).

(١) الحجر: الآية (٩١).

(٣) يس: الآيات (٦٩-٧٠).

(٥) هود: الآية (١٣).

(٧) الطور: الآية (٢٩).

(٩) سبأ: الآية (٤٦).

جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَثْرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿١﴾ إلى غير ذلك من الآيات المبينة لإبطال كل ما ادعوه في النبي ﷺ والقرآن. وقوله: ﴿أَضَعْتُ أَخْلَاصِي﴾ أي أخلاط كالأحلام المختلفة التي يراها النائم ولا حقيقة لها كما قال الشاعر:

أحاديث طسم أو سراب بفد فد ترقرق للساري وأضغاث حالم
وعن اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْنَسْا بِآيَاتِي كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن الكفار اقترحوا على نبينا أن يأتيهم بآية كآيات الرسل قبله؛ نحو ناقة صالح، وعصى موسى، وريح سليمان، وإحياء عيسى للأموات وإبرائه الأكمه والأبرص، ونحو ذلك. وإيضاح وجه التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ هو أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات؛ لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات، فكذلك أرسل محمد ﷺ بالمعجزة. وقد بين تعالى أن الآيات التي اقترحوها لو جاءتهم ما آمنوا وأنها لو جاءتهم وتمادوا على كفرهم أهلكتهم الله بعذاب مستأصل، كما أهلك قوم صالح لما عقروا الناقة. كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ (٢) الآية، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ مَا يَكْفُرُهُمْ قُلُوبُهُمْ لَيَكْفُرُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣). وأشار إلى ذلك هنا في قوله: ﴿وَمَا ءَامَنْتُ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤) يعني أن الأمم الذين اقترحوا الآيات من قبلهم وجاءتهم رسلهم بما اقترحوا، لم يؤمنوا بل تمادوا فأهلكهم الله وأنتم أشد منهم عتوا وعنادا. فلو جاءكم ما اقترحتم، ما آمنتم، فهلكنكم كما هلكوا. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ (٥) إلى غير ذلك من الآيات.

وبين أنهم جاءتهم آية هي أعظم الآيات، فيستحق من لم يكتف بها التفرع والتوبيخ، وذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ

(٢) الإسراء: الآية (٥٩).

(٤) الأنبياء: الآية (٦).

(١) المؤمنون: الآيات (٦٩ و٧٠).

(٣) الأنعام: الآية (١٠٩).

(٥) يونس: الآيات (٩٦ و٩٧).

عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٨﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴿٥٩﴾^(١)
الآية ﴿٦٠﴾^(٢).

قال السعدي: «يذكر تعالى اثتفاك المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقولوا فيه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿أَضَعْتُ أَحْلِيَّ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿أَفَرَرْتُ﴾ واختلقه وتقلبه من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزما لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم، وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه -حيث لم يؤمنوا به- تنفيرا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف، فمن طلب دليلا غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من الآيات الاقتراحية ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة -على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات- لا يؤمنون قطعا، فلو جاءتهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْنِئَا إِنَّا فِي يَوْمٍ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي: كناية صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك»^(٣).

* * *

(٢) أضواء البيان (٤/٥٥٦-٥٥٨).

(١) العنكبوت: الآيتان (٥٠ و٥١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١٠-٢١١).

قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ما آمن من قبل هؤلاء المكذبين محمداً من مشركي قومه الذين قالوا: فليأتنا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله من أهل قرية عذبناهم بالهلاك في الدنيا إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾» يقول: أفهؤلاء المكذبون محمداً السائلوه الآية يؤمنون به إن جاءتهم آية، ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية التي أهلكناها برسالتها مع مجيئها»^(١).

قال ابن كثير: «أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣﴾» هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجل، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»^(٣).

قال السعدي: «أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبداً»^(٤).

* * *

(٢) يونس: الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(١) جامع البيان (٤/١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٢٥-٣٢٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه: وما أرسلنا يا محمد رسولا إلى أمة من الأمم التي خلت من قبل أمتك إلا رجالا مثلهم نوحى إليهم، ما نريد أن نوحى إليهم، من أمرنا ونهينا، لا ملائكة، فماذا أنكروا من إرسالنا لك إليهم، وأنت رجل كسائر الرسل الذين قبلك إلى أممهم. وقوله: ﴿فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول للقائلين لمحمد ﷺ في تناجيهم بينهم: هل هذا إلا بشر مثلكم: فإن أنكرتم وجهتم أمر الرسل الذين كانوا من قبل محمد، فلم تعلموا أيها القوم أمرهم إنسا كانوا أم ملائكة، فاسألوا أهل الكتب من التوراة والإنجيل ما كانوا يخبروكم عنهم»^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ﴾^(٣) وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾^(٤) ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أم ملائكة؟ إنما كانوا بشرا، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم»^(٥).

(٢) يوسف: الآية (١٠٩).

(٤) التغابن: الآية (٦).

(١) جامع البيان (١٧/٤-٥).

(٣) الأحقاف: الآية (٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٢٦-٣٢٧).

قال البقاعي: «ولما كان السياق لإنكار أن يكون النبي بشرا، وكان الدهر كله ما خلا قط جزء منه من رسالة، إما برسول قائم، وإما بتناقل أخباره، كان تعميم الزمان أنسب فقال من غير حرف جر: ﴿قَبْلَكَ﴾ أي في جميع الزمان الذي تقدم زمانك في جميع طوائف البشر ﴿إِلَّا رَجَالًا تُوحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ بالملائكة سرا من غير أن يطلع على ذلك الملك غيرهم، كما اقتضته العظمة من التخصيص والاختيار والإسرار عن الأغيار، وذلك من نعم الله على خلقه، لأن جعل الرسل من البشر أمكن للتلقي منهم والأخذ عنهم.

ولما لم يكن لهم طريق في علم هذا إن لم يقبلوا خبره عن القرآن إلا سؤال من كانوا يفزعون إليهم من أهل الكتاب ليشايعوههم على ما هم عليه من الشك والارتياب، قال: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ ثم نبه على أنهم غير محتاجين فيه إلى السؤال بما كان قد بلغهم على الآجال من أحوال موسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم عليهم الصلاة والسلام بقوله، معبرا بأداة الشك محركا لهم إلى المعالي: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أي بجبالكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا أهلية لكم في اقتناص علم، بل كنتم أهل تقليد محض وتبع صرف»^(١).

قال السعدي: «هذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها. ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم. ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهى عن سؤال المعروف بالجهل، وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك. وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبيه لا مريم ولا غيرها لقوله: ﴿إِلَّا رَجَالًا﴾»^(٢).

قلت: هكذا نجد في السور المكية المباحثة والمناظرة المتكررة بأساليب متعددة مع كفار قريش المعاندين الذين يخلقون شبه الباردة، التي يعرف كذبها من

(١) نظم الدرر (١٢/٣٨٩-٣٩٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١٣-٢١٤).

له أدنى مسكة عقل وبصيص فهم، ومنهجهم الإعراض عن كتاب الله ووصفهم له بما يحلو لهم والإعراض عن نبوة الرسول ﷺ مع وضوح دلائله وآياته، ولهذا قال الله فيهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢)، وهذا المنهج الباطل الفاسد مستمر دعائه، بل توسع الملاحدة فيه، واختلقوا شيئا سموه الطبيعة فهي الخالقة الصانعة المسيرة عندهم، ولو سئل أحدهم عن تحديد الطبيعة ما هي؟ ما استطاع جواباً عن ذلك، وإنما يرمي بالكلام رمياً، وبالشبه التي لا تنطلي إلا على الحمقى والغارقين في الشهوات والموبقات، الذين لا يميزون بين خبيث وطيب.

والمبتدعة وأمثالهم من أهل الإسلام يرتكسون في الطواف بالموتى والمقبورين، الذين مضى على موتهم مئات السنين ولا يعرف لهم أثر ولا وجود وإنما هو عدم متحقق، ومع ذلك يبنون عليهم، ويرممون بنياتهم الواسعة، ويضعون فيها من الأموال ما يبني مدناً للفقراء والمساكين، ولو كانوا كما يقولون بأن في هذه القبور من يعتقدون، فهو لا يسمن ولا يغنيهم من جوع، ولا ينفع الطائف بها، وكما قال تعالى: ﴿فَتَكْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٣)، وكما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (٤)، فقل لي بربك هل هناك أكثر من هذه الارتكاسة والانتكاسة التي تضحك منها الحيوانات؟! وترى الحمقى يترنمون بأبيات وأصوات يوهمون الغفلى أنهم يذكرون ويعيشون أزماناً روحانية! ولهذا تجد مجالسهم يؤمها الأبالسة والشياطين من الجن والإنس، ويرتكبون فيها الموبقات التي يندى لها الجبين، فهلا سأل المشركون والمبتدعة عن هذه الأفعال الشنيعة أهل العلم بالتوحيد والسنة، فيخبرونهم بواقع ارتكاسهم وانتكاسهم، وأن بدعهم لا خير فيها مهما زينها لهم إبليس، والله المستعان.

* * *

(١) البقرة: الآيتان (٧٦ و٧٧).

(٢) الأنبياء: الآية (٦٣).

(٣) فاطر: الآية (١٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾

أهوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية قبل أمتك ﴿جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ يقول: لم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام، ولكن جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام.. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ يقول: ولا كانوا أربابا لا يموتون ولا يفنون، ولكنهم كانوا بشرا أجسادا فماتوا، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ كما أخبر الله عنهم ﴿لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا﴾^(١) قال الله -تبارك وتعالى- لهم: ما فعلنا ذلك بأحد قبلكم فنفعل بكم، وإنما كنا نرسل إليهم رجالا نوحى إليهم كما أرسلنا إليكم رسولا نوحى إليه أمرنا ونهينا»^(٢).

قال الرازي: «كانوا يقولون: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^(٣) فأجاب الله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ فبين تعالى أن هذه عادة الله في الرسل من قبل وأنه لم يجعلهم جسدا لا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم، ونبه بذلك على أن الذي صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القاذحة في التبليغ»^(٤).

قال السعدي: «هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان ملكا، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلا كان خالدا؟ فإذا لم يكن

(١) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٢).

(٢) الفرقان: الآية (٧).

(٣) جامع البيان (١٧/٥-٦).

(٤) التفسير الكبير (٢٢/١٤٥).

كذلك ، دل على أنه ليس برسول .

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول ، تشابهوا في الكفر ، فتشابهت أقوالهم ، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول ، المقربين بإثبات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام ، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف ، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملتته - بأن الرسل قبل محمد ﷺ ، كلهم من البشر ، الذين يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، وتطراً عليهم العوارض البشرية ، من الموت وغيره ، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم ، فصدقهم من صدقهم ، وكذبهم من كذبهم ، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة ، والسعادة لهم ولأتباعهم ، وأهلك المسرفين المكذبين لهم .

فما بال محمد ﷺ ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته ، وهي موجودة في إخوانه المرسلين ، الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح ، وأنهم إن أقرّوا برسول من البشر ، ولن يقرّوا برسول من غير البشر ، إن شبههم باطلة ، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها ، وتناقضهم بها ، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً ، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مخلداً ، لا يأكل الطعام ، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَنًا يَلَيُّسُونَ ﴿ (١)﴾ (٢) .

قال القاسمي : « وفي هذا التعريف الرباني عن حال المرسل أكبر رادع لأولئك المنزوين عن الناس المتصيدين به قلوب الرعايا والعامّة والحمقى ومن لا يزن عند ربه جناح بعوضة . إذ يرون تناول الطعام في المحافل وتكثير سواد الناس في المجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوامد لصروح الاعتقاد فيهم . فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم ، وهو السنة . ومن المشي بالأسواق وهو المأذون فيه . ومن إجابة الدعوة ، وهي واجبة لأوهام في أنفسهم شيدوها . ومحافظة على السمعة حموا جانبها . فتبا لهم من قوم مبتدعين ، يعبدون

(١) الأنعام : الآيتان (٨ و٩) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢١٢/٥ - ٢١٣) .

قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذاك إلا لله . فما أجرأهم على منازعة الجبار . وما أصبرهم على النار^(١) .

قال ابن عاشور : « وذكر الجسد يفيد التهكم بالمشركين لأنهم لما قالوا : ﴿ مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾^(٢) وسألوا أن يأتي بما أرسل به الأولون كان مقتضى أقوالهم أن الرسل الأولين كانوا في صور آدميين لكنهم لا يأكلون الطعام ، وأكل الطعام من لوازم الحياة ، فلزمهم لما قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام أن يكونوا قائلين بأن شأن الرسل أن يكونوا أجسادا بلا أرواح ، وهذا من السخافة بمكانة .

وأما قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ ﴾ فهو زيادة استدلال لتحقيق بشريتهم استدلالا بما هو واقع من عدم كفاءة أولئك الرسل كما هو معلوم بالمشاهدة لقطع معاذير الضالين ، فإن زعموا أن قد كان الرسل الأولون مخالفين للبشر فماذا يصنعون في لحاق الفناء إياهم . فهذا وجه زيادة ﴿ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ ﴾ وأتي في نفي الخلود عنهم بصيغة ﴿ مَا كَانُوا ﴾ تحقيقاً لتمكن عدم الخلود منهم^(٣) .

* * *

(١) محاسن التأويل (١١/ ٢٣٥-٢٣٦) .

(٢) الفرقان : الآية (٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩-٢٠) .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٩﴾

* غريب الآية:

المسرفين: جمع مسرف، وهو المتجاوز لحد الاعتدال في كل شيء.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ثم صدقنا رسلنا الذين كذبتهم أممهم وسألتهم الآيات فأتيناهم ما سألوه من ذلك ثم أقاموا على تكذيبهم إياها، وأصروا على جحودهم نبوتها بعد الذي أتهم به من آيات ربها، وعدنا الذي وعدناهم من الهلاك على إقامتهم على الكفر بربهم بعد مجيء الآية التي سألوه وذلك كقوله - جل ثناؤه - : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَمْنِهِ فَعَبْءٌ أَخَذَتْهُ أَهْلُهَا﴾ (١) وكقوله: ﴿وَلَا تَسْهَوْا إِسْوَءَ فِعَالِكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٢) ونحو ذلك من المواعيد التي وعد الأمم مع مجيء الآيات وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ﴾ يقول - تعالى ذكره - : فأنجينا الرسل عند إصرار أممها على تكذيبها بعد الآيات ﴿وَمَنْ نَشَاءُ﴾ وهم أتباعها الذين صدقوها وآمنوا بها وقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول - تعالى ذكره - : وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم» (٣).

قال الشنقيطي: «بين - جل وعلا - في هذه الآيات: أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم. وأنجى معهم ما شاء أن ينجاه. . والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل، وقد أوضح هذا المعنى

(١) المائدة: الآية (١١٥).

(٢) هود: الآية (٦٤).

(٣) جامع البيان (٦/١٧).

في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١)، وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ (٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الرُّسُلِينَ﴾ (٤)، ﴿إِنَّهُمْ لَكُفَّارُونَ﴾ (٥)، ﴿لَئِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ (٧) الآية، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ (٨) الآية، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ (٩) الآية، إلى غير ذلك من الآيات. والظاهر أن (صدق) تتعدى بنفسها وبالحروف، تقول: صدقته الوعد، وصدقته في الوعد. كقوله هنا: ﴿ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (٨). فقول الزمخشري: ﴿صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ﴾ كقوله: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ لا حاجة إليه، والله أعلم. والإسراف: مجاوزة الحد في المعاصي كالكفر، ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار (٩).



(٢) إبراهيم: الآية (٤٧).

(١) يوسف: الآية (١١٠).

(٣) إبراهيم: الآيتان (١٤ و ١٣).

(٥) هود: الآية (٥٨).

(٤) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).

(٦) هود: الآية (٦٦).

(٨) آل عمران: الآية (١٥٢).

(٧) هود: الآية (٩٤).

(٩) أضواء البيان (٤/٥٥٨-٥٥٩).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٥)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «بين تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ عظيم نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا، فلذلك قال فيه: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: ذكرهم شرفكم وصيتكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (١).

وثانيها: المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب، ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد، كما قال: ﴿وَذِكْرٌ فَإِنَّ الذِّكْرَ لَنَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥) (٢).

وثالثها: المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة إذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كالبعث على التدبر في القرآن لأنهم كانوا غفلاء لأن الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم الفعل، فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل» (٣).

قال ابن عاشور: «والذكر يطلق على التذكير بما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ (٢١) (٤). وقد أوتر هذا المصدر هنا وجعل معرفاً بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاماً موجهاً فيصح قصد المعنيين معاً من كلمة (الذكر) بأن مجيء القرآن مشتملاً على أعظم الهدى هو تذكير لهم بما به نهاية إصلاحهم ومجيئه بلغتهم، وفي قومهم، وبواسطة واحد منهم، سمعة عظيمة لهم كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٩٥) (٥) وقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ (٦).

وقد فسر السلف هذه الآية بالمعنيين. وفي تفسير الطبري هنا قال جماعة: معنى ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أنه الشرف أي فيه شرفكم. وقال ابن عطية: يحتمل أن يريد فيه شرفكم

(١) الزخرف: الآية (٤٤).

(٢) التفسير الكبير (١٤٦/٢٢).

(٣) الشعراء: الآية (١٩٥).

(٤) الذاريات: الآية (٥٥).

(٥) مريم: الآية (٢).

(٦) البقرة: الآية (١٥١).

وذكركم آخر الدهر كما تذكر عظام الأمور. وقد فسر بمثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ لِدَعْرِ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^(١).

وعلى المعنيين يكون لتفريع قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أحسن موقع لأن الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم متجه على كلا المعنيين فإن من جاءه ما به هديه فلم يهتد ينكر عليه سوء عقله، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به ينكر عليه سوء قدره للأمر حق قدرها كما يكون الفضل في مثله مضاعفا. وأيضا فهو متفرع على الإقناع بإنزال القرآن آية تفوق الآيات التي سألوها مثلها وهو المفاد من الاستئناف ومن تأكيد الجملة بالقسم وحرف التحقيق قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرْحمةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) في سورة العنكبوت وذلك لإعجازه اللفظي والمعنوي^(٣).

قال السعدي: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ - أيها المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - ﴿كِتَابًا﴾ جليلاً وقرأنا مبيناً ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿فَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيها، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح.

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول الذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزك به، من المقت والضعف، والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب^(٣).

* * *

(١) الزخرف: الآية (٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢-٢٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴿١٣﴾

★ غريب الآية:

قصمنا: القصم: الكسر والحطم. وعبر به عن الهلاك. يقال: قصمت الشيء: إذا كسرتة.

أنشأنا: أوجدنا.

يركضون: الركض: العدو بشدة. وركض الدابة: ضربها برجله كي تعدو.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكثيرا قصمنا من قرية والقصم: أصله الكسر يقال منه: قصمت ظهر فلان إذا كسرتة وانقصمت سنه: إذا انكسرت، وهو ههنا معني به أهلكنا وكذلك تأوله أهل التأويل. . . وقوله: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أجري الكلام على القرية والمراد بها أهلها لمعرفة السامعين بمعناه وكان ظلمها: كفرها بالله وتكذيبها رسله وقوله: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمة من أهل هذه القرية التي قصمناها بظلمها قوما آخرين سواهم.

قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ يقول: فلما عاينوا عذابنا قد حل بهم ورأوه قد وجدوا مسه. يقال منه: قد أحسست من فلان ضعفا وأحسته منه: ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يقول: إذا هم مما أحسوا بأسنا النازل بهم يهربون سراعا عجلي يعدون منهزمين يقال منه: ركض فلان فرسه: إذا كده بسياقته. . . قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ يقول -تعالى ذكره-: لا تهربوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه يقول: إلى ما أنعمتم فيه من عيشتكم

ومساكنكم»^(١).

قال ابن عاشور: «مناسبة موقعها أنه بعد أن أخبر أنه صدق رسله وعده وهو خبر يفيد ابتداء التنويه بشأن الرسل ونصرهم، وبشأن الذين آمنوا بهم. وفيه تعريض بنصر محمد ﷺ وذكر إهلاك المكذبين له تبعا لذلك، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين، ووصف ما حل بهم ليكون ذلك مقصودا بذاته ابتداء اهتماما به ليقرع أسماعهم، فهو تعريض بإنذار المشركين بالانقراض بقاعدة قياس المساواة، وأن الله ينشئ بعدهم أمة مؤمنة كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٢)»^(٣).

قال الشنقيطي: «أي قصمنا كثيرا من القرى التي كانت ظالمة، وأنشأنا بعدها قوما آخرين. وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبينا في مواضع كثيرة من كتاب الله. كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَانَ رِيبُكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾^(٤)، وقوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾^(٥) الآية، وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا﴾^(٦) فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسرًا^(٧)»^(٨) إلى غير ذلك من الآيات»^(٩).

قال السعدي: «يقول تعالى محذرا لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وبأشرهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى النزوع وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندمًا وقلقًا، وتحسروا على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْجِعُوا وَارْجِعُوا إِلَيَّ مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنَتُكُمْ لَكُمْ تَشْتَلُونَ﴾^(١٠) أي: لا يفيدكم الركوض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم

(٢) إبراهيم: الآية (١٩).

(٤) الإسراء: الآية (١٧).

(٦) الطلاق: الآيتان (٩ و٨).

(١) جامع البيان (١٧/٧-٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/٢٤).

(٥) الحج: الآية (٤٥).

(٧) أضواء البيان (٤/٥٥٩).

المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله. فكونوا فيها متمكنين، وللذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم، كما كنتم سابقا، مسئولين من مطالب الدنيا، كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم، وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم^(١).

قال المكي الناصري: «وبهذه الآيات استحضر كتاب الله أمام الأنظار مشهد الظالمين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، ولم يؤدوا حقوق الله ولا حقوق العباد، مؤكداً أنه إذا حان مصرع الظالمين لم يفلتوا مهما حاولوا أن يفرّوا من العذاب، ولم ينفعهم الندم ولا العتاب، فما أكثر عدد الظالمين الذي هلكوا وبادوا، فألقي عليهم رداء النسيان، وباستئصالهم التام، وحصدهم كما يحصد الزرع، دخلوا في خبر كان»^(٢).

قال ابن عاشور: «وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتْلُونَ﴾ من جملة التهكم. وذكر المفسرون في معنى ﴿تَتْلُونَ﴾ احتمالات ستة. أظهرها: أن المعنى: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم لتروا ما آل إليه، فلعلكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم فتعلموا كيف تجيبون لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدم إليهم عن حال البلاد التي تركها من خصب ورخاء أو ضد ذلك، وفي هذا تكملة للتهكم»^(٣).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١٥-٢١٦).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/١١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/٢٧).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدٍ﴾ (١٥)

★ غريب الآية:

حصيدًا: أي موتى وهلكى. وأصل الحصد: القطع، ثم استعمل في الاستئصال والإهلاك.

خامدين: الخمود: الهمود والسكون. وخمدت النار: انطفأت وسكن لهيبها. والمراد هنا: الموت. قال الفرزدق:

ترع لي خنْدِفٌ واللَّهُ يَرْفَعُ لي نَارًا إِذَا خَمَدَتْ نَارُهُمْ تَقْدِ

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره -: قال هؤلاء الذين أحل الله بهم بأسه بظلمهم لما نزل بهم بأس الله: يا ويلنا إنا كنا ظالمين بكفرنا برينا» ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾ يقول فلم نزل دعواهم حين أتاهم بأس الله بظلمهم أنفسهم: ﴿يَتَوَلَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حتى قتلهم الله فحصدهم بالسيف كما يحصد الزرع ويستأصل قطعاً بالمناجل وقوله: ﴿خَمِيدٍ﴾ يقول: هالकिन قد انطفأت شرارتهم وسكنت حركتهم فصاروا هموداً كما تخمد النار فتطفأ»^(١).

قال ابن عاشور: «شبهوا بزرع حصد أي بعد أن كان قائماً على سوقه خضراً، فهو يتضمن تشبيههم قبل هلاكهم بزراع في حسن المنظر والطلعة كما شبه بالزرع في قوله تعالى: ﴿كَزَرَاعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُمْ فَتَوَزَّرُوا فَأَسْتَلْظَ فَاَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُقُوفِهِمْ يُعْجَبُ الزُّرْعُ﴾ في سورة الفتح»^(٢). ويقال للناسي: أنبته الله نباتاً حسناً قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ في سورة آل عمران»^(٣). فلإشارة إلى الشبهين شبه البهجة وشبه الهلك أوثر تشبيههم

(٢) الآية (٢٩).

(١) جامع البيان (٩/١٧).

(٣) الآية (٣٧).

حين هلاكهم بالحصيد .

وكذلك شبهوا حين هلاكهم بالنار الخامدة فتضمن تشبيههم قبل ذلك بالنار المشبوبة في القوة والبأس كما شبه بالنار في قوله تعالى : ﴿ كَلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ في سورة المائدة^(١) وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ في سورة البقرة^(٢) ^(٣) .

قال السعدي : «أي الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم ، وأن الله عادل فيما أحل بهم ﴿ حَقَّقَ جَعَلْنَهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴾ أي بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيم . قد خمدت منهم الحركات ، وسكنت منهم الأصوات . فاحذروا -أيها المخاطبون- أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل فيحل بكم كما حل بأولئك»^(٤) .

* * *

(٢) الآية (١٧) .

(١) الآية (٦٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧/٢٨-٢٩) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١٦) .

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ أَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إلا حجة عليكم أيها الناس ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دبره وخلقه لا يشبهه شيء، وأنه لا تكون الألوهة إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء غيره، ولم يخلق ذلك عبثاً ولعباً..»

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ أَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: لو أردنا أن نتخذ زوجة وولداً لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكننا لا نفعل ذلك ولا يصلح لنا فعله ولا ينبغي؛ لأنه لا ينبغي أن يكون لله ولد ولا صاحبة^(١).

قال ابن عاشور: «كثير أن ينسب القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المناسبة بين خلق ما في السموات والأرض ملتبساً بالحق، وبين جزاء المكلفين على أعمالهم على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم إلى أن عمتهم الشريعة العامة الخاتمة شريعة الإسلام، وإلى الحكمة التي اقتضت تكوين حياة أبدية تلقى فيها النفوس جزاء ما قدمته في هذه الحياة الزائلة جزاء وفاقاً.

فلذلك كثير أن تعقب الآيات المبينة لما في الخلق من الحق بالآيات التي تذكر الجزاء والحساب والعكس كقوله تعالى: ﴿أَفَصَبِّتُنَا إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمُ إِلَّا نُنَآ لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ في آخر سورة المؤمنين وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ آخر الحجر وقوله

(١) جامع البيان (١٧/٩-١٠).

(٢) المؤمنون: الآية (١١٥).

(٣) الحجر: الآية (٨٥).

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نُسَوِّدُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٣﴾ في سورة ص وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيْمَ ﴿٥﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ في سورة الدخان وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٩﴾﴾ في سورة الأحقاف إلى غير هذه الآيات. فكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ عَقِبَ بِهَا ذَكَرَ الْقَوْمَ الْمَهْلِكِينَ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ إِيقَاطُ الْعُقُولِ إِلَى الْاِسْتِدْلَالِ بِمَا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَقَائِقِ الْمُنَاسِبَاتِ وَإِعْطَاءِ كُلِّ مَخْلُوقٍ مَا بِهِ قَوَامُهُ، فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ سَنَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْعَوَالِمِ ظَرْفُهَا وَمَظْرُوفُهَا، اسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ تِلْكَ السَّنَةَ لَا تَخْتَلِفُ فِي تَرْتِيبِ الْمُسَبِّبَاتِ عَلَى أَسْبَابِهَا فِيمَا يَأْتِيهِ جِنْسُ الْمَكْلُوفِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَإِذَا مَا لَاحَ لَهُمْ تَخَلُّفُ سَبَبٍ عَنْ سَبَبِهِ أَيقِنُوا أَنَّهُ تَخَلُّفٌ مُؤَقَّتٌ فَإِذَا عَلِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ شَرَائِعِهِ بِأَنَّهُ ادْخَرَ الْجِزَاءَ الْكَامِلَ عَلَى الْأَعْمَالِ إِلَى يَوْمٍ آخِرٍ ءَامَنُوا بِهِ، وَإِذَا عَلِمَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَفُوتُونَ ذَلِكَ بِالْمَوْتِ بَلْ إِنْ لَهُمْ حَيَاةٌ آخِرَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ بَاعَثَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيقِنُوا بِهَا، وَإِذَا عَلِمَهُمْ أَنَّهُ رُبَّمَا عَجَلَ لَهُمْ بَعْضُ الْجِزَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيقِنُوا بِهِ.

ولذلك كثر تعقيب ذكر نظام خلق السموات والأرض بذكر الجزاء الآجل والبعث وإهلاك بعض الأمم الظالمة أو تعقيب ذكر البعث والجزاء الآجل والعاجل بذكر نظام خلق السموات والأرض.

وحسبك تعقيب ذلك بالتفريع بالفاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١﴾ (١٢) الآيات ختام سورة آل عمران.

(١) ص: الآيات (٢٦-٢٨).

(٢) الدخان: الآيات (٣٧-٤٠).

(٣) الأحقاف: الآية (٣).

(٤) آل عمران: الآيات (١٩٠ و ١٩١).

ولأجل هذا اطررد أو كاد أن يطرد ذكر لفظ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بعد ذكر خلق السموات والأرض في مثل هذا المقام لأن تخصيص ما بينهما بالذكر يدل على الاهتمام به لأن أشرفه هو نوع الإنسان المقصود بالعبرة والاستدلال وهو مناط التكليف . فليس بناء الكلام على أن يكون الخلق لعبا منظورا فيه إلى رد اعتقاد معتقد ذلك ولكنه بني على النفي أخذا لهم بلازم غفلتهم عن دقائق حكمة الله بحيث كانوا كقائلين بكون هذا الصنع لعبا^(١) .

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثا، ولا لعبا من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله، فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته .

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لَا تَخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي : من عندنا ﴿إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا نحب أن نريه إياكم، فالسموات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان الحليم الرحيم، الحكيم في تنزيه الأشياء منازلها^(٢) .

قال المكي الناصري: «يقول تعالى تنويعا بعدله وحكمته وتنبهها إلى أنه لم يخلق الإنسان ولا الأكوان عبثا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ﴾^(٣) ثم قال تعالى موضحا هذا المعنى أكمل توضيح: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَا تَخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ إن كُنَّا فَعِلِينَ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠-٣٢) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٧) .

(٣) الدخان: الآية (٣٨) .

﴿١٦﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٧﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٨﴾ .

وواضح من السياق الذي وردت فيه هذه الآيات أنها ترمي إلى إثبات حقيقة واقعية لا جدال فيها، ألا وهي أن الله الذي طبع الطبيعة هو الذي شرع الشريعة، وكما أن نواميس الطبيعة التي أبدعها تضبط سير الأكوان، فإن قوانين الشريعة التي أنزلها تضبط سلوك الإنسان، فما على الإنسان إلا أن يتحمل مسؤوليته كاملة ويطبق على سلوكه قوانين الشريعة، كما تطبق كافة الأكوان على سيرها نواميس الطبيعة، ولينظر الإنسان إلى حكمة الله السارية في الوجود، وإلى عنايته البارزة في كل موجود، فلا لعب ولا عبث في أفعال الحكيم العليم، ولا لهو ولا لغو في تصرفات الله العلي العظيم، وتعالى الله الملك الحق، الذي يبطل الباطل ويحق الحق^(١).

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١١٣-١١٤).

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾

★ غريب الآية:

يدمغه: يبطله من دمغت الرجل أَدْمَغُهُ: إذا كسرت دِمَاغَهُ وأصبته.
أترفتم: المترف: المتنعم بضروب النعم، المتوسع فيها.
زاهق: أي ذاهب، باطل. وزهوق النفوس: تلفها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولكن ننزل الحق من عندنا وهو كتاب الله وتنزله على الكفر به وأهله فيدمغه: يقول: فيهلكه كما يدمغ الرجل الرجل بأن يشجه على رأسه شجة تبلغ الدماغ، وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يقول: فإذا هو هالك مضمحل.. وقوله: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ يقول: ولكم الويل من وصفكم ربكم بغير صفته وقيلكم: إنه اتخذ زوجة وولدا وفريتكم عليه»^(١).

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجود له، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه، فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: مضمحل فان، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك، ثم قال:

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠-١١).

﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الواصفون الله بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون به ﴿الْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران.

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان^(١).

قال ابن عاشور: ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن اتخاذ الله وعن أن يكون الخلق لعبا إضراب إبطال وارتقاء، أي بل نحن نعمد إلى باطلكم فنقذف بالحق عليه كراهية للباطل بله أن نعمل عملا هو باطل ولعب..

وعندما انتهت مقارعتهم بالحجج الساطعة لإبطال قولهم في الرسول وفي القرآن ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾. وما تخلل ذلك من المواعظ والقوارع والعبر. ختم الكلام بشتهم وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ أي مما تصفون به محمدا ﷺ والقرآن^(٢).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٣٣-٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

★ غريب الآية:

لا يستحسرون: لا يفترون ولا ينقطعون عن العبادة. وحسر عن ذراعه: كشف عنها. وانحسرت عنه قوته: إذا كلَّ وتعب وانقطع عن الانبعاث. فهو حسير. والجمع: حسرى. قال علقمة:

بها جَيْفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عَظَامُهَا فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ
لا يفترون: لا يضعفون، ولا يسكنون عن نشاطهم في العبادة.

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلا ونهارا فقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي لا يستنكفون عنها كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَبَّحْنَاهُ إِلَىٰ جَمِيعِ مَا شَاءَ﴾ (١). وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢) فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا مطيعون قصدا وعملا قادرون عليه كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣).

قال ابن القيم: «هما جملتان تامتان مستقلتان أي: إن له من في السموات ومن في الأرض عبيدا وملكا ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يأنفون

(١) النساء: الآية (١٧٢).

(٢) التحريم: الآية (٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٢٩).

عنها، ولا يتعاضمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون، يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته^(١).

قال السعدي: «أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة وكيف يجعل لله منها ولدا؟! فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِنْدُ أَيِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خال منها وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تصرف العبادة لغيره^(٢).

* * *

(١) مدارج السالكين (١/١٠٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١٨-٢١٩).

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض هم ينشرون: يعني بقوله هم: الآلهة يقول: هذه الآلهة التي اتخذوها تنشر الأموات، يقول: يحيون الأموات وينشرون الخلق، فإن الله هو الذي يحيي ويميت . .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ يقول - تعالى ذكره -: لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يقول: لفسد أهل السموات والأرض ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول - جل ثناؤه -: فتنتزیه لله وتبرئة له مما يفتری به علیه هؤلاء المشركون من الکذب»^(١).

قال ابن كثير: «ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي لا يقدر على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله ندا وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَىٰ بَعْضِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يقولون أن له ولدا أو شريكا ﷻ وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوا كبيرا»^(٢).

قال ابن عاشور: «وصف الآلهة بأنها من الأرض تهكم بالمشركين، وإظهار

(١) جامع البيان (١٧/١٣-١٤).

(٢) المؤمنون: الآية (٩١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٣٠).

لأفن رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض أو مأخوذة من أجزاء الأرض من حجارة أو خشب تعريضا بأن ما كان مثل ذلك لا يستحق أن يكون معبودا، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾^(١) في الصافات. . وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق أي أنه بعد أن خلق السموات والأرض أقام في الأرض شركاء له، ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج: (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء.

وبذلك يتبين أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السموات والأرض لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله خالق السموات والأرض قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٢) في سورة الزمر وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) في سورة الزخرف. فهي مسوقة لإثبات الوحداية لا لإثبات وجود الصانع إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم. والفساد هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيهما. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك يبطلان نظامه الصالح^(٤).

قال السعدي: «لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُمْ يُشِيرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرُونَ على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

(١) الصافات: الآية (٩٥).

(٢) الزمر: الآية (٣٨).

(٣) الزخرف: الآية (٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/٣٧-٣٩).

وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٣﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَجِدْ تُعْمَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ فَاَلْمَشْرِكُ يَعْبُدُ الْمَخْلُوقَ، الَّذِي لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَيَدْعُ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ، الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ وَبِيَدِهِ الْأَمْرُ وَالنَّفْعُ وَالضَّرُّ، وَهَذَا مِنْ عَدَمِ تَوْفِيقِهِ، وَسُوءِ حِظِّهِ، وَتَوَفُّرِ جَهْلِهِ، وَشِدَّةِ ظُلْمِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَصْلَحُ الْوُجُودَ، إِلَّا عَلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ، إِلَّا بِرَبِّ وَاحِدٍ.

ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ﴾ أي: في السموات والأرض ﴿إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وريان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُبْعَثُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ولهذا قال هنا: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ﴾ أي: تنزهه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها، وأعظمها، فربوبية ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه ﴿٣٠﴾.

(٢) يس: الآيتان (٧٤ و٧٥).

(١) الفرقان: الآية (٣).

(٣) الإسراء: الآيتان (٤٢ و٤٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢١٩-٢٢١).

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصرفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من حكمه فيهم؛ لأنهم خلقه وعبيده وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، لا شيء فوقه يسأله عما يفعل، فيقول له: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ يقول - جل ثناؤه - : وجميع من في السموات والأرض من عباده مستولون عن أفعالهم ومحاسبون على أعمالهم، وهو الذي يسألهم عن ذلك ويحاسبهم عليه؛ لأنه فوقهم ومالكهم، وهم في سلطانه»^(١).

قال ابن عطية: «وصف نفسه تعالى بأنه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ وهذا وصف يحتمل معنيين: إما أن يريد أنه بحق ملكه وسلطانه لا يعارض ولا يسأل عن شيء يفعله؛ إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وإما أن يريد أنه محكم الأفعال، واضع كل شيء موضعه، فليس في أفعاله موضع سؤال ولا اعتراض، وهؤلاء من البشر يسألون لهاتين العلتين لأنهم ليسوا مالكين ولأنهم في أفعالهم خلل كثير»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا ذكره الله إثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله؛ بل بين سبحانه أنه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً بل هو قادر على فعل ما يشاء، بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها، ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح: «لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت فإن الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة»^(٣) وذلك أنه إنما

(١) جامع البيان (١٧/١٤).

(٢) المحرر الوجيز (٤/٧٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٤٣) والبخاري (١٣/٥٤٩/٧٤٧) ومسلم (٤/٢٠٦٣/٢٦٧٩) وأبو داود (٢/١٦٣/١٦٣).

(١٤٨٣) والترمذي (٥/٤٩١/٣٤٩٧) والنسائي في الكبرى (٦/١٥١/١٠٤١٩) وابن ماجه (٢/١٢٦٧).

(٣٨٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقال : افعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرها ، فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه ، والله تعالى لا مكره له ، فلا يفعل إلا ما يشاء ، فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ﴾^(١) و ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾^(٢) و ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾^(٣) ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على ما يشاء^(٤).

قال السعدي : «لكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها ، وإتقانها ، أحسن كل شيء يقدره العقل ، فلا يتوجه إليه سؤال ، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال .
﴿وَهُمْ﴾ أي : المخلوقين كلهم ﴿يُسْأَلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم ، لعجزهم وفقرهم ، ولكونهم عبيداً ، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم ، ولا في غيرهم مثقال ذرة»^(٥).

* * *

(١) الحج : الآية (١٨) .

(٣) المائدة : الآية (٤٠) .

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢١) .

(٢) آل عمران : الآية (١٢٩) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٢٥-٢٢٦) .

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

برهانكم: أي حجتكم ودليلكم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عطية: «قرره تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكره وبيان فساد، وفي هذا التقرير زيادة على الأول وهي قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ فكانهم قرره هنا على قصد الكفر بالله ﷻ، ثم دعاهم إلى الحجة والإتيان بالبرهان. وقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ يحتمل أن يريد به هذا جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها، أي ليس فيها برهان على اتخاذ آلهة من دون الله، بل فيها ضد ذلك، ويحتمل أن يريد هذا القرآن، والمعنى فيه ذكر الأولين والآخرين، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشرع لهم وردهم على طريق النجاة، وذكر الأولين بقص أخبارهم وذكر الغيوب في أمورهم، ومعنى الكلام على هذا التأويل عرض القرآن في معرض البرهان أي ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فهذا برهاني أنا ظاهر في ﴿ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾»^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ يعني القرآن ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ كما قال: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ

الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٢٤﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢) فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضا، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد» (٣).

قال السعدي: «رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخا ومقرعا: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلا؛ بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلتها العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها براهين وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه، علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعيا، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني عن الحق شيئا.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليدا لأسلافهم، يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، لتبين لهم الحق من الباطل تبينا واضحا جليا، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾» (٤).

قال تقي الدين الهلالي: «إن الله أنكر على المشركين اتخاذهم من دون الله آلهة، مع أن تلك الآلهة مخلوقة لا خالقة ومتصرف فيها لا متصرف، فلا تستطيع أن تخلق ذبابا ولو اجتمعت له، ولا تستطيع أن تميت حيا ولا أن تحيي ميتا، فيعسى والملائكة ومن عبد من الأنبياء والصالحين مخلوقون مريبون لا ينفعون ولا يضررون، فمن عبدهم خاسر في الدنيا والآخرة، وسيقول المشرك الجاهل نحن

(٢) النحل: الآية (٣٦).

(١) الزخرف: الآية (٤٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٣٠-٣٣١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٢٢).

لا نتخذ الصالحين آلهة ولا نعبدهم ، وقد تقدم الرد على هذا الادعاء في مواضع كثيرة ، ونزيد هنا فنقول : لو علمتم معنى لا إله إلا الله لعلمتم معنى العبادة ولأقررتم بأنكم اتخذتم آلهة من دون الله وعبدتموهم ، فإن كل من عبدته فقد اتخذته إلها ، والعبادة ما يتقرب به إلى الله تعالى كالدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير طريق الأسباب ، والخوف بالغيب والرجاء والتوكل والذبح والنذر وجعل التحليل والتحریم لهم إلى غير ذلك»^(١).

* * *

(١) سبيل الرشاد (٢/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحى إليه أنه لا معبود في السموات والأرض تصلح العبادة له سواي فاعبدون يقول: فأخلصوا لي العبادة وأفردوا لي الألوهية»^(١).

قال ابن عطية: «لما أخبرهم تعالى أنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أتبع ذلك بإعلامهم أنه ما أرسل قط رسولا إلا أوحى إليه أن الله تعالى فرد صمد، وهذه عقيدة لم تختلف فيها النبوات، وإنما اختلفت في الأحكام»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فبين أنه لا بد أن يوحى بالتوحيد إلى كل رسول، وقال تعالى: ﴿وَسَلَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾»^(٣) فبين أنه لم يشرع الشرك قط، فهذان النصان قد دلا على أنه أمر بالتوحيد لكل رسول، ولم يأمر بالإشراك قط، وقد أمر آدم وبنوه من حين أهبط باتباع هذاه الذي يوحى به إلى الأنبياء، فثبت أن علة الشرك كان من ترك اتباع الأنبياء والمرسلين فيما أمروا به من التوحيد والدين، لا أن الشرك كان علة للكفر بالرسول، فإن الإشراك والكفر بالرسول متلازمان في الواقع»^(٤).

قال ابن عاشور: «لما أظهر لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق لإعراضهم عن تلقيه أقبل على رسوله ﷺ بتأييد مقاله الذي لقنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرسل سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى ودادود، ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم.

(١) جامع البيان (١٧/١٥).

(٢) المحرر الوجيز (٤/٧٩).

(٣) الزخرف: الآية (٤٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/١٠٧).

وليس ذكر هذه الجملة لمجرد تقرير ما قبلها من أي التوحيد، وإن أفادت التقرير تبعاً لفائدتها المقصودة. وفيها إظهار لعناية الله تعالى بإزالة الشرك من نفوس البشر وقطع دابره لإصلاحاً لعقولهم بأن يزال منها أفظع خطل وأسخف رأي، ولم تقطع دابر الشرك شريعة كما قطعه الإسلام بحيث لم يحدث الإشراك في هذه الأمة^(١).

قلت: ما ذكره المفسر ابن عاشور أن الله في كتابه والرسول ﷺ في سنته حذراً من الشرك ووسائله وقطعا دابر ذلك؛ أمر لا مرية فيه. أما ما ذكره من عدم وقوع الشرك في هذه الأمة فبطلانه واضح جداً؛ بل بعد ذهاب القرون الأولى الفاضلة أغرق المسلمون في الشرك الأكبر وملئت الديار به، ولم تبق رقعة فيما أعلم إلا وامتلات بالشرك ومظاهره؛ بل لا توجد بادية ولا حاضرة إلا وتجد بها صنماً بادياً يقام فيه من الشرك وألوانه ما لا يقام للآلات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، من ذبح ونذر وطواف واستغاثة بالمقبور وتقيل للتراب والأعتاب والجدران، وإسراج للمصابيح، وقصد تلك الأوثان للعلاج على اختلاف التخصصات بزعمهم؛ فهذا للحمقى والمجانين، وذاك للمرضى بالحمى والصداع، وذلك للعقم والحنجرة والعيون، والآخر لزيادة الأرزاق... كأنك في أكبر المستشفيات العالمية التي جمعت كل التخصصات الطبية!

واستمر الحال على هذا المنوال حتى جاءت دعوة الإمام المصلح أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدي الدرعي، فظهرت ديار نجد من الوثنية والقبورية وغيرها، وهكذا انتشرت بالعالم الإسلامي، فكان لدعوته الأثر العظيم على تلك البقعة، إلا أن العلماء المرتزقة علماء المصالح والإتاوات ممن تحركهم قادة الشرك ودعائه، حملوا على هذه الدعوة المباركة دعوة التوحيد فوصفوها بما لا يليق بها؛ إذ الطعن فيها طعن في دعوة الرسول ﷺ التي تركز على اجتثاث جذور الشرك وعروقه في القول والعمل، لا كما قال هذا المفسر، فهذه غفلة أو جهل بواقع أقاليم العالم الإسلامي وما فيها من شركيات، حتى أصبح الصغير والكبير يقسمان بهذه الأصنام التي سموها أولياء، وهي لعمر الله إن كان أصحابها من الموحدين الأخيار فيستبرؤون يوم القيامة من عابديهم الذين صرفوا لهم ما الله به منفرد ومختص؛ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٢).

(١) التحرير والتنوير (١٧/٤٨-٤٩).

(٢) البقرة: الآية (١٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ردا على من زعم أن له تعالى وتقدس ولدا من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله»^(١).

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا -قبهم الله- أن الله اتخذ ولدا فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم عبيد مربيون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامثال لأوامره.

ف﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: مهما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٣-٢٢٤).

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن الكفار لعنهم الله قالوا عليه أنه اتخذ ولدا. وقد بينا ذلك فيما مضى بيانا شافيا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك. ﷺ عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وبين هنا بطلان ما ادعوه على ربهم من اتخاذ الأولاد وهم في زعمهم الملائكة بحرف الإضراب الإبطالي الذي هو ﴿بَل﴾ مبينا: أنهم عباده المكرمون، والعبد لا يمكن أن يكون ولدا لسيده. ثم أثنى على ملائكته بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقون ربهم بالقول أي لا يقولون إلا ما أمرهم أن يقولوه لشدة طاعتهم له ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ﴾ وما أشار إليه في هذه الآية الكريمة من أن الملائكة عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولدا لسيده أشار له في غير هذا الموضع، كقوله في البقرة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَدْنُوتٌ﴾^(١)، وقوله في النساء: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٢) أي والمالك بكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد. لأن الملك ينافي الولدية، ولا يمكن أن يوجد شيء سواء إلا وهو ملك له - جل وعلا -.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة: من الثناء الحسن على ملائكته عليهم صلوات الله وسلامه بينه في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا مَلَكُوتُ غَلَاطٍ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ ﴿١٥﴾﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۖ ﴿١٦﴾﴾^(٥) يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴿١٧﴾﴾^(٦) إلى غير ذلك من الآيات»^(٦).

* * *

(٢) النساء: الآية (١٧١).

(١) البقرة: الآية (١١٦).

(٣) التحريم: الآية (٦).

(٥) الأنبياء: الآيتان (١٩-٢٠).

(٤) الانقطار: الآية (١٠).

(٦) أضواء البيان (٤/ ٥٦٠-٥٦١).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : يعلم ما بين أيدي الملائكة ما لم يبلغوه ما هو، وما هم فيه قائلون وعاملون، وما خلفهم: يقول: وما مضى من قبل اليوم مما خلفوه ورائهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء»^(١).

قال البقاعي: «أي مما لم يعملوه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما عملوه، أو يكون الأول لما عملوه والثاني لما لم يعملوه، لأنك تطلع على ما قدامك ويخفى عليك ما خلفك، أي أن علمه محيط بأحوالهم ماضيا وحالا ومآلا، لا يخفى عليه خافية»^(٢).

قال الرازي: «ذكر المفسرون فيه وجوها:

أحدها: قال ابن عباس: يعلم ما قدموا وما أخرجوا من أعمالهم.

وثانيها: ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك.

وثالثها: قال مقاتل: يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم.

وحقيقة المعنى أنهم يتقلبون تحت قدرته في ملكوته وهو محيط بهم، وإذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدي الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له»^(٣).

قال السعدي: «أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتديره»^(٤).

* * *

(٢) نظم الدرر (١٢/٤٠٩).

(١) جامع البيان (١٦/١٧).

(٣) تفسير الرازي (٢٢/١٦٠-١٦١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

★ غريب الآية:

مشفقون: من الإشفاق وهو عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «ومن جزئيات وصفهم، بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصا لوجهه، متبعا فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله»^(١).

قال ابن عاشور: «قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ تخصيص بالذكر لبعض ما شمله قوله تعالى: ﴿لَا يَسْقُفُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ اهتماما بشأنه لأنه مما كفروا بسببه إذ جعلوا الآلهة شفعاء لهم عند الله، وحذف مفعول (ارتضى) لأنه عائد صلة منصوب بفعل، والتقدير: لمن ارتضاه، أي ارتضى الشفاعة له بأن يأذن الملائكة أن يشفعوا له إظهارا لكرامتهم عند الله أو استجابة لاستغفارهم لمن في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) في سورة الشورى. وذلك الاستغفار من جملة ما خلقوا لأجله، فليس هو من التقدم بالقول.

ثم زاد تعظيمهم ربهم تقريراً بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي هم يعظمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٤).

(٢) الشورى: الآية (٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٥١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شفاعة النبي ﷺ للخلائق، والفرق بين الشفاعة المنفية والمثبتة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتني رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الناس - الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي ﷻ قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس. اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا، ألا ترى إلى

ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمدا ﷺ فيقولون. يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي ﷻ. ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو: كما بين مكة وبصري^(١).

★ غريب الحديث:

نهس: النهس الأخذ بطرف الأسنان. وقال ثعلب: هو بالمهملة الأخذ بالأطراف، وبالمعجمة الأخذ بالأضراس. وقال غيره: هو نثر اللحم.

يشفع لكم: الشفاعة: أصلها الضم والجمع. ومنه: ناقة شفوع؛ إذا جمعت بين حلبتين في حلبه واحدة. وناقة شافع؛ إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها. والشفع: ضم واحد إلى واحد. والشفعة: ضم ملك الشريك إلى ملكك. فالشفاعة إذن: ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك. فهي على التحقيق: إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، وإيصال منفعة إلى المشفوع له^(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم

(١) أخرجه: أحمد (٤٣٥-٤٣٥/٢) والبخاري (٥٠٤-٥٠٤/٨) ومسلم (١٨٤/١-١٨٦/١٩٤) والترمذي (٥٣٧-٥٣٧/٤) والنسائي في الكبرى (٣٧٨-٣٧٩/٦) وابن ماجه مختصرا (٣٣٠٧/١٠٩٩/٢).

(٢) المفهم (٤٢٨/١).

القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه، أو نفسه»^(١).

* عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ تلا قول الله ﻻ إِلَهَ إِلَّا لِي أَرَضَى فقال ﷺ : «إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٢).

★ فوائد الأحاديث:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين، وقد قيل إن بعض أهل البدع ينكرها.

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها، وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب. وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن الله يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم، يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره، ويخرج قوما بلا شفاعاة.

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفَعُوا يَوْمًا لَا تُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾^(٣) وبقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾^(٤) وبقوله: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾^(٥) وبقوله:

(١) أخرجه: أحمد (٣٠٧/٢) و٣٧٣ و٥١٨ والبخاري (٩٩/٢٥٧) والنسائي في الكبرى (٤٢٦-٤٢٧/٣). (٥٨٤٢).

(٢) أخرجه: الحاكم (٣٨٢/٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «على شرط مسلم». وأخرجه بدون ذكر: الآية: الترمذي (٢٤٣٦/٥٤٠/٤) وابن ماجه (١٤٤١/٢). (٤٣١٠) وصححه ابن حبان (١٤/٣٨٦/٦٤٦٧) والحاكم (١/٦٩).

(٣) البقرة: الآية (٤٨).

(٤) البقرة: الآية (١٢٣).

(٥) البقرة: الآية (٢٥٤).

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(١) ويقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٢).

وجواب أهل السنة بأن هذا يراد به شيان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالى في نعتهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾^(٣) قالوا لَرَنَّا نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ^(٤) وَلَرَنَّا نَكُ نَطْمُ الْيَسْكِينَ^(٥) وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ^(٦) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ^(٧) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ^(٨) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ^(٩) ﴿^(١٠) فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفى الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع: من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاضة.

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة.

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١١) وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(١٢).

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله، وذم المشركين عليها وكفرهم

(٢) المدثر: الآية (٤٨).

(٤) البقرة: الآية (٢٥٥).

(١) غافر: الآية (١٨).

(٣) المدثر: الآيات (٤٢-٤٨).

(٥) النجم: الآية (٢٦).

بها . قال الله تعالى عن قوم نوح : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (١) . قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم (٢) ، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره ، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها ، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها ، وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل علي بن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ، ولا تماثلاً إلا طمسه ومحاه ، ولعن المصورين . وعن أبي الهياج الأسدي : قال لي علي بن أبي طالب : « لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألا تدع تماثلاً إلى طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » . وفي لفظ : « ولا صورة إلى طمستها » (٣) (٤) .

وقد تقدمت مباحث الشفاعة في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (٥) .

* * *

(١) نوح : الآيتان (٢٣ و ٢٤) .

(٢) البخاري (٨/ ٨٦٢ / ٤٩٢٠) .

(٣) أخرجه : أحمد (١/ ٣٦) ومسلم (٢/ ٦٦٦ / ٩٦٩) وأبو داود (٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩ / ٣٢١٨) والترمذي (٣/ ٣٦٦ / ١٠٤٩) والنسائي (٤/ ٣٩٣ / ٢٠٣٠) .

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٤٨ - ١٥٢) .

(٥) البقرة : الآية (٢٥٥) .

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ومن يقل من الملائكة: إني إله من دون الله ﴿فَذَلِكَ﴾ الذي يقول ذلك منهم ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يقول: نثيبه على قيله ذلك جهنم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يقول: كما نجزي من قال من الملائكة: إني إله من دون الله جهنم كذلك نجزي ذلك كل من ظلم نفسه فكفر بالله وعبد غيره .
وقيل: عني بهذه الآية إبليس وقال قائلو ذلك: إنما قلنا ذلك لأنه لا أحد من الملائكة قال: إني إله من دون الله سواه»^(١).

قال ابن عطية: «المعنى من يقل منهم كذا أن لو قاله وليس منهم من قال هذا، وقال بعض المفسرين المراد بقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ﴾ الآية، إبليس .
قال القاضي أبو محمد: هذا ضعيف لأن إبليس لم يرو قط أنه ادعى ربوبية»^(٢).
قال الشنقيطي: «الضمير في قوله: ﴿مَنْهُمْ﴾ عائد إلى الملائكة المذكورين في قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾»^(٣) والمعنى: أنهم مع كرامتهم على الله لو ادعى أحد منهم أن له الحق في صرف شيء من حقوق الله الخاصة به إليه لكان مشركا، وكان جزاؤه جهنم . ومعلوم أن التعليق يصح فيما لا يمكن ولا يقع . كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾^(٤) الآية، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٥) والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك . وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره - جل وعلا - هنا في شأن الملائكة، ذكره أيضًا في شأن الرسل على الجميع صلوات الله وسلامه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٦).

(٢) المحرر الوجيز (٧٩/٤).

(٤) الزخرف: الآية (٨١).

(٦) الزمر: الآية (٦٥).

(١) جامع البيان (١٧/١٧).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٦).

(٥) الأنبياء: الآية (٢٢).

ولما ذكر -جل وعلا- من ذكر من الأنبياء في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾^(١) إلى آخر من ذكر منهم قال بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآية دليل قاطع على أن حقوق الله الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيء منها لأحد ولو ملكا مقربا، أو نبيا مرسلا. ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلشِّرْكِ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى مخاطبا لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَتٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٤)،^(٥).

قال السعدي: «فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضا أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟»^(٦).

قال ابن عاشور: «وفي هذا إبطال لدعوى عامة النصارى إلهية عيسى عليه السلام، وأنهم يقولون عليه ما لم يقله. ثم صرح بما اقتضاه التعريض فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو جهنم يجزي المثبتين لله شريكا. والظلم: الشرك»^(٧).

* * *

(٢) الأنعام: الآية (٨٨).

(٤) آل عمران: الآية (٦٤).

(١) الأنعام: الآية (٨٤).

(٣) آل عمران: الآيتان (٨٠ و ٧٩).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٦١-٥٦٢).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٤).

(٧) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٢).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾

★ غريب الآية:

رتقًا : الرتق : أصله الضم والالتحام . خلافه الفتق . فهو الفصل بين المتصلين .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بالله بأبصار قلوبهم، فيروا بها ويعلموا أن السموات والأرض كانتا رتقا: يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين، يقال منه: رتق فلان الفتق: إذا شده، فهو يرتقه رتقا ورتوقا. ومن ذلك قيل للمرأة التي فرجها ملتحم: رتقاء، ووحد الرتق، وهو من صفة السماء والأرض، وقد جاء بعد قوله: ﴿كَانَتَا﴾ لأنه مصدر، مثل قول الزور والصوم والفطر.

وقوله: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ يقول: فصدعناهما وفرجناهما.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله السموات والأرض بالرتق، وكيف كان الرتق، وبأي معنى فتق؟ فقال بعضهم: عني بذلك أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين، ففصل الله بينهما بالهواء.. وقال آخرون: بل معنى ذلك أن السموات كانت مرتتقة طبقة، ففتقها الله فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة ففتقها، فجعلها سبع أرضين.. وقال آخرون: بل عني بذلك أن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كذلك رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات.. وقال آخرون: إنما قيل: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ لأن الليل كان قبل النهار، ففتق النهار.. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث، والأرض بالنبات.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في ذلك لدلالة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ على ذلك، وأنه -جل ثناؤه- لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدمه من ذكر أسبابه.

فإن قال قائل: فإن كان ذلك كذلك فكيف قيل: ﴿أَوَّلَ يَرَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ والغيث إنما ينزل من السماء الدنيا؟ قيل: إن ذلك مختلف فيه، قد قال قوم: إنما ينزل من السماء السابعة. وقال آخرون: من السماء الرابعة، ولو كان ذلك أيضًا كما ذكرت من أنه ينزل من السماء الدنيا لم يكن في قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ دليل على خلاف ما قلنا؛ لأنه لا يمتنع أن يقال السموات والمراد منها واحدة فتجمع؛ لأن كل قطعة منها سماء، كما يقال: ثوب أخلاق، وقميص أسمال.

فإن قال قائل: وكيف قيل إن السموات والأرض كانتا، فالسموات جمع، وحكم جمع الإناث أن يقال في قليله كن، وفي كثيره كانت؟ قيل: إنما قيل كذلك لأنهما صنفان، فالسموات نوع، والأرض آخر، وذلك نظير قول الأسود بن يعفر:

إن المنية والحتوف كلاهما توفي المخارم يرقبان سوادي

فقال كلاهما وقد ذكر المنية والحتوف لما وصفت من أنه عنى النوعين، وقد أخبرت عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: أنشدني غالب النفيلي للقطامي:

ألم يحزنك أن حبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

فجعل حبال قيس وهي جمع، وحبال تغلب وهي جمع اثنين^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات فقال: ﴿أَوَّلَ يَرَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه، ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا أي: كان الجميع متصلا بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعا، والأرض

(١) جامع البيان (١٧/١٨-٢٠).

سبعاً ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض^(١).

قال الشنقيطي: «الاستفهام لتوبيخ الكفار وتقريعهم ، حيث يشاهدون غرائب صنع الله وعجائبه ، ومع هذا يعبدون من دونه ما لا ينفع من عبده ، ولا يضر من عصاه ، ولا يقدر على شيء».

وقوله: ﴿كَانَّا﴾ التثنية باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء ، ونوع الأرض . كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَسُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(٢) ونظيره قول عمر بن شبيب: ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينت انقطاعاً والرتق مصدر رتقه رتقا : إذا سده . ومنه الرتقاء . وهي التي انسدت فرجها ، ولكن المصدر وصف به هنا ولذا أفردته ولم يقل كانتا رتقين . والفتق : الفصل بين الشيئين المتصلين . فهو ضد الرتق . ومنه قول الشاعر :

يهوون عليهم إذا يغضبون ن سخط العداة وإرغامها
ورتن الفتوق وفتق الرتو ق ونقض الأمور وإبرامها
واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالرتق والفتق في هذه الآية على خمسة أقوال ، بعضها في غاية السقوط ، وواحد منها تدل له قرائن من القرآن العظيم :

الأول : أن معنى ﴿كَانَّا رَتَقًا﴾ أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض ، ففتقها الله وفصل بين السموات والأرض ، فرفع السماء إلى مكانها ، وأقر الأرض في مكانها ، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى .

القول الثاني : أن السموات السبع كانت رتقا . أي متلاصقة بعضها ببعض ، ففتقها الله وجعلها سبع سموات ، كل اثنتين منها بينهما فصل ، والأرضون كذلك كانت رتقا ففتقها ، وجعلها سبعاً بعضها منفصل عن بعض .

القول الثالث : أن معنى ﴿كَانَّا رَتَقًا﴾ أن السماء كانت لا ينزل منها مطر ، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات ، ففتق الله السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٢).

(٢) فاطر : الآية (٤١).

الرابع: أنها ﴿كَانَّا رَتْقًا﴾ أي في ظلمة لا يرى من شدتها شيء ففتقهما الله بالنور. وهذا القول في الحقيقة يرجع إلى القول الأول، والثاني.

الخامس: وهو أبعدها لظهور سقوطه. أن الرتق يراد به العدم. والفتق يراد به الإيجاد. أي كانتا عدما فأوجدناهما. وهذا القول كما ترى.

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية، فاعلم أن القول الثالث منها وهو كونهما كانتا رتقا بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت شيئاً ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى:

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك.

لأن الأظهر في رأى أنها بصرية، والذي يروونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها. فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١). والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله. أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي.

القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ۖ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّالِخِ ۖ﴾^(٢) لأن المراد بالرجع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات. وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَّا صَبَّأْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ﴾^(٣) الآية. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية وغيرهما للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. والذين قالوا: إن المراد بالرتق والفتق أنهما كانتا متلاصقتين ففتقهما الله وفصل بعضهما عن بعض قالوا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ أنها من رأى العلمية لا البصرية، وقالوا: وجه

(١) الأنبياء: الآية (٣٠).

(٢) الطارق: الآيتان (١١ و ١٢).

(٣) عبس: الآيات (٢٤-٢٦).

تقريرهم بذلك أنه جاء في القرآن، وما جاء في القرآن فهو أمر قطعي لا سبيل للشك فيه. والعلم عند الله تعالى.

وأقرب الأقوال في ذلك هو ما ذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه، وقد قال فيه الفخر الرازي في تفسيره: ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح. لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا.

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء. كما يقال ثوب أخلاق، وبرمة أعشار^(٢).

قال السعدي: «أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض فيجدونهما رتقا، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [أليس ذلك] دليلا على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟»^(٣).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٣٠).

(٢) أضواء البيان (٤/٥٦٢-٥٦٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اختلف المفسرون، فقال بعضهم: المراد من قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الحيوان فقط، وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر، وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا، حجة القول الأول أن النبات لا يسمى حيا، قلنا: لا نسلم والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(١) أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبه غيره، ويتركوا طريقة الشرك»^(٢).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن (جعل) هنا بمعنى خلق. لأنها متعدية لمفعول واحد. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾^(٣).

واختلف العلماء في معنى خلق كل شيء من الماء. قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطفة، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء. وإما غير مباشرة لأن النطفة من الأغذية، والأغذية كلها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسمان ونحوها: لأنه كله ناشئ بسبب الماء.

(١) الروم: الآية (٥٠).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/١٦٥).

(٣) النور: الآية (٤٥).

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوان من ماء: أنه كأنما خلقه من الماء لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه. كقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(١) إلى غير ذلك من الأقوال. وقد قدمنا المعاني الأربعة التي تأتي لها لفظة (جعل) وما جاء منها في القرآن وما لم يجر فيه في سورة النحل^(٢).

قال ابن عاشور: «استدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار وفيه عبرة للناس في أكثر أحواله. وهو عبرة للمتأملين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات. وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان فإنه لا يتكون إلا من الرطوبة ولا يعيش إلا ملابساً لها فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة، ولذلك كان استمرار الحمى مفضياً إلى الهزال ثم إلى الموت.

(وجعل) هنا بمعنى خلق، متعدية إلى مفعول واحد لأنها غير مراد منها التحول من حال إلى حال.

و﴿يَنْ أَلَمَاءٍ﴾ متعلق بـ ﴿جَعَلْنَا﴾. و(من) ابتدائية. وفرع عليه ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكاراً عليهم عدم إيمانهم بالإيمان الذي دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بوحداية الله^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قدرة الله تعالى تتجلى في الماء الذي كان مصدراً للخلق ولا تتم الحياة إلا به

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «الماء: مادة الحياة، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم، بل

(١) الأنبياء: الآية (٣٧).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٥٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٥) وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٦١/ ٥٠٨) دون ذكر محل الشاهد، والحاكم (٤/ ١٦٠) ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٦) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح خلا أبي ميمونة وهو ثقة».

ركنه الأصلي، فإن السموات خلقت من بخاره، والأرض من زبده، وقد جعل الله منه كل شيء حي^(١).

وقال ابن رجب: «حديث أبي هريرة يدل على أن الماء مادة جميع المخلوقات، وقد دل القرآن على أن الماء مادة جميع الحيوانات قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾^(٢) وقول من قال: أن المراد بالماء النطفة التي يخلق منها الحيوانات بعيد لوجهين أحدهما: أن النطفة لا تسمى ماء مطلقا بل مقيدا لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(٣) يخرج من بين الصلب والترائب ﴿٧﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾^(٤) والثاني: أن من الحيوانات ما يتولد من غير نطفة كدود الخل والفاكهة ونحو ذلك، فليس كل حيوان مخلوقا من نطفة، والقرآن دل على خلق جميع ما يدب وما فيه حياة من ماء، فعلم بذلك أن أصل جميعها الماء المطلق، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَلَبَّائُنَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّجُورِ﴾^(٥) وقول النبي ﷺ: «خلقت الملائكة من نور»^(٦) فإن حديث أبي هريرة دل على أن أصل النار والماء، كما أن أصل التراب الذي خلق منه آدم الماء، فإن آدم خلق من طين، والطين تراب مختلط بماء، أو التراب خلق من الماء كما تقدم عن ابن عباس وغيره، وزعم مقاتل: أن الماء خلق من النور وهو مردود بحديث أبي هريرة هذا وغيره، ولا يستنكر خلق النار من الماء، فإن الله ﷻ جمع بقدرته بين الماء والنار في الشجر الأخضر، وجعل ذلك من أدلة القدرة على البعث، وذكر الطبائعيون أن الماء بانحداره يصير بخارا، والبخار ينقلب هواء والهواء ينقلب نارا والله أعلم^(٧).

قلت: المسلم العاقل يقف في الأمور الغيبية الموقف الذي يليق به، وهو أن ما أخبر به الله أو أخبر به الرسول ﷺ؛ لا شك في صدقه وأنه العليم الخبير، والرسول ﷺ مخبر عن الله، فخبيره كله صدق، وما سوى ذلك لا يجزئ المسلم على شيء

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٨٨).

(٢) النور: الآية (٤٥).

(٣) الطارق: الآيتان (٧٦ و٧).

(٤) المرسلات: الآية (٢٠).

(٥) الحجر: الآية (٢٧).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٣) ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٧) لطائف المعارف (ص ٢٦ - ٢٧).

منه ، فإذا أخبر الرسول ﷺ بأن الملائكة خلقت من نور فيبقى الحديث على ظاهره ، وإذا أخبر الله عن الجن بأنهم خلقوا من نار فتبقى الآية على ظاهرها ، فلا حاجة بنا إلى قول المفسرين في إرجاع النور والنار إلى الماء بما لا دليل عليه من الكتاب والسنة ، ويبقى معنى الآية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي : ما للمياه فيه أثر ، سواء كان في أصله أو في إخراجِه وانتعاشه كالنبات والأشجار ونحوها ، وكل ما يدب على الأرض فأصله من الماء بلا نزاع سواء كان من الإنسان أو الحيوانات ، فكل هذه الأشياء ثبت بالنظر أنها من الماء ، فمن تمام التصديق الوقوف على النص ، وعدم تجاوزه بالتكلفات الباردة التي يسلكها بعض الشراح عافاهم الله ورحمهم .



قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٣١﴾

★ غريب الآية:

رواسي: جبال. وأصل الرسو: الثبوت، من رست السفينة: إذا وقفت وثبتت.
تميد: تتحرك وتضطرب.
فجاجا: جمع فج، وهو المفرج الواسع بين الجبلين.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها، لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربيع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات ولهذا قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي لئلا تميد بهم وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: ثغرا في الجبال يسلكون فيها طريقاً من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(١).

قال السعدي: «أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالا كثيرا جدا، فلو بقيت بحالها،

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٣).

جبالا شامخات، وقللا باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.
فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاءا سبلا أي: طرقا سهلة
لا حزنة، لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون
بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ للأرض مسموكا قوله: ﴿مَحْفُوظًا﴾ يقول: حفظناها من كل شيطان رجيم.. وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ يقول: هؤلاء المشركون عن آيات السماء، ويعني بآياتها شمسها وقمرها ونجومها ﴿مُعْرِضُونَ﴾: يقول: يعرضون عن التفكير فيها، وتدبر ما فيها من حجج الله عليهم، ودلالاتها على وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبرها وسواها ولا تصلح إلا له»^(١).

قال القرطبي: «بين أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا، فيستحيل أن يكون له شريك»^(٢).

قال ابن عاشور: «لما ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه، إلا أن حالة خلق الأرض فيها منافع للناس. فعقب ذكرها بالامتنان بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وأما حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان، ولكنه ذكر إعراضهم عن التدبر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعقب بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. فأدمج في خلال ذلك منة وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض، فتعطل منافعها، فذلك إدماج للمنة في خلال الغرض المقصود الذي لا مندوحة عن العبرة به»^(٣).

(٢) جامع أحكام القرآن (٦/ ٢٨٥).

(١) جامع البيان (١٧/ ٢١-٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٨).

قال الشنيطي: «تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الله - جل وعلا - جعل السماء سقفا، أي لأنها للأرض كالسقف للبيت.

الثانية: أنه جعل ذلك السقف محفوظا.

الثالثة: أن الكفار معرضون عما فيها (أي السماء) من الآيات، لا يتعظون به ولا يتذكرون. وقد أوضح هذه المسائل الثلاث في غير هذا الموضع.

أما كونه جعلها سقفا، فقد ذكره في سورة الطور أنه مرفوع، وذلك من قوله:

﴿وَالطُّورِ ۝ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝﴾ الآية^(١).

وأما كون ذلك السقف محفوظا فقد بينه في مواضع من كتابه، فبين أنه محفوظ من السقوط في قوله: ﴿وَيُؤَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾^(٦) على قول من قال: وما كنا عن الخلق غافلين. إذ لو كنا نغفل لسقطت عليهم السماء فأهلكتهم. وبين أنه محفوظ من التشقق والتفطر، لا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر السقوف إذا طال زمنها. كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(٨) أي ليس فيها من شقوق ولا صدوع. وبين أن ذلك السقف المذكور محفوظ من كل شيطان رجيم. كقوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(٩).

(١) الطور: الآيات (١-٥).

(٢) الحج: الآية (٦٥).

(٣) فاطر: الآية (٤١).

(٤) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٥) المؤمنون: الآية (١٧).

(٦) ق: الآية (٦).

(٧) الحجر: الآية (١٧).

وأما كون الكفار معرضين عما فيها من الآيات فقد بينه في مواضع من كتابه . كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ ^(٢) الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿ ^(٤) وقوله : ﴿ وَمَا تُفْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٥) .

* * *

(١) يوسف : الآية (١٠٥) .

(٢) القمر : الآية (٢) .

(٣) يونس : الآيتان (٩٦ و٩٧) .

(٤) يونس : الآية (١٠١) .

(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٦٦-٥٦٧) .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

★ غريب الآية:

فلك: أصل الفلك: كل شيء دائر. والفلك أيضًا: مجرى الكواكب.
يسبحون: يجرون. وأصل السَّبح: المرُّ السريعُ في الماءِ أو الهواءِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واللَّه الذي خلق لكم أيها الناس الليل والنهار، نعمة منه عليكم وحجة، ودلالة على عظيم سلطانه، وأن الألوهة له دون كل ما سواه فهما يختلفان عليكم لصلاح معاشكم وأمور دنياكم وآخرتكم، وخلق الشمس والقمر أيضًا، كل في فلك يسبحون، يقول: كل ذلك في فلك يسبحون»^(١).
قال ابن كثير: «قال منبها على بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياءه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذه لها نور يخصصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يدورون»^(٢).

قال السعدي: «وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثابت والسيارات، وشمسها، وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائما في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم،

(١) جامع البيان (٢٢/١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٣٤).

ويستريحون في ليلهم ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزماً لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل، ويفنيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٢٤) كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: وما جعلنا أحدا من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك من رسلنا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك؟ لا! ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكل حال، عشت أو مت، فأدخلت الفاء في إن وهي جزاء، وفي جوابه؛ لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت أيضا في قوله فهم لأنه جواب للجزاء، ولو لم يكن في قوله (فهم) الفاء جاز على وجهين: أحدهما: أن تكون محذوفة وهي مرادة، والآخر أن يكون مرادا تقديمها إلى الجزاء، فكانه قال: أفهم الخالدون إن مت.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ يقول - تعالى ذكره -: كل نفس منفوسة من خلقه، معالجة غصص الموت، ومتجرعة كأسها.

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يقول - تعالى ذكره -: ونختبركم أيها الناس بالشر، وهو الشدة نبتليكم بها وبالخير، وهو الرخاء والسعة والعافية، فنفتنكم به^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرِّ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾ أي في الدنيا بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٥﴾» (٢) وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر ﷺ مات وليس بحي إلى الآن لأنه بشر، سواء كان وليا أو نبيا أو رسولا، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وقوله: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ أي يا محمد ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي

(١) جامع البيان (١٧/٢٤).

(٢) الرحمن: الآيتان (٢٦ و ٢٧).

يؤمنون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقد روي عن الشافعي رحمته الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي ينبغي خلاف الذي مضى تهياً لأخرى مثلها فكان قد

وقوله: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعيم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط^(١).

قال السعدي: «لما كان أعداء الرسول يقولون تربصوا به ريب المنون. قال الله تعالى: هذا طريق مسلوک، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسبيل أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أَفَيَأْتِيَن مَتَّ فَهُمْ الْخُلْدُونَ﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢) وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية^(٣).

قال ابن عاشور: «عنيت الآيات من أول السورة باستقصاء مطاعن المشركين في القرآن ومن جاء به بقولهم: ﴿أَفَنُتَأْتُونَ السَّحَرَةَ وَأَتُمْ بُعِثُونَ﴾^(٤) وقولهم: ﴿أَصْخَفَتْ أَحْلَمَ بِكَ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾^(٥) وكان من جملة أمانتهم لما أعياهم اختلاق المطاعن أن كانوا يتمنون موت محمد ﷺ أو يرجونه أو يدبرونه قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ

(٢) فصلت: الآية (٤٦).

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٣٥).

(٤) الأنبياء: الآية (٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٢٨-٢٢٩).

(٥) الأنبياء: الآية (٥).

نَرْبِصُ بِهِ رَبِّ الْمُنُونِ ﴿١٠﴾^(١) في سورة الطور وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾^(٢) في الأنفال.

وقد دل على أن هؤلاء هم المقصود من الآية قوله تعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ فلما كان تمنيه موتهم وتربصهم به ريب المنون يقتضي أن الذين تمنوا ذلك وتربصوا به كأنهم واثقون بأنهم يموتون بعده فتتم شماتتهم، أو كأنهم لا يموتون أبدا فلا يشمت بهم أحد، وجه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم خالدون.

وفي الآية إيماء إلى أن الذين لم يقدر الله لهم الإسلام ممن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبي ﷺ فلا يشمتون به فإن الرسول ﷺ لم يمت حتى أهلك الله رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيتهم إلى الإسلام^(٣).

قال الشنقيطي: «قال بعض أهل العلم: كان المشركون ينكرون نبوته ﷺ ويقولون: هو شاعر يتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان. فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحيطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك.

وقال بعض أهل العلم: لما نعي جبريل إلى النبي ﷺ نفسه قال: «فمن لأمتي؟» فنزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ والأول أظهر. لأن السورة مكية: ومعنى الآية: أن الله لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد أي دوام البقاء في الدنيا، بل كلهم يموت. وقوله: ﴿أَفَأَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي. والمعنى: أنك إن مت فهم لن يخلدوا بعدك، بل سيموتون. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وما أشار إليه -جل وعلا- في هذه الآية من أنه ﷺ سيموت، وأنهم سيموتون، وأن الموت ستذوقه كل نفس أوضحه في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٤)، كقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحَّجَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾^(٥)، وقوله

(١) الطور: الآية (٣٠).

(٢) الأنفال: الآية (٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/٦٢-٦٣).

(٤) الزمر: الآية (٣٠).

(٥) آل عمران: الآية (١٨٥).

في سورة العنكبوت: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ (٥٦) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧) (١)، وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الآيات. . . وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿أَفَأَمِنَ مَنَ فَهُمُ الْمُخْلَدُونَ﴾ يفهم منه أنه لا ينبغي للإنسان أن يفرح بموت أحد لأجل أمر دنيوي يناله بسبب موته. لأنه هو ليس مخلدا بعده. . .

قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. المعنى: ونختبركم بما يجب فيه الصبر من البلياء، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وقوله: ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لـ ﴿وَبَلَّوْكُمْ﴾ من غير لفظه.

وما ذكره -جل وعلا-: من أنه يتلى خلقه أي يختبرهم بالشر والخير قد بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَيَلْوَنُهُمُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٦) ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٨) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلِهَتُنَا الضَّرَّةُ وَالسَّرَّةُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) (٤) إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يدل على أن بلا يبلو تستعمل في الاختبار بالنعم، وبالمصائب والبلياء. وقال بعض العلماء: أكثر ما يستعمل في الشر بلا يبلو، وفي الخير أبلى يبلو.

وقد جمع اللغتين في الخير قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو (٥).

(١) العنكبوت: الآيتان (٥٦ و٥٧).

(٣) الأعراف: الآية (١٦٨).

(٥) الأعراف: الآيتان (٩٤ و٩٥).

(٢) النساء: الآية (٧٨).

(٤) الأنعام: الآيات (٤٢-٤٥).

(٦) أضواء البيان (٤/٥٦٧-٥٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفِرُونَ﴾ ﴿٣١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللّه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يقول: ما يتخذونك إلا سخريا، يقول بعضهم لبعض ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعني بقوله: يذكر آلهتهم بسوء ويعيبها، تعجبا منهم من ذلك، يقول اللّه - تعالى ذكره - : فيعجبون من ذكرك يا محمد آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بسوء ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ﴾ الذي خلقهم وأنعم عليهم، ومنه نفعهم، وبيده ضرهم، وإليه مرجعهم بما هو أهله منهم أن يذكره به كفرون، والعرب تضع الذكر موضع المدح والذم، فيقولون: سمعنا فلانا يذكر فلانا، وهم يريدون سمعناه يذكره بقبیح ويعيبه ومن ذلك قول عترة:

لا تذكرني مهري وما أطعمته
فيكون جلدك مثل جلد الأجر
يعني بذلك: لا تعيبي مهري، وسمعناه يذكر بخير»^(١).

قال السعدي: «وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ استهزأوا به وقالوا: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: هذا المحقر بزعمهم، الذي يسب آلهتهم ويذمها، ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

هذا استهزاؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل الذي من فضائله ومكارمه إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله فصاروا بذلك، من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم كفرون

بها ، لأنهم لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون ، فذكرهم كفر وشرك ، فكيف بأحوالهم بعد ذلك ؟ ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ هنا ، بيان لقباحة حالهم ، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها ، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك^(١) .

قال الشنقيطي : « ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة : أن الكفار إذا رأوا النبي ﷺ ما يتخذونه إلا هزوا ، أي مستهزأ به مستخفا به . والهزؤ : السخرية ، فهو مصدر وصف به . ويقولون : أهذا الذي يذكر آلهتكم أي يعيها وينفي أنها تشفع لكم وتقربكم إلى الله زلفى ، ويقول : إنها لا تنفع من عبدها ، ولا تضر من لم يعبدها ، وهم مع هذا كله كافرون بذكر الرحمن . فالخطاب في قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاكَ ﴾ للنبي ﷺ . . »

وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار ؛ لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر ، ويسوءهم أن تذكر بسوء ، أو يقال إنها لا تشفع ولا تقرب إلى الله . وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوجدانية فهم به كافرون لا يصدقون به ، فهم أحق بأن يتخذوا هزوا من النبي ﷺ الذي اتخذه هزوا ، فإنه محق وهم مبطلون .

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة فاعلم أن هذا المعنى الذي دلت عليه جاء أيضًا مبيناً في سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُوكَ إِلَّا هُزُوًا أَمَدًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ۝ ﴾^(٢) فتحقيرهم لعنهم الله له ﷺ المذكور في قوله في الأنبياء في قوله : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ هو المذكور في الفرقان في قوله : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾^(٣) أي لما يبين من معائبها ، وعدم فائدتها ، وعظم ضرر عبادتها^(٤) .

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٩-٢٣٠) .

(٢) الفرقان : الآية (٤٢) .

(٣) الفرقان : الآيتان (٤١ و ٤٢) .

(٤) أضواء البيان (٤/ ٥٧٠-٥٧٢) .

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٧٦)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يعني آدم ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ . واختلف أهل التأويل في تأويله ، فقال بعضهم : معناه : من عجل في بنيته وخلقه ، كان من العجلة ، وعلى العجلة . . وقال آخرون : معناه : خلق الإنسان من عجل : أي من تعجيل في خلق الله إياه ومن سرعة فيه وعلى عجل ، وقالوا : خلقه الله في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس على عجل في خلقه إياه قبل مغيبها . . وقال بعض أهل العربية من أهل البصرة ممن قال نحو هذه المقالة : إنما قال : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ وهو يعني أنه خلقه من تعجيل من الأمر ، لأنه قال : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢١) قال : فهذا العجل . وقوله : ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ وعلى قول صاحب هذه المقالة ، يجب أن يكون كل خلق الله خلق على عجل ، لأن كل ذلك خلق بأن قيل له كن فكان . فإذا كان ذلك كذلك ، فما وجه خصوص الإنسان إذا بذكر أنه خلق من عجل دون الأشياء كلها ، وكلها مخلوق من عجل ، وفي خصوص الله - تعالى ذكره - الإنسان بذلك الدليل الواضح ، على أن القول في ذلك غير الذي قاله صاحب هذه المقالة .

وقال آخرون منهم : هذا من المقلوب ، وإنما خلق العجل من الإنسان ، و خلقت العجلة من الإنسان . وقالوا : ذلك مثل قوله : ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ (١) وإنما هو لتواء العصبه بها متثاقلة ، وقالوا : هذا وما أشبهه في كلام العرب كثير مشهور ، قالوا : وإنما كلم القوم بما يعقلون ، قالوا : وذلك مثل قولهم : عرضت الناقة ، وكقولهم : إذا طلعت الشعري واستوت العود على الحرباء : أي استوت الحرباء على العود ، كقول الشاعر :

وتركب خيلا لا هوادة بينها وتشفى الراح بالضباطرة الحمر

وكقول ابن مقبل :

حسرت كفي عن السربال آخذه فردا يجر على أيدي المفدينا
يريد: حسرت السربال عن كفي، ونحو ذلك من المقلوب، وفي إجماع أهل
التأويل على خلاف هذا القول الكفاية المغنية عن الاستشهاد على فساد بغيره.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عمن قال
معناه: خلق الإنسان من عجل في خلقه: أي على عجل وسرعة في ذلك، وإنما قيل
ذلك كذلك، لأنه بودر بخلق مغيب الشمس في آخر ساعة من نهار يوم الجمعة،
وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح.

وإنما قلنا أولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب، لدلالة قوله تعالى:
﴿سَأُزَيِّكُمُ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ على ذلك. فتأويل الكلام إذا كان الصواب في
تأويل ذلك ما قلنا بما به استشهدنا ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ولذلك يستعجل ربه
بالعذاب ﴿سَأُزَيِّكُمُ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أيها المستعجلون ربهم بالآيات القائلون
لنبينا محمد ﷺ: بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون آياتي، كما أريتها من
قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسل، إذا أتتها الآيات فلا تستعجلون،
يقول: فلا تستعجلوا ربكم، فإننا سنأتيكم بها ونريكموها^(١).

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ فيه للعلماء قولان
معروفان، وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة أحدهما. أما القول الذي دلت
القرينة المذكورة على عدم صحته: فهو قول من قال: العجل الطين وهي لغة
حميرية. كما قال شاعرهم:

البيع في الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية: خلق الإنسان من
طين، كقوله تعالى: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ
طِينٍ﴾^(٣). والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قوله
بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

(١) جامع البيان (١٧/٢٦-٢٨).

(٢) الإسراء: الآية (٦١).

(٣) الأنبياء: الآية (٣٨).

(٤) السجدة: الآية (٧).

فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف الثاني والثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الإنصاف، كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾^(١) على الأظهر. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٢) أي: ومن عجلته دعاؤه على نفسه أو ولده بالشر. قال بعض العلماء: كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ويقولون متى هذا الوعد. فنزل قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ للزجر عن ذلك. كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا. فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم. ثم وعدهم بأنه سيريهم آياته، ونهاهم أن يستعجلوا بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾. كما قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٣). وقال بعض أهل العلم: المراد بالإنسان في قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ آدم. وعن سعيد بن جبير والسدي: لما دخل الروح في عيني آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة. فذلك قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وعن مجاهد والكلبي وغيرهما: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل وطلب تميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس. والظاهر أن هذه الأقوال ونحوها من الإسرائيليات. وأظهر الأقوال أن معنى الآية: أن جنس الإنسان من طبعه العجل وعدم الثاني كما بينا، والعلم عند الله تعالى^(٤).

قال ابن كثير: «والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله [وسلامه] عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾»^(٥).

(١) الروم: الآية (٥٤).

(٢) الإسراء: الآية (١١).

(٣) فصلت: الآية (٥٣).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٥٧٣-٥٧٤).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٦).

قال الرازي : «لقاتل أن يقول : القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة . قلنا : استعجالهم على هذا الوجه أدخل في الذم لأنه إذا ذم المرء استعجال الأمر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى ، وأيضا فإن استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين في الحقيقة .

أما قوله تعالى : ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فقد اختلفوا في المراد بالآيات على أقوال :

أحدها : أنها هي الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ولذلك قال : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي : أنها ستأتي لا محالة في وقتها .

وثانيها : أنها أدلة التوحيد وصدق الرسول .

وثالثها : أنها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والأول أقرب إلى النظم^(١) .

قال ابن عاشور : «والمعنى : وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين ، وذلك بما حصل يوم بدر من النصر وهلك أئمة الشرك ، وما حصل بعده من أيام الإسلام التي كان النصر فيها عاقبة المسلمين .

وتفرع على هذا الوعد نهى عن طلب التعجيل ، أي عليكم أن تكلوا ذلك إلى ما يوقته الله ويؤجله ، ولكل أجل كتاب . فهو نهى عن التوغل في هذه الصفة وعن لوازم ذلك التي تفضي إلى الشك في الوعيد^(٢) .

قال السعدي : «أي : خلق عجولا يبادر الأشياء ، ويستعجل بوقوعها ، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطئون بها ، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب ، تكذيبا وعنادا^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قدمت الشام فلقيت كعبا ، فكان يحدثني عن

(١) التفسير الكبير (٢٢/١٧٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٦٨) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٣٠) .

التوراة، وأحدثه عن رسول الله ﷺ، حتى أتينا على ذكر يوم الجمعة، فحدثته أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه. فقال كعب: صدق الله ورسوله هي في كل سنة مرة. قلت: لا فنظر كعب ساعة، ثم قال: صدق الله ورسوله هي في كل شهر مرة قلت: لا فنظر ساعة فقال: صدق الله ورسوله، في كل جمعة مرة. قلت: نعم فقال كعب: أتدري أي يوم هو؟ قلت: وأي يوم هو؟ قال: فيه خلق الله آدم وفيه تقوم الساعة والخلائق فيه مصيخة إلا الثقلين الجن والإنس خشية القيامة. فقدمت المدينة فأخبرت عبد الله بن سلام بقول كعب فقال: كذب كعب قلت: إنه قد رجع إلى قولي. فقال: أتدري أي ساعة هي؟ قلت: لا وتهالكت عليه أخبرني أخبرني. فقال: هي فيما بين العصر والمغرب قلت: كيف ولا صلاة؟ قال: أما سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال العبد في صلاة ما كان في مصلاه ينتظر الصلاة»^(١).

★ غريب الحديث:

مصيخة: أي مستمعة.

تهالكت عليه: من تهالك على الشيء أي اشتد حرصه عليه.

(١) أخرجه: أحمد (٤٨٦/٢) و(٤٥٣/٥) ومسلم (٨٥٤/٥٨٥) طرفا منه، وأبو داود (١٠٤٦/٦٣٥-٦٣٤/١) والترمذي (٣٦٢-٣٦٣/٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (١٢٧/٣-١٢٨/١٢٩) من حديث أبي هريرة. وأخرجه من حديث عبد الله بن سلام: ابن ماجه (٣٦٠-٣٦١/١).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ويقول هؤلاء المستعجلون ربهم بالآيات والعذاب لمحمد ﷺ: متى هذا الوعد؟ يقول: متى يجيئنا هذا الذي تعدنا من العذاب إن كنتم صادقين فيما تعدونا به من ذلك، وقيل: هذا الوعد والمعنى الموعود لمعرفة السامعين معناه وقيل: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ كأنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به»^(١).

قال ابن عطية: «فسر استعجالهم بقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكأن استفهامهم على جهة الهزاء والتكذيب، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يريدون محمدا ﷺ ومن آمن به لأن المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشرع»^(٢).

قال البقاعي: «ولما ذم المعجلة وهي إرادة الشيء قبل أوانه، ونهى عنها، قال دالا عليها عاطفا على عامل ﴿هَذَا﴾: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي في استهزائهم بأولياء الله: ﴿مَتَى هَذَا﴾ وتهكموا بقولهم: ﴿الْوَعْدُ﴾ أي بإتيان الآيات من الساعة ومقدماتها وغيرها، وزادوا في الإلهاب والتهيج تكذيبا فقالوا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي عريقين في هذا الوصف جدا بما دل عليه الوصف وفعل الكون»^(٣).

قال ابن عاشور: «نشأ عن ذكر استبطاء المسلمين وعد الله بنصرهم على الكافرين ذكر نظيره في جانب المشركين أنهم تساءلوا عن وقت هذا الوعد تهكما فنشأ به القولان، واختلف الحالان. فيكون قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ عاطفا على جملة ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾. وهذا معبر عن مقالة أخرى من مقالاتهم التي يتلقون بها دعوة النبي ﷺ استهزاء وعنادا. وذكر مقالته هذه هنا لاستبطاء

(١) جامع البيان (٢٨/١٧).

(٢) المحرر الوجيز (٨٣/٤).

(٣) نظم الدرر (٤٢١/١٢).

المسلمين النصر . وبهذا الاعتبار تكون متصلة بجمله ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ يَخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ فيجوز أن تكون معطوفة عليها . وخاطبوا بضمير الجماعة النبي ﷺ والمسلمين ولأجل هذه المقالة كان المسلمون يستعجلون وعيد المشركين . واستفهامهم استعملوه في التهكم مجازا مرسلا بقرينة إن كنتم صادقين ؛ لأن المشركين كانوا موقنين بعدم حصول الوعد . والمراد بالوعد ما توعدهم به القرآن من نصر رسوله واستئصال معانديه . وإلى هذه الآية ونظيرها ينظر قول النبي ﷺ يوم بدر^(١) حين وقف القلب الذي دفنت فيه جثث المشركين وناداهم بأسمائهم : ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾^(٢) أي ما وعدنا ربنا من النصر وما وعدكم من الهلاك وعذاب النار^(٣) .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (٢٩/٤) والبخاري (٣٨٢/٧) ومسلم (٢٢٠٤/٤) من طريق قتادة قال : ذكر

لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ . . فذكر الحديث .

(٢) الأعراف : الآية (٤٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧/٦٩-٧٠) .

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِِهِمْ
النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

★ غريب الآية:

لا يكفون: لا يدفعون ولا يمنعون.

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم ماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار، وهم فيها كالحن، فلا يكفون عن وجوههم النار التي تلفحها، ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾» يقول: ولا لهم ناصر ينصرهم، فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله لما أقاموا على ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبة منه والإيمان بالله ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء»^(١).

قال الرازي: «وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما في دفع المضرة عن النفس»^(٢).

قال الشنقيطي: «معنى الآية الكريمة: لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام. فلا يقدرّون على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصرا ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هونه عليهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من المعاني جاء مبينا في مواضع آخر من كتاب الله تعالى.

أما إحاطة النار بهم في ذلك اليوم فقد جاءت موضحة في آيات متعددة، كقوله

(١) جامع البيان (٢٨/١٧).

(٢) التفسير الكبير (١٧٤/٢٢).

تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾^(٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْعِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَعْبَادُونَ فَاتَّقُونِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِنْ طَرَارٍ تَقَشَّى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾^(٥) إلى غير ذلك من الآيات. نرجو الله الكريم العظيم أن يعيذنا منها ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، إنه قريب مجيب. وما تضمنته من كونهم في ذلك اليوم ليس لهم ناصر ولا قوة يدفعون بها عن أنفسهم جاء مبينا في مواضع آخر. كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾^(٧) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلِمُونَ^(٨) والآيات في ذلك كثيرة.

وما أشارت إليه هذه الآية من أن الذي هون عليهم ذلك اليوم العظيم حتى استعجلوه واستهزؤوا بمن يخوفهم منه إنما هو جهلهم به، جاء مبينا أيضا في مواضع آخر. كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾^(٩)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(١٠) إلى غير ذلك من الآيات^(١١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئا قدامه، ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة»^(١٢).

(١) الكهف: الآية (٢٩).

(٢) الأعراف: الآية (٤١).

(٣) الزمر: الآية (١٦).

(٤) إبراهيم: الآية (٥٠).

(٥) المؤمنون: الآية (١٠٤).

(٦) الطارق: الآية (١٠).

(٧) الصافات: الآيتان (٢٥ و ٢٦).

(٨) الشورى: الآية (١٨).

(٩) أضواء البيان (٤/ ٥٧٤-٥٧٥).

(١٠) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٦ و ٣٧٧) والبخاري (١١/ ٤٨٨ و ٦٥٣٩) ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤/ ١٠١٦) والترمذي

(٤/ ٥٢٨ و ٢٤١٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٦٦ و ١٨٥).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن هبيرة: نظر اليمين والشمال هنا كالمثل لأن الإنسان من شأنه إذا وهمه أمر أن يلتفت يمينا وشمالا يطلب الغوث. قلت: ويحتمل أن يكون سبب الالتفات أنه يترجى أن يجد طريقا يذهب فيها ليحصل له النجاة من النار، فلا يرى إلا ما يفضي به إلى النار»^(١).

* * *

(١) الفتح (١١/٤٩٣).

قوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

★ غريب الآية:

تبهتهم: من بهت: أي دهش وتحير وانقطعت حجته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : لا تأتي هذه النار التي تطفح وجوه هؤلاء الكفار الذين وصف أمرهم في هذه السورة حين تأتيهم عن علم منهم بوقتها، ولكنها تأتيهم مفاجأة لا يشعرون بمجيئها فتبهتهم: يقول: فتغشاهم فجأة وتطفح وجوههم معاناة كالرجل يبهت الرجل في وجهه بالشيء حتى يبقى المبهوت كالحيوان منه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ يقول: فلا يطيقون حين تبغتهم فتبهتهم دفعها عن أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يقول: ولا هم وإن لم يطبقوا دفعها عن أنفسهم يؤخرون بالعذاب بها لتوبة يحدثونها، وإنابة ينيون؛ لأنها ليست حين عمل وساعة توبة وإنابة، بل هي ساعة مجازاة وإنابة»^(١).

قال الرازي: «لما بين شدة هذا العذاب بين أن وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين، ولا لأمرها مستعدين، فتبهتهم أي تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة في ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أي لا يمهلون لتوبة ولا معذرة، واعلم أن الله تعالى إنما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة؛ لأن المرء مع كتمان ذلك أشد حذرا وأقرب إلى التلافي»^(٢).

قال البقاعي: «﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ أي الساعة التي هي ظرف لجميع تلك الأحوال

(١) جامع البيان (١٧/٢٩).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/١٧٤).

وهي معلومة لكل أحد فهي مستحضرة في كل ذهن ﴿بَفْتَةٍ قَتَبَهُمْ﴾ أي تدعهم باهتين حائرين؛ ثم سبب عن بهتهم قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي لا يطلبون طوع ذلك لهم في ذلك الوقت لئلا أسهم عنه ﴿وَلَا تُنْظَرُونَ﴾ أي يمهلون من ممهل ما ليتداركوا ما أعد لهم فيها، فيا شدة أسفهم على التفريط في الأوقات التي أمهلوا فيها في هذه الدار، وصرفهم إياها في لذات أكثرها أكاره^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١)

★ غريب الآية:

استهزئ: يقال: استهزأ به يستهزئ: إذا استخفَّ به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- لنييه محمد ﷺ: إن يتخذك يا محمد هؤلاء القائلون لك: هل هذا إلا بشر مثلكم، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون، إذ رأوك هزوا ويقولون: هذا الذي يذكر آلهتكم كفرا منهم بالله، واجترأ عليه، فلقد استهزئ برسل من رسلنا الذين أرسلناهم من قبلك إلى أممهم، يقول: فوجب ونزل بالذين استهزءوا بهم، وسخروا منهم من أممهم ما كانوا به يستهزءون: يقول -جل ثناؤه-: حل بهم الذي كانوا به يستهزءون من البلاء والعذاب الذي كانت رسلهم تخوفهم نزوله بهم، يستهزئون: يقول -جل ثناؤه-: فلن يعدو هؤلاء المستهزئون بك من هؤلاء الكفرة أن يكونوا كأسلافهم من الأمم المكذبة رسلها، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم بك نظير الذي نزل بهم» (١).

قال القرطبي: «هذا تسلية للنبي ﷺ وتعزية له، يقول: إن استهزأ بك هؤلاء فقد استهزئ برسل من قبلك، فاصبر كما صبروا، ثم وعده النصر فقال: ﴿فَحَاقَ﴾ أي أحاط ودار ﴿بِالَّذِينَ﴾ كفروا و﴿سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ وهزئوا بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي جزاء استهزائهم» (٢).

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن إخوانه من الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم استهزأ بهم الكفار، كما استهزءوا به ﷺ.

(١) جامع البيان (٢٩/١٧).

(٢) جامع أحكام القرآن (٢٩٠/١١).

يعني: فاصبر كما صبروا، ولك العاقبة الحميدة، والنصر النهائي كما كان لهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من ذلك جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله. كقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِكِّكَ بِهِ فَوَدَّكَ﴾^(٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَبَهُمْ تَصَرُّاً وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾^(٤) وقوم إيزهيم وقوم لوط^(٥) وأصحاب مدين وكذب موسى فأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ^(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ رَجِيعُ الْأُمُورِ﴾^(٧) والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَحَاقَ بِالَّذِينَ﴾ أي أحاط بهم. ومادة حاق يائية العين. بدليل قوله في المضارع: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٨) ولا تستعمل هذه المادة إلا في إحاطة المكروه خاصة.

فلا تقول: حاق به الخير بمعنى أحاط به. والأظهر في معنى الآية: أن المراد: وحاق بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ويستهزؤون به، وعلى هذا اقتصر ابن كثير^(٩).



(١) فصلت: الآية (٤٣).

(٢) هود: الآية (١٢٠).

(٣) الحج: الآيات (٤٢-٤٤).

(٤) فاطر: الآية (٤).

(٥) فاطر: الآية (٤٣).

(٦) أضواء البيان (٤/٥٧٦-٥٧٧).

(٧) الأنعام: الآية (٣٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٤١﴾

★ غريب الآية:

يكلؤكم: الكلاءة: الحفظ. قال ابن هرمة:

إن سلمي والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرذوها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين بالعذاب القائلين: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين: من يكلؤكم أيها القوم: من يحفظكم ويحرسكم بالليل إذا نمت وبالنهار إذا تصرفتم من الرحمن؟ يقول: من أمر الرحمن إن نزل بكم، ومن عذابه إن حل بكم، وترك ذكر الأمر وقيل من الرحمن اجتزاء بمعرفة السامعين من ذكره. . قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ وقوله: (بل) تحقيق لجحد قد عرفه المخاطبون بهذا الكلام وإن لم يكن مذكورا في هذا الموضع ظاهرا، ومعنى الكلام: وما لهم أن لا يعلموا أنه لا كالي لهم من أمر الله إذا هو حل بهم ليلا أو نهارا، بل هم عن ذكر مواعظ ربهم وحججه التي احتج بها عليهم معرضون لا يتدبرون ذلك، فلا يعتبرون به، جهلا منهم وسفها»^(١).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم في الدنيا أيضًا لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة، فقال لرسوله: قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزئون ويغترون بما هم عليه: ﴿مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته ولا مخلص له منه: إلى أين مفرك مني! هل لك محيص عني!

(١) جامع البيان (١٧/٢٩-٣٠).

والكالى الحافظ»^(١).

وقال أيضا : «إنما ذكر الليل والنهار لأن لكل واحد من الوقتين آفات تختص به ، والمعنى : من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم في معاشكم .

أما قوله : ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فالمعنى أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذي هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون ، فلا يتأملون في شيء منها ليعرفوا أنه لا كالى لهم سواء ، ويتركون عبادة الأصنام التي لا حظ لها في حفظهم ولا في الإنعام عليهم»^(٢).

قال ابن القيم : «سواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوء ويكون يكلؤكم مضمنا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه ، أو كانت من البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن ، أي هو الذي يكلؤكم وحده لا كالى لكم غيره . ونظير (من) هذه قوله : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا نِكَاحَ مَلَائِكَةٍ فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾^(٣) على أحد القولين ، أي عوضكم وبدلكم ، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

جارية لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تأكل الفستق بدل البقول ، وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده ، لا حافظ لهم غيره ، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه سبحانه ، فإنه غني عن خلقه من كل وجه ، فقراء محتاجون إليه من كل وجه»^(٤).

قال الشنقيطي : «أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة : أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم : ﴿مَنْ يَكْلُوكُمْ﴾ أي من هو الذي يحفظكم ويحرسكم ﴿بِأَيْلٍ﴾ في حال نومكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ في حال تصرفكم في أموركم . والكلاءة بالكسر : الحفظ والحراسة . يقال : اذهب في كلاءة الله . أي في حفظه ، واكتلات منهم : احترست . ومنه قول ابن هرمة :

إن سليمان والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها

وقول كعب بن زهير :

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٥).

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٤).

(٤) طريق الهجرتين (ص ٣١٥-٣١٦).

(٣) الزخرف : الآية (٦٠).

أنخت بعيري واكتلات بعينه وأمرت نفسي أي أمري أفعل
(ومن) في قوله ﴿مَنْ الرُّحْمَنِ﴾ فيها للعلماء وجهان معروفان: أحدهما وعليه
اقتصر ابن كثير: أن (من) هي التي بمعنى بدل. وعليه فقوله: ﴿مَنْ الرُّحْمَنِ﴾ أي بدل
الرحمن، يعني غيره. وأنشد ابن كثير لذلك قول الراجز:

جارية لم تلبس المرققا ولم تذق من البقول الفستقا
أي لم تذق بدل البقول الفستق. وعلى هذا القول فالآية كقوله تعالى:
﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾^(١) أي بدلها ونظير ذلك من كلام العرب
قول الشاعر:

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة ظلما ويكتب للأمير أفيلا
يعني أخذوا في الزكاة المخاض بدل الفصيل. والوجه الثاني أن المعنى ﴿مَنْ
يَكُلُّوْكُمْ﴾ أي: يحفظكم ﴿مَنْ الرُّحْمَنِ﴾ أي: من عذابه وبأسه. وهذا هو الأظهر
عندي. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَصُرْنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾^(٢) أي: من
ينصرني منه فيدفع عني عذابه»^(٣).

وقال أيضا: «وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد
يمنع أحدا من عذاب الله، ولا يحفظه ولا يحرسه من الله، وأن الحافظ لكل شيء
هو الله وحده، جاء مبينا في مواضع آخر. كقوله تعالى: ﴿لَمْ مَعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ
خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٤) على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾^(٥) الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا
الَّذِي يَعْصِيكَ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِنْ ذُوبِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ
الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّسُ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٨) إلى غير ذلك من الآيات»^(٩).

(٢) هود: الآية (٦٣).

(٤) الرعد: الآية (١١).

(٦) الأحزاب: الآية (١٧).

(٨) المؤمنون: الآية (٨٨).

(١) التوبة: الآية (٣٨).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٧٧-٥٧٨).

(٥) الفتح: الآية (١١).

(٧) المائدة: الآية (١٧).

(٩) أضواء البيان (٤/ ٥٧٨-٥٧٩).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

★ غريب الآية:

يصحبون: ينصرون ويمنعون.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن الميم صلة يعني: ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا، والتقدير ألهم آلهة من تمنعهم. وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا خبر مبتدأ محذوف أي فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات، وحماية النفس أولى من حماية الغير. فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها، وفي قوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قولان: الأول: قال المازني: أصبحت الرجل إذا منعتة فقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ من ذلك لا من الصحبة. الثاني: أن الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة، وكلها سواء في المعنى، يقال: صحبك الله ونصرك الله، ويقال للمسافر: في صحبة الله وفي حفظ الله، فالمعنى: ولا هم منا في نصرة ولا إعانة، والحاصل أن من لا يكون قادرا على دفع الآفات، ولا يكون مصحوبا من الله بالإعانة، كيف يقدر على شيء»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله في هذه الآية الكريمة ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، وهي بمعنى بل والهمزة، فقد اشتملت على معنى الإضراب والإنكار، والمعنى: ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز حتى لا ينالهم عذابنا. ثم بين أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسهم، فكيف تنفع غيرها بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾. وقوله: ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه متعلق ﴿ءَالِهَةٌ﴾ أي ألهم آلهة ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ أي سوانا ﴿تَمْنَعُهُمْ﴾

مما نريد أن نفعله بهم من العذاب! كلا! ليس الأمر كذلك.

الوجه الثاني: أنه متعلق ﴿تَمَنَّهُمْ﴾ لقول العرب: منعت دونه، أي كفت أذاه. والأظهر عند الأول. ونحوه كثير في القرآن كقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾^(١) الآية وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾^(٢) الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من كون الآلهة التي اتخذوها لا تستطيع نصر أنفسها فكيف تنفع غيرها جاء مبينا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾^(٣) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ^(٤) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ^(٥) إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ فَقَادْعُوهُمْ فَلْيَسْجِبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٦) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ^(٧) ﴿١٩٥﴾^(٨)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾^(٩) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١٠)، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾^(١١) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾^(١٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْأَلْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيِّنَةِ﴾^(١٣) الآية، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ليس فيها نفع ألبتة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يجارون: أي ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا؛ لأن الله يجير ولا يجار عليه، كما صرح بذلك في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١٤) ﴿١﴾ في قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٥) ﴿٢﴾. والعرب تقول: أنا جار لك وصاحب من فلان. أي مجير لك منه. ومنه قول الشاعر:

- | | |
|--------------------------------|-----------------------------------|
| (١) الأنبياء: الآية (٢٩). | (٢) الفرقان: الآية (٣). |
| (٣) الأعراف: الآيات (١٩١-١٩٥). | (٤) الأعراف: الآيتان (١٩٧ و ١٩٨). |
| (٥) فاطر: الآيتان (١٤ و ١٣). | (٦) الأحقاف: الآية (٥). |
| (٧) المؤمنون: الآية (١). | (٨) المؤمنون: الآية (٨٨). |

ينادي بأعلى صوته متعوذا ليصحب منا والرماح دواني
 يعني ليجار ويغاث منا . وأغلب أقوال العلماء في الآية راجعة إلى ما ذكرنا .
 كقول بعضهم : ﴿يُصْحَبُونَ﴾ يمنعون . وقول بعضهم ينصرون . وقول بعضهم : ﴿وَلَا
 هُمْ مَنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي لا يصحبهم الله بخير ، ولا يجعل الرحمة صاحبا لهم . والعلم
 عند الله تعالى^(١) .

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٥٧٩-٥٨٠) .

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما لهؤلاء المشركين من آلهة تمنعهم من دوننا، ولا جار يجيرهم من عذابنا، إذا نحن أردنا عذابهم، فاتكلوا على ذلك، وعصوا رسلنا اتكالا منهم على ذلك، ولكننا متعناهم بهذه الحياة الدنيا وآباءهم من قبلهم حتى طال عليهم العمر، وهم على كفرهم مقيمون، لا تأتيهم منا واعظة من عذاب، ولا زاجرة من عقاب على كفرهم وخلافهم أمرنا، وعبادتهم الأوثان والأصنام، فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا عليهم، ولم يعرفوا موضع الشكر وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله السائلو محمد ﷺ الآيات المستعجلو بالعذاب، أنا نأتي الأرض نخربها من نواحيها بقهرنا أهلها، وغلبتناهم، وإجلالهم عنها، وقتلهم بالسيوف، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف. . . وقوله: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يقول -تبارك وتعالى-: أفهؤلاء المشركون المستعجلو محمد بالعذاب الغالبونا، وقد رأوا قهرنا من أحللنا بساحته بأسنا في أطراف الأرضين، ليس ذلك كذلك، بل نحن الغالبون وإنما هذا تقريع من الله تعالى لهؤلاء المشركين به بجهلهم يقول: أفيظنون أنهم يغلبون محمدا ويقهرونه، وقد قهر من ناوأه من أهل أطراف الأرض غيرهم»^(١).

قال الرازي: «بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ يعني ما حملهم على الإعراض إلا الاغترار بطول المهلة. يعني طالت أعمارهم في الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع مواقع نعمتنا واغتروا بذلك.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنَقُّصُهَا﴾ فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد، ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة، ونزيدها في ملك محمد ﷺ، ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا، وننقص من الشرك بإهلاك أهله، أما كان لهم في ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله ﷺ ويعلموا أنهم لا يقدرُونَ على الامتناع من الله، وإرادته فيهم ولا يقدرُونَ على مغالبتها ثم قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي فهو لاء هم الغالبون أم نحن، وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع، والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون^(١).

قال السعدي: «أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقسست قلوبهم، وعظم طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو لفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم، وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكا ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنَقُّصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: بموت أهلها وفنائهم، شيئا فشيئا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ ويطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟^(٢).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن الإضراب. ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية الكريمة انتقالي. والإشارة في قوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ راجعة إلى المخاطبين من قبل في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾^(٣) الآية، وهم كفار قريش، ومن اتخذ آلهة من دون الله. والمعنى: أنه متع هؤلاء الكفار وآباءهم قبلهم بما رزقهم من نعيم الدنيا حتى

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٤٢).

طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان واللجاج في الكفر. وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه تعالى يمهّل الكفار ويملي لهم في النعمة، وأن ذلك يزيدهم كفراً وضلالاً جاء موضعاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُلْبِغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا آلَ الَّذِينَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝﴾^(٤) والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعمر يطلق على مدة العيش.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء: وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها: موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة. وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق ظاهر كما ترى.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها. وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية: فهو أن معنى ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي نقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها، وردّها دار إسلام. والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. والاستفهام لإنكار غلبتهم. وقيل: لتقريرهم بأنهم مغلوبون لا غالبون، فقوله: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ دليل على أن نقص

(١) آل عمران: الآية (١٧٨).

(٢) الفرقان: الآية (١٨).

(٣) الأعراف: الآيتان (١٨٢ و ١٨٣).

(٤) الزخرف: الآيتان (٣٠ و ٢٩).

الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور. ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾^(١) على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي ﷺ تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي الله قريبا من دارهم.

وممن يروى عنه هذا القول: ابن عباس وأبو سعيد وعكرمة ومجاهد وغيرهم. وهذا المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر سورة الرعد أيضا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢). وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية الأنبياء هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾^(٣) هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٤).

قال مقبده عفا الله عنه وغفر له: ما ذكره ابن كثير رحمه الله صواب، واستقراء القرآن العظيم يدل عليه. وعليه فالمعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله، والكفر بما جئت به ﴿أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل، والكفر بما جاءوا به. وهذا هو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾^(٥) كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد ﷺ. لثلاث نازل بكم مثل ما أنزلنا بهم. وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ والمعنى: أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالا ولا أولادا. كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾^(٦) الآية. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) الرعد: الآية (٣١).

(٢) الأنبياء: الآية (٤٤).

(٣) الأحقاف: الآية (٢٧).

(٤) الدخان: الآية (٣٧).

(٥) الرعد: الآية (٤١).

(٦) الأحقاف: الآية (٢٧).

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(١)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾^(٢) الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه ﷺ بما وقع لمن كذب من قبله من الرسل كثير جدا في القرآن. وبه تعلم اتجاه ما استحسنته ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ من تفسير آية الأنبياء هذه بآية الأحقاف المذكورة كما بينا^(٣).

* * *

(١) غافر: الآية (٨٢).

(٢) الروم: الآية (٩).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٨٠-٥٨٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما كرر في القرآن الأدلة، وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي بالقرآن الذي هو كلام ربكم، فلا تظنوا أن ذلك من قبلي بل الله آتيكم به وأمرني بإنذاركم، فإذا قمت بما ألزمني ربي فلم يقع منكم القبول والإجابة فالوهاب عليكم يعود، ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من إنذاره مع كثرتهم وتواليه بالصم الذين لا يسمعون أصلاً؛ إذ الغرض بالإنذار ليس السماع بل التمسك به في إقدام على واجب، وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق. فإذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع»^(١).

قال ابن كثير: «أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾»^(٢).

قال ابن عاشور: «استئناف ابتدائي مقصود منه الإتيان على جميع ما تقدم من استعجابهم بالوعد تهكما بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ ومن التهديد الذي وجه إليهم بقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الخ ومن تذكيرهم بالخالق وتنبيههم إلى بطلان آلهتهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ومن الاحتجاج عليهم بظهور بوارق نصر المسلمين، واقتراب الوعد بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ عقب به أمر الله رسوله أن يخاطبهم بتعريف كنه دعوته، وهي قصره على الإنذار بما سيحل بهم في الدنيا والآخرة إنذاراً من طريق الوحي المنزل عليه من الله تعالى وهو

(١) التفسير الكبير (١٧٦/٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٣٩/٥).

القرآن، أي فلا تعرضوا عنه، ولا تتطلبوا مني آية غير ذلك، ولا تسألوا عن تعيين آجال حلول الوعيد، ولا تحسبوا أنكم تغيظونني بإعراضكم والتوغل في كفركم»^(١).

قال أيضًا: «تقييد عدم السماع بوقت الإعراض عند سماع الإنذار لتفطيع إعراضهم عن الإنذار لأنه إعراض يفضي بهم إلى الهلاك فهو أقطع من عدم سماع البشارة أو التحديث، ولأن التذليل مسوق عقب إنذارات كثيرة. واختير لفظ الدعاء لأنه المطابق للغرض؛ إذ كان النبي ﷺ داعيًا كما قال: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾»^(٢) ^(٣).

قال السعدي: «أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس كلهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله إلي، فإن استجبتم فقد استجبتم لله، وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّبْرُ الدُّعَاءَ﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتا، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد محل قابل لذلك، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح، وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان، بمنزلة الأصم، بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصا في هذه الحالة، التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه»^(٤).

* * *

(٢) يوسف: الآية (١٠٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٣٤).

(١) التحرير والتنوير (١٧/٧٧-٧٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/٧٨-٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمَرُ نَفْحَةٍ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

★ غريب الآية؛

نفحة: الرقعة اليسيرة تقع بهم. يقال: نفحه بالسيف: إذا ضربه به.

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ولئن مست هؤلاء المستعجلين بالعذاب يا محمد نفحة من عذاب ربك، يعني بالنفحة النصيب والحظ من قولهم: نفح فلان لفلان من عطائه: إذا أعطاه قسماً أو نصيباً من المال..» وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ يَنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يقول: لئن أصابتهم هذه النفحة من عقوبة ربك يا محمد بتكذيبهم بك وكفرهم، ليعلمن حينئذ غيب تكذيبهم بك، وليعترفن على أنفسهم بنعمة الله وإحسانه إليهم، وكفرانهم أياديه عندهم، وليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين في عبادتنا الآلهة والأنداد، وتركنا عبادة الله الذي خلقنا وأنعم علينا، ووضعنا العبادة غير موضعها»^(١).

قال الرازي: «بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمَرُ نَفْحَةٍ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وأصل النفح من الريح اللينة، والمعنى: ولئن مسهم شيء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشيء دون جسمه لتنادوا بالويل، واعترفوا على أنفسهم بالظلم»^(٢).

(١) جامع البيان (١٧/٣٢-٣٣).

(٢) التفسير الكبير (١٧٧/٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧)

★ غريب الآية:

القسط: العدل.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ العدل وهو ﴿الْقِسْطُ﴾ وجعل القسط وهو موحد من نعت الموازين، وهو جمع لأنه في مذهب عدل ورضا ونظر، وقوله: ﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ يقول: لأهل يوم القيامة ومن ورد على الله في ذلك اليوم من خلقه، وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى ذلك إلى (في) كأن معناه عنده: ونضع الموازين القسط في يوم القيامة وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ يقول: فلا يظلم الله نفساً ممن ورد عليه منهم شيئاً بأن يعاقبه بذنوب لم يعملها أو يبخسه ثواب عمل عمله، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئاً إلا بإساءته. . . وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ يقول: وإن كان الذي له من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وزن حبة من خردل أتينا بها، يقول: جئنا بها فأحضرناها إياه. . . وقوله: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يقول: وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين؛ لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف في الدنيا من صالح أو سيئ منا»^(١).

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات والسيئات، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة أو كافرة

﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وَلِنْ كَانَتْ مُثَقَّالَ حَبْكَةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَنْ يَمَلِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَمَلِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿٨﴾﴾^(١)، وقالوا: ﴿يَوَدِّلُنَا مَالٌ هَذَا أَلَكُنَّ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾^(٢).

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها موصلاً للعمال جزاءها^(٣).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة. فتوزن أعمالهم وزناً في غاية العدالة والإنصاف، فلا يظلم الله أحداً شيئاً، وأن عمله من الخير أو الشر، وإن كان في غاية القلة والدقة كمثل حبة من خردل، فإن الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيء وكفى به -جل وعلا- حاسباً؛ لإحاطة علمه بكل شيء.

وبين في غير هذا الموضع أن الموازين عند ذلك الوزن منها ما يخف، ومنها ما يثقل. وأن من خفت موازينه هلك، ومن ثقلت موازينه نجا. كقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴿٩﴾﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٢﴾﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٣﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٥﴾ فَأُمَّهُمْ هَاوِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾^(٦) إلى غير ذلك من الآيات.

(١) الزلزلة: الآيتان (٧ و٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٥).

(٥) المؤمنون: الآيات (١٠١-١٠٣).

(٦) القارعة: الآيات (٦-٩).

(٢) الكهف: الآية (٤٩).

(٤) الأعراف: الآيتان (٨ و٩).

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن موازين يوم القيامة موازين قسط ذكره في الأعراف في قوله: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾^(١) لأن الحق عدل وقسط . وما ذكره فيها من أنه لا تظلم نفس شيئاً بينه في مواضع أخر كثيرة، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٤) وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة الكهف . وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة : من كون العمل وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر أتى به -جل وعلا- أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله عن لقمان مقررًا له: ﴿يَبْنِيْ إِيَّاهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٦) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٧) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ جمع ميزان . وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص، لقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٨)، وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ﴾^(٩) فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

ملك تقوم الحادثات لعدله فلكل حادثة لها ميزان
والقاعدة المقررة في الأصول: أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل
يجب الرجوع إليه^(٩).

(١) النساء: الآية (٤٠).

(٢) الأعراف: الآية (٨).

(٣) يونس: الآية (٤٤).

(٤) لقمان: الآية (١٦).

(٥) الكهف: الآية (٤٩).

(٦) الزلزلة: الآيتان (٧ و٨).

(٧) الأعراف: الآية (٩).

(٨) الأعراف: الآية (٨).

(٩) أضواء البيان (٤/ ٥٨٣-٥٨٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الميزان والحساب،

والعاقل من استعد لذلك

* عن عائشة أن رجلا قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك؛ وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل. قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ كتاب الله. ﴿وَوَضَعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ فِي الْمِيزَانِ أَشْهَدُكُمْ﴾. قال: يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرار كلهم»^(١).

* عن أبي هريرة ؓ قال: قال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(٢).

* عن عبدالله بن عمرو ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة،

(١) أخرجه: أحمد (٢٨٠-٢٨١/٦) والترمذي (٣١٦٥/٣٠٠/٥) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان وقد روى ابن حنبل عن عبدالرحمن بن غزوان هذا الحديث». قلت: وعبد الرحمن بن غزوان ثقة له أفراد كما في التقريب. وذكره الهيثمي في المجمع (٣٥٠-٣٥١/١٠) وقال: «رواه أحمد وفي إسناده الصحابي الذي لم يسم راو لم يسم أيضا، وبقيته رجالهما رجال الصحيح». قال المنذري في الترغيب (٤٠٣/٤): «إسناده أحمد والترمذي متصلان ورواتهما ثقات، عبدالرحمن هذا يكنى أبا نوح ثقة احتج به البخاري، وبقيته رجال أحمد ثقات احتج بهم البخاري ومسلم» اهـ. وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (٤٢٦-٤٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٣٢/٢) والبخاري (٧٥٦٣/٦٥٧/١٣) ومسلم (٢٠٧٢/٤) والترمذي (٤٧٨/٥) (٣٤٦٧) والنسائي في الكبرى (٢٠٨-٢٠٧/٦) وابن ماجه (١٢٥١/٢) (٣٨٠٦).

فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»^(١).

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «والموازين جمع ميزان وأصله موزان فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، واختلف في ذكره هنا بلفظ الجمع هل المراد أن لكل شخص ميزانا أو لكل عمل ميزان فيكون الجمع حقيقة، أو ليس هناك إلا ميزان واحد والجمع باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص، ويدل على تعدد الأعمال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٢) ويحتمل أن يكون الجمع للتفخيم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحدا، والذي يرجح أنه ميزان واحد ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا، والقسط العدل وهو نعت الموازين إن كان مفردا وهي جمع لأنه مصدر»^(٤).

قال الرازي: «الأظهر إثبات موازين في يوم القيامة لا ميزان واحد والدليل عليه قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٥) وقال في هذه الآية: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان آخر. قال الزجاج: إنما جمع الله الموازين ههنا، فقال: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ولم يقل ميزانه لوجهين: الأول: أن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد. فيقولون: خرج فلان إلى مكة على البغال. والثاني: أن المراد من الموازين ههنا جمع موزون لا جمع ميزان وأراد بالموازين الأعمال الموزونة. ولقائل أن يقول هذان الوجهان يوجبان العدول عن ظاهر اللفظ، وذلك إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على ظاهره، ولا مانع ههنا منه فوجب إجراء

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢١٣، ٢٢١-٢٢٢) والترمذي (٥/٢٥/٢٦٣٩) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/

١٤٣٧/٤٣٠٠)، وصححه الحاكم (١/٦ و ٥٢٩) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) الشعراء: الآية (١٠٥).

(٣) الأعراف: الآية (٩).

(٤) الفتح (١٣/٦٥٧-٦٥٨).

(٥) الأنبياء: الآية (٤٧).

اللفظ على حقيقته، فكما لم يمتنع إثبات ميزان له لسان وكفتان، فكذلك لا يمتنع إثبات موازين بهذه الصفة، فما الموجب لترك الظاهر والمصير إلى التأويل»^(١).

قال السفاريني: «الأصح الأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال، كفته كأطباق السموات والأرض كما مر. وقيل: لكل أمة ميزان. وقال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان. واستظهر بعضهم إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد لظاهر قوله ﷺ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٢). وقال: لا يبعد على هذا أن يكون لأعمال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان.

ورد هذا ابن عطية وقال: الناس على خلافه. وإنما لكل واحد وزن مختص به والميزان واحد. وقال بعضهم: إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم، وهو حسن»^(٣).

وقال ابن كثير: «الأكثر على أنه ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه»^(٤).

وقال ابن عثيمين: «وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

فمثال الجمع قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٦) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ»^(٦).

وأما الإفراد فقال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». فقال: «في الميزان» فأفرد؛ فكيف نجتمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث؟!
فالجواب أن نقول: إنها جمعت باعتبار الموزون، حيث إنه متعدد، وأفردت

(١) التفسير الكبير (٢٩/١٤).

(٢) الأعراف: الآية (٨).

(٣) لوائح الأنوار السنية (٢/١٩٤-١٩٦).

(٤) التفسير (٣٣٩/٥).

(٥) الأنبياء: الآية (٤٧).

(٦) الأعراف: الآيتان (٩٨).

باعتبار أن الميزان واحد، أو ميزان كل أمة، أو أن المراد بالميزان في قوله -عليه الصلاة والسلام-: «ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ» أي في الوزن.

ولكن الذي يظهر والله أعلم أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون، بدليل قوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(١).

لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزانا واحدا لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟^(٢).

أما بقية المباحث المتعلقة بالميزان فقد تقدمت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ من سورة الأعراف، وبالله التوفيق.

* * *

(١) الأعراف: الآية (٨).

(٢) شرح العقيدة الواسطية ضمن مجموع فتاوى ابن عثيمين (٨/٤٩٨-٤٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذَكَرَ
لِلْمُتَّقِينَ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقان، يعني به الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، وذلك هو التوراة في قول بعضهم . . وكان ابن زيد يقول في ذلك ما :

حدثني به يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قال : الفرقان : الحق آتاه الله موسى وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضى بينهم بالحق، وقرأ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾^(١) قال : يوم بدر .

قال أبو جعفر : وهذا القول الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبه بظاهر التنزيل، وذلك لدخول الواو في الضياء، ولو كان الفرقان هو التوراة كما قال من قال ذلك، لكان التنزيل : ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياءً ؛ لأن الضياء الذي آتى الله موسى وهارون هو التوراة التي أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم فبصرهم الحلال والحرام، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الأبصار، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء .

فإن قال قائل : وما ينكر أن يكون الضياء من نعت الفرقان، وإن كانت فيه واو فيكون معناه : وضياء آتيناه ذلك كما قال : ﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا يَنْبَغِي الْكُوكِبِ﴾^(٢) قيل له : إن ذلك وإن كان الكلام يحتمله فإن الأغلب من معانيه ما قلنا، والواجب أن يوجه معاني كلام الله إلى الأغلب الأشهر من وجوها المعروفة عند

(١) الأنفال : الآية (٤١) .

(٢) الصافات : الآيتان (٧٦ و٧٧) .

العرب ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجب التسليم له من حجة خير أو عقل .
وقوله : ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يقول : وتذكيرا لمن اتقى الله بطاعته وأداء فرائضه ،
 واجتناب معاصيه ، ذكرهم بما أتى موسى وهارون من التوراة^(١) .

قال ابن كثير : « جامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين
الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما
يحصل نورا في القلوب ، وهداية وخوفا وإنابة وخشية ، ولهذا قال : ﴿الْفُرْقَانُ وَضِيَاءُ
وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي تذكيرا لهم وعظة^(٢) .

قال السعدي : « كثيرا ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين ، اللذين لم
يطرق العالم أفضل منهما ، ولا أعظم ذكرا ، ولا أبرك ، ولا أعظم هدى وبيانا ،
[وهما التوراة والقرآن] فأخبر أنه أتى موسى أصلا وهارون تبعا ﴿الْفُرْقَانُ﴾ وهي
التوراة الفارقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وأنها ﴿ضِيَاءُ﴾ أي : نور
يهتدي به المهتدون ، ويأتى به السالكون ، وتعرف به الأحكام ، ويميز به بين الحلال
والحرام ، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية ، ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به ما
ينفعهم وما يضرهم ، ويتذكر به الخير والشر ، وخص (المتقين) بالذكر ؛ لأنهم
المنتفعون بذلك ، علما وعملا^(٣) .

* * *

(١) جامع البيان (١٧/٣٤-٣٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٤١) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٣٦) .

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: آتينا موسى وهارون الفرقان: الذكر الذي آتيناهاما للمتقين الذين يخافون ربهم بالغيب، يعني في الدنيا أن يعاقبهم في الآخرة إذا قدموا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضه فهم من خشيته يحافظون على حدوده وفرائضه، وهم من الساعة التي تقوم فيها القيامة مشفقون، حذرون أن تقوم عليهم، فيردوا على ربهم، قد فرطوا في الواجب عليهم لله، فيعاقبهم من العقوبة بما لا قبل لهم به»^(١).

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل ثلاث تأويلات:

أحدها: في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطلع عليهم أحد وهذا أرجحها.

والثاني: أنهم يخشون الله تعالى على أن أمره تعالى غائب، وإنما استدلوا بدلائل لا بمشاهدة.

والثالث: أنهم يخشون الله ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم ودنياهم»^(٢).

قال السعدي: «أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم، ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد»^(٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٨٥).

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٦-٢٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوهٗ﴾ ﴿٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى محمد ﷺ ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ﴿مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ كما أنزلنا التوراة إلى موسى وهارون ذكرا للمتقين ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوهٗ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد منكمرون وتقولون: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وإنما الذي آتيناه من ذلك ذكر للمتقين، كالذي آتينا موسى وهارون ذكرا للمتقين»^(١).

قال الرازي: «قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك، وهو معنى قوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ بركته كثرة منافعه وغزارة علومه، وقوله: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوهٗ﴾ فالمعنى أنه لا إنكار في إنزاله وفي عجائب ما فيه، فقد آتينا موسى وهارون التوراة، ثم هذا القرآن معجز لا شتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الأدلة العقلية وبيان الشرائع، فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره»^(٢).

قال السعدي: «﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلا والنهي عن القبيح عقلا وكونه

(١) الأنبياء: الآية (٥).

(٢) جامع البيان (١٧/٣٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٢/١٨٠).

(مباركا) يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرا مباركا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة من الإعراض عنه والإضراب عنه صفحا وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره فقال: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوهُ﴾^(١).

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم ﴿ذَكَرٌ مُبَارَكٌ﴾ أي كثير البركات والخيرات. لأن فيه خير الدنيا والآخرة. ثم ويخ من ينكرونه منكرا عليهم بقوله: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوهُ﴾. وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: من أن هذا القرآن مبارك بينه في مواضع متعددة من كتابه. كقوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢)، وقوله فيها أيضا: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾^(٣) الآية. وقوله تعالى في ص: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات. فنرجو الله تعالى القريب المجيب: أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب امتثالاً واجتناباً، إنه قريب مجيب»^(٥).



(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٣٧).

(٢) الأنعام: الآية (١٥٥).

(٣) ص: الآية (٢٩).

(٤) أضواء البيان (٤/٥٨٧).

(٥) الأنعام: الآية (٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْوَءَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

★ غريب الآية:

رشده: الرشد: الهداية. خلافه: الغي والضلال.

عاكفون: العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾»^(١) وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكوكب والمخلوقات، فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم، فعامتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم، قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدق ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما لا ينتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين

(١) الأنعام: الآية (٨٣).

صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رشده من قبل ، أي : من قبل ذلك .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي : وكان أهلا لذلك ثم قال : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ﴿ ٥١ ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ فقال : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أي معتكفون على عبادتها . . ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ ﴿ ٥٢ ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ، ولهذا قال : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ ٥٣ ﴾ أي الكلام مع آبائكم الذي احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم . فلما سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ ﴿ ٥٤ ﴾ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبا أم محقا فيه ، فإننا لم نسمع به قبلك ﴿ قَالَ بَلْ زَيَّكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره ، وهو الذي خلق السموات والأرض ، وما حوت من المخلوقات الذي ابتداء خلقهن وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه^(١) .

قلت : لا شك أن الله خص أبا الحنفاء بما خصه به من الهداية والرشد والعلم النافع والنبوة ، وجعله ينكر عبادة الأصنام في وقت مبكر ، إذ لا شك أن عبادة الأصنام أمر مخالف للفطر والعقول السليمة ، وأن فاعل ذلك عاثر لا محالة ، يقوم بمجهودات كبيرة في غير طائل ، ويصرف أعمالا وأقوالا لمن ليست له ولا يستحقها ، فالمشرك ظالم عاثر سفيه أحقق تفوقه الأنعام والبهائم في تمييزها ؛ لأنها مهما فقدت من عقل ؛ فإنها لا تفقد تمييز ما ينفعها أو يضرها ، فهي تحب الماء الطيب النافع لريها وسقيها ، وتحب أنواع النباتات التي تناسب مستواها وحاجتها في الأكل ، فتجدها تسرع إليه وتتحرره وتتوخاه ، وخير دليل على هذا حديث البقرة التي نطقت ، وكان نطقها معجزة ؛ فإنها لما امتطيت للركوب قالت : (إننا لم نخلق لهذا ؛ إنما خلقنا للحرث)^(٢) . بخلاف المشرك فهو يعيش على الوهم والخرافة

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٤١-٣٤٢) .

(٢) أخرجه : أحمد (٢/٢٤٥-٢٤٦) ، البخاري (٦/٦٣٥-٣٤٧١) ، ومسلم (٤/١٨٥٧-١٨٥٨/١٨٥٨) ،

والنسائي في الكبرى (٥/٣٧/٨١١١) .

ولا يربط السبب بمسببه، فالمعبود من دون الله لا ينفع ولا يضر؛ بل عبادته ضرر محقق تخلد صاحبها في النار والعياذ بالله، فلو رجع الإنسان إلى فطرته وعقله لوجد المشرك من أعبث العابثين وأضل الضالين وأنه لا عقل له ولا فطرة.

وعودًا على بدء، فقد فضل الله هذا النبي المبارك الطيب الذي لم يكن مشركًا، وكان من الشاكرين لأنعم الله، موحدًا له، داعيًا إلى توحيده. ونبينا ﷺ على جلالة قدره أمر باتباعه في الدعوة إلى التوحيد، فترجو الله أن يجعلنا على دعوته وطريقته، وأن يصرف ما بقي من أعمارنا في الدعوة إلى التوحيد الذي دعا له إمام الحنفاء وابنه النبي الأمين القرشي الهاشمي سيد ولد آدم، وخير من وطئ الحصى، وخير من صلى؛ فإن الصلاة عليه عبادة، وذكره شرف، واتباعه عصمة وهداية، ومخالفته ضلال، وبغضه ورد سننه كفر، ومن ترك حرقًا من سنته عوقب في الدنيا والآخرة، فاللهم صل على من اتبعه على الهدى والصراط المستقيم وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

قال السعدي: «لما ذكر تعالى موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم، وكتابيهما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السموات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدا من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه لكونه رشدًا بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وَكُنَّا بِهِ عِلْمِينَ﴾ أي: أعطيناه رشدًا، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفاء له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر حاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي مِثْلَتُمُوهَا، وَنَحْتُمُوهَا بِأَيْدِيكُمْ، عَلَى صُورِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ﴾ ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْكُفُونٌ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيت أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تحتون.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ كذلك يفعلون، فسلطنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن

المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصا في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضللا للجميع: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟ أي: فليس ما قلتهم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد.

﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آبائهم: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين؛ لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم، كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم ردا بين به وجه سفهمهم، وقلة عقولهم فقال: ﴿بَلْ زَكَّيْنَاهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهايم، والسموات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفضوا مدبرا متصرفا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز أن يعبد مخلوقا متصرفا فيه، لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟

أما الدليل السمعي: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم، خصوصا خليل الرحمن^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٣٨-٢٤٠).

قال المكي الناصري: «ما دام محور الحديث الرئيسي في هذه السورة هو موضوع العقيدة التي هي أصل الدين وأساسه، فإن قصة إبراهيم مع قومه يجب أن تحتل الصدارة في هذا الميدان، وذلك هو ما تصدى له كتاب الله هنا بالشرح والبيان، إذ إن اسم إبراهيم أصبح منذ قرون طويلة، وفي جميع الأديان الكتابية، رمزا إلى مكافحة الوثنية، ومجابهة الشرك، وإعلان التوحيد ونشره بين الناس، حتى إنه ليعتبر بحق إمام الموحدين مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾^(١).

وقبل أن يتولى كتاب الله في هذا الربع وصف ما دار بين إبراهيم وأبيه وقومه من حوار وصراع حول عقيدة التوحيد التي اهتدى إليها، ومعتقدات الشرك التي تلقوها أبا عن جد، أوجز القول في وصف مزايا إبراهيم وما آتاه الله من رشد بلغ الغاية القصوى، عندما اختاره رسولا خليلا قبل موسى وهارون، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ﴾^(٢) ولولا ما ألهمه الله من رشد وثبات، وآتاه من حكمة وحجة بالغة لما استطاع أن يواجه بمفرده مشركي قومه، على كثرة عددهم وقوتهم، وأن يفوز عليهم في الرهان، ويغلبهم بالحجة والبرهان.

ثم شرع كتاب الله يفصل المحاوراة التي دارت بين إبراهيم وأبيه وقومه على الوجه الآتي: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾^(٣).

ومن هذه المقالة يتجلى أولا حرص إبراهيم الخليل بشكل خاص على انتشال أبيه قبل غيره من حضيض الشرك، لما بين الأب والابن من علاقة خاصة لا تقوى قوتها بقية العلاقات، وفي نفس الوقت اهتم إبراهيم بانتشال بقية قومه من نفس الهوة التي تردوا فيها جميعا، وهذا الاتجاه الرامي إلى إنقاذ العشيرة الأقربين من الضلال قبل غيرهم أكدته كتاب الله في خطابه لخاتم الرسل، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٤).

ومن هذه المقالة يتجلى ثانيا رشد إبراهيم عليه السلام، وحذره من إلقاء الكلام على عواهنه، ولذلك لم يطلق على الأصنام التي كان يعبدها أبوه وقومه اسم الآلهة كما كانوا يعبرون عنها، وإنما أطلق عليها مجرد لفظ التماثيل، والتمثال اسم موضوع للشيء المصنوع باليد، الممثل بغيره، أي المشبه به، تقول: مثلت الشيء بالشيء،

(١) النحل: الآية (١٢٠).

(٢) الشعراء: الآية (٢١٤).

إذا شبهته به، قال أبو حيان: وفي قوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ تحقير لها، وتصغير لشأنها، مع علمه بتعظيمهم لها. وفي خطابه لهم بقوله: ﴿أَنْتُمْ﴾ استهانة بهم، وتوقيف على سوء صنعهم. وهكذا استنكر إبراهيم عكوفهم على عبادة الأصنام، وملازمتهم لتعظيمها دون نفع ولا جدوى.

ويحكي كتاب الله جواب قومه إذ يقول: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ۖ ۝٥٣﴾ وليس في هذا الجواب أدنى حجة أو إقناع، وإنما مرده إلى التقليد الأعمى ومجرد الاتباع، فيرد عليهم إبراهيم قائلا: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ ۝٥٤﴾ وبهذا الرد يطعن في حجتهم ويصم بالضلال قومه عن بكرة أبيهم، وهنا تتجلى معالم الفتوة التي امتاز بها إبراهيم عليه السلام، من جرأته في نصرة الحق، ومهاجمته للباطل، وتحديه للتقاليد البالية، مهما كلفه ذلك من التضحيات الغالية، ولا يلبث قومه أن يسألوه مستفسرين وهم مترددون: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ۖ ۝٥٥﴾ يريدون أن يعرفوا هل هو جاد فيما يقول، أم أن كلامه مجرد لعب وهزل، لكن إبراهيم ينفي هذا الاحتمال ويرفع في الحين كل إشكال ﴿قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ ۝٥٦﴾ وبهذا أفهم قومه أن الإله الوحيد الذي يجب أن يعبدوه هو رب السموات والأرض الذي خلقهن، فهو ربهم الحق وحده لا شريك له، وزكى هذه الدعوى بشهادته عليها، إذ هو رسول الله و خليل الرحمن، وكفى بشهادته حجة وبرهانا، على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۖ ۝١٨﴾^(١)، فلفظ ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ في هذه الآية مأخوذ من الشهادة بمعناها المعروف، لا من المشاهدة بمعنى مجرد الرؤية والحضور^(٢).

قلت: ما ذكره الله على لسان إمام التوحيد إبراهيم عليه السلام بوصفه لقومه بعكوفهم على عبادة الأصنام؛ هو واقع المسلمين مع الأسف اليوم في كثير من الأضرحة، التي يصفون أصحابها بالصلاح بزعمهم والعلم عند الله، وصحة هذا الوصف - إن كان صحيحًا - لا تسوّغ ما يُفعل عند قبورهم من العكوف المستمر، وعقد المواسم، واجتماع الضلال فيها على الفسق والعصيان وعلى الموبقات المختلفة،

(١) آل عمران: الآية (١٨).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٣٠-١٣٢).

وأكبرها الشرك بالله ونحر الذبائح، وإيقاد الشموع ورسم حرم خاص للوثن، وبعضهم ينذر اعتكافاً في هذا الوثن أو يلجأ إليه عند الحزن أو خوفاً من فلان، أو لمرض نزل به أو فاقة حلت به، ويشدون لهذه المشاهد الرحال من أمكنة بعيدة ومن أقطار مختلفة، فالمغاربة يقصدون الجيلاني في بغداد والحسيني في مصر، والسنگاليون ومنتسبو الطريقة التيجانية من الأفارقة يقصدون فاس . . . وهكذا تجد عكوف عباد الأوثان منتشراً في كل مكان ما خلا بقعة نجد التي طهرها الله على يد الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب من هذه الوثنية، فأين علماء الإسلام الغيورون على التوحيد؟ وأين الحكام الذين يزعمون إصلاح الشعوب والأوطان؟ فإن من واجبهم تطهير الأرض من هذه الأوثان حتى يعبد الله وحده.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُوا لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ۝٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ
 جُذَذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا
 بِإِلَهِنَا إِنَّمَا لِمَنْ الظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ
 ۝٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ
 هَذَا بِإِلَهِنَا يَا ابْنِ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ
 كَانُوا يَنْطِقُونَ ۝٦٣﴾

★ غريب الآية:

جذاذًا: فئاتًا. وأصل الجذذ: التفتيت والتكسير والقطع. قال الشاعر:
 بنو المهلب جذد الله دابرهم أمسوا رمادًا فلا أصل ولا طرف

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «لما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم
 بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيذا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال:
 ﴿وَتَأْتُوا لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ عنها
 إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَذًا﴾ أي كسرا وقطعا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها
 كلها، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل
 هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله، لا يطلق عليه ألقاب التعظيم، إلا
 على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين
 يقول: (إلى عظيم الفرس) (إلى عظيم الروم) ونحو ذلك، ولم يقل (إلى العظيم)
 وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ ولم يقل: (كبيراً من أصنامهم) فهذا ينبغي
 التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾.

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الْأَطْلِيلِ﴾ (٥٦) ﴿فَرَمَوْا إِبْرَاهِيمَ بِالظُّلْمِ الَّذِي هُمْ أُولَىٰ بِهِ﴾ حيث كسرها ولم يدروا أن تكسیره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قَالُوا سِعْنًا فَتَنَّا يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ﴾ أي بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخَشِّرَ النَّاسُ شُعْبَىٰ﴾ (١).

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ أي: التكسير ﴿بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟.

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ أي: كسرها غضبا عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، المقصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وأراد الأصنام المكسرة أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسألوه لأي شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيئونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريد بها بأذى (٢).

(١) طه: الآية (٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٠-٢٤٣).

قال نقي الدين الهلالي: «في قصة إبراهيم عليه السلام فوائد:

الأولى: كل موحد وإن قل عمله، يجد حجة على توحيد الله تعالى يغلب بها أكبر علماء الشرك والتقليد، فمن ذلك أن رجلا من المشركين في صعيد مصر بالريمون قال لموحد: أنتم وهابية تنكرون معجزات النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه حي يصلي في قبره، والأغواث وهم خدام المسجد النبوي يضعون له الماء للوضوء قبل كل صلاة، فقال له الموحد: أنت كفرت بإجماع المسلمين، وتنقصت رسول الله صلى الله عليه وسلم شر تنقص؛ لأن الوضوء لا يكون إلا عن حدث والنبي صلى الله عليه وسلم منزّه عن الحدث بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فاعترف المشرك وقال: أستغفر الله. والحكايات في هذا الباب كثيرة.

الثانية: حجة قوم إبراهيم عليه السلام ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَدِيْبًا﴾ هي حجة المشركين في كل زمان ومكان، وما أحسن جواب إبراهيم عليه السلام لقومه إذ قال لهم: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الثالثة: أن قوم إبراهيم كانوا يوحّدون الله تعالى في ربوبيته، ولذلك لم ينكروا عليه قوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وكذلك المشركون في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعترفون ويؤمنون أن الله رب كل شيء ومليكه والمتصرف فيه، بخلاف المشركين في هذا الزمان الذي اتخذوا من دون الله أولياء، واعتقدوا أنهم يتصرفون في العالم بالإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، والنصر والهزيمة، وإنزال المطر والخصب أو القحط والجذب، فهؤلاء أغلظ كفرا وشركا من أولئك.

الرابعة: يجب على كل من قدر على تحطيم ما يعبد من دون الله من القباب والأحجار والأشجار أن يقتدي بخليل الله إبراهيم، وبخليله محمد صلى الله عليه وسلم، فكل منهما كسر الأصنام، وقد فعل ذلك الإخوان الموحّدون في الحجاز فهدموا قبة حمزة رضي الله عنه والقباب التي كانت في البقيع، فجزاهم الله خيرا وأجزل ثوابهم.

الخامسة: تذكرنا قصة إبراهيم الخليل بمشركي هذا الزمان، فإنهم يبنون قبة على قبر بجانب الوادي، ويعبدون تلك القبة بالذبح والنذر، ويأتي السيل فيجرها فيعيدون بناءها وعبادتها، ولا يفكرون بعقولهم في أن هذه القبة أو الروح المتلبسة

بها لو كانت تستطيع أن تدفع أو تجلب لهم خيرا لدافعت عن نفسها ، وصرفت السيل عن القبة وحفظتها منه ، ولكن كذلك يطبع الله على قلوب المشركين وما أحسن قول الخليل لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

السابعة : أن نصر الله للموحدين وإهلاكه للمشركين سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فإذا لم ينتصر الموحدون ، وطال عليهم زمان غلبة أعدائهم فاعلم أن توحيدهم ضعيف ، وإيمانهم ناقص ، فإن الله وعد كل من نصر دينه الحق بالنصر ، فقال تعالى في سورة محمد ﷺ : ﴿ إِنْ تَصْرُوهَا اللَّهُ يَبْصُرْكُمْ وَيُخَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٢) ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (٣) وقال تعالى في سورة المؤمن : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٤) ، اللهم اجعلنا ممن نصر دينك ونصرته (٥) .

قال المكي الناصري : «ومما يحسن التنبيه إليه في هذا المقام اختيار كلمة (فتى) في وصف إبراهيم ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (١) واستعمال كلمة (فتية) جمع (فتى) في أصحاب الكهف : ﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٢) ، إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٣) وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (٤) ففي كلا المقامين يتعلق الأمر بمومنين صادقين آمنوا بوجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته ، وتبرأوا من الشرك والمشركين واعتزلوا قومهم بعدما تحدوهم بالحق المبين ، مما أعطوا به الدليل على منتهى الثبات وقوة الشخصية ، ونهاية الإخلاص والصبر والتضحية فضربوا بذلك المثل الأعلى للفتوة واستحقوا الذكر العاطر في آيات الله المتلوة (٥) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كذبات إبراهيم عليه السلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا

(١) الصافات : الآيات (٩٥ و٩٦) .

(٢) محمد : الآيات (٨ و٧) .

(٣) غافر : الآية (٥١) .

(٤) سبيل الرشاد (٢/ ٤١-٤٢) .

(٥) الكهف : الآية (١٠) .

(٦) الكهف : الآيات (١٣ و١٤) .

(٧) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٣٥-١٣٦) .

ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله ﷻ : قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(١) وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : أختي . فأتى سارة قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني . فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ . فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبه فقال : إنكم لم تأتونني بإنسان ، إنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر . فأنته وهو قائم يصلي ، فأوماً بيده : مهيم ؟ قالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره ، وأخدم هاجر . قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء السماء^(٢) .

★ غريب الحديث :

سقيم : السقم المرض .

أخذ : بضم الهمزة وكسر المعجمة مبنيًا للمفعول أي اختنق حتى ركض برجله كأنه مصروع .

حجبه : بفتح الحاء المهملة والجيم جمع حاجب وهو البواب .

مهيم : معناها ما الخبر .

يا بني ماء السماء : قال ابن حبان : «كل من كان من ولد هاجر يقال له : (ولد ماء السماء) ، لأن إسماعيل من هاجر ، وقد ربي بماء زمزم وهو ماء السماء الذي أكرم الله به إسماعيل حيث ولدته أمه هاجر ، فأولادها أولاد ماء السماء»^(٣) .

وقال الخطابي : «وقوله : (يا بني ماء السماء) يريد العرب وذلك أنهم يعيشون

(١) الصفات : الآية (٨٩) .

(٢) أخرجه : أحمد (٤٠٣-٤٠٤) والبخاري (٤٧٨-٤٧٩/٦) ومسلم (١٨٤٠-١٨٤١/٤) (٢٣٧١) وأبو داود (٦٥٩-٦٦٠/٢) والترمذي (٣٠٠-٣٠١/٥) والنسائي في الكبرى (٩٧-٩٨/٥) .

(٣) ابن حبان (الإحسان ١٣/٤٧) .

بماء السماء يتبعون مواقع القطر في بواديهم»^(١).

قال القاضي عياض: «والأظهر عندي أن المراد بذلك الأنصار، ونسبهم إلى جدهم عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وكان يعرف بماء السماء، وهو مشهور، والأنصار كلهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر المذكور»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «قال أهل العلم: وهذا أصل في جواز المعارض، قالوا: والمعارض شيء يتخلص به الرجل من المكروه إلى الجائز، ومن الحرام إلى الحلال، ومن دفع ما يضره، وإنما يكره له التحيل في حق فيبطله أو باطل فيموه به»^(٣).

«قال ابن عقيل: دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، إنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم ﷺ يعني إطلاق الكذب على ذلك - إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعا لأعظمهما، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تدم، فإن الكذب وإن كان قبيحا مخلا لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها»^(٤).

قال ابن القيم: «وقد أشكل على الناس تسميتها كذبة، لكون المتكلم إنما أراد باللفظ المعنى الذي قصده، فكيف يكون كذبا؟ والتحقيق في ذلك: أنها كذب بالنسبة إلى إفهام المخاطب، لا بالنسبة إلى غاية المتكلم، فإن الكلام له نسبتان، نسبة إلى المتكلم ونسبة إلى المخاطب، فلما أراد الموري أن يفهم المخاطب خلاف ما قصده بلفظه، أطلق الكذب عليه بهذا الاعتبار، وإن كان المتكلم صادقا

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٥٣٨).

(٢) إكمال المعلم (٧/ ٣٤٧).

(٣) إكمال المعلم (٧/ ٣٤٧).

(٤) نقلا من الفتوح (٦/ ٤٨٢-٤٨٣).

باعتبار قصده ومراده»^(١).

قال ابن حجر: «وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا لكنه إذا حقق لم يكن كذبا لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض.. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُكُمْ﴾ قال القرطبي: هذا قاله تمهيدا للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعا لقومه في قولهم إنها تضر وتنفع، وهذا الاستدلال يتجاوز فيه الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا﴾ بقوله: ﴿فَسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ قال ابن قتيبة: معناه إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشروط بقوله: ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب. وعن الكسائي أنه كان يقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُكُمْ﴾ أي: فعله من فعله كائنا من كان، ثم يبتدئ ﴿كَيْدُكُمْ هَذَا﴾ وهذا خبر مستقل، ثم يقول ﴿فَسْتَلَوْهُمْ﴾ إلى آخره، ولا يخفى تكلفه. وقوله: هذه أختي يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته في الإسلام»^(٢).

قال المازري: «أما الأنبياء عليهم السلام فمعصومون من الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله سبحانه، قل ذلك أو جل لأن المعجزة تدل على صدقهم في ذلك. وأما ما لا يتعلق بالبلاغ، ويعد من الصغائر كالكذبة الواحدة في شيء من أمور الدنيا، فيجري ذلك على الخلاف في عصمتهم من الصغائر وقد تقدم الكلام عليه. وقد وصف ﷺ أن اثنتين من كذبات إبراهيم عليه السلام كانتا في ذات الله سبحانه، والكذب إنما يترك لله، فإذا كان إنما يفعل لله انقلب حكمه في بعض المواضع على حسب ما ورد في الشريعة، والقصد بهذا التقييد منه ﷺ نفي مذمة الكذب عنه لجلالة قدره في الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وقد تأول بعض الناس كلماته هؤلاء حتى تخرج عن كونها كذبا، ولا معنى لأن يتحاشى العلماء مما لم يتحاش منه النبي ﷺ، ولكن قد يقال: إن المراد تسميتها كذبا على ظاهرها عندكم في مقتضى إطلاقكم عند استعمالكم اللفظ على حقيقته، ألا تراه يحكي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لسارة: (أخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام)

(١) حاشية عون المعبود (٦/٢٩٦-٢٩٧).

(٢) فتح الباري (٦/٤٨٢).

ومن سمى المسلمة أختا له قاصدا أخوة الإسلام فليس بكاذب، لكنه ﷺ إنما أطلق عليه لفظة الكذب لما قلناه من أن الأخت في الحقيقة المشاركة في النسب، وأما المشاركة في الدين فأخت على المجاز، فأراد أنها كذبة على مقتضى حقيقة اللفظة في اللغة، وعلى أن قوله: (إنها أختي) قد يكون في ذات الله، إذا أراد بها كف الظلم وصيانة الحريم، لكن لما كان فيها منفعة ميزها ﷺ عن الأوليين اللتين لا منفعة له فيهما. هذا الذي يظهر لي في تأويل هذا الحديث^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾
 ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (٦٤)

★ غريب الآية:

نكسوا: قَلَبُوا. والنكس: قلب الشيء بحيث يصير أسفله أعلاه. يقال: رجل ناكس ورجال ناكسون. وشذ جمعه على نواكس. قال الفرزدق:
 وإذا الرجال أتوا يزيدَ رأيتهم خضع الرقابِ نواكسَ الأبصارِ

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عطية: «المعنى: فظهر لهم ما قال إبراهيم من أن الأصنام التي قد أهلوها للعبادة ينبغي أن تسأل وتستفسر» ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل، وأنتم معكم من تسألون، ثم ارتبكوا في ضلالهم، ورأوا بالفكرة وبديهة العقل أن الأصنام لا تنطق، فساءهم ذلك حتى نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجة عليهم، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ استعارة للذي يرتطم فيه غيه كأنه منكوس على رأسه فهي أقبح هيئة للإنسان، وكذلك هذا هو في أسوأ حالات النظر، فقالوا لإبراهيم حين نكسوا في حيرتهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي فما بالك تدعو إلى ذلك^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لألهتهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ وقال السدي: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي في الفتنة. وقال ابن زيد: أي في الرأي.

وقول قتادة أظهر في المعنى ؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزا ، ولهذا قالوا له : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق^(١) .

قال السعدي : ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي : ثابت عليهم عقولهم ، ورجعت إليهم أحلامهم ، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها ، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فحصل بذلك المقصود ، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم ، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة ، ولكن ﴿فَكُفُّوا عَن رُّءُوسِهِمْ﴾ أي : انقلب الأمر عليهم ، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم ، فقالوا لإبراهيم : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تتهكم بنا وتستهزئ بنا ، وتأمرونا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟^(٢) .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤٤) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٣) .

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: قال إبراهيم لقومه: أفتعبدون أيها القوم ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم، وأنتم قد علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء، ولا هي تقدر أن تنطق إن سئلت عمن يأتيها بسوء فتخبر به، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا. . وقوله: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ يقول: قبحا لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السموات والأرض، والذي بيده النفع والضر»^(١).

قال ابن كثير: «أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) أي: أفلا تدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنِلَّكَ حُجَّتْنَا ۖ أَتَيْنَاهَا بِإِذْنِهِمْ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (٢) الآية»^(٣).

قال الزمخشري: ﴿أَفِ﴾ صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضرر أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم. واللام لبيان المتأفف به. أي: لكم ولآلهتكم هذا التأفف»^(٤).

قال ابن عاشور: «فلما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق انتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم مفرعاً على اعترافهم بأنها لا تنطق استفهاماً إنكارياً على عبادتهم إياها وزائداً بأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر. وجعل عدم استطاعتها النفع والضرر

(٢) الأنعام: الآية (٨٣).

(١) جامع البيان (١٧/٤٢-٤٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٤٥).

(٤) الكشف (٢/٥٧٧).

ملزوما لعدم النطق لأن النطق هو واسطة الإفهام، ومن لا يستطيع الإفهام تبين أنه معدوم العقل وتوابعه من العلم والإرادة والقدرة.

و(أف) اسم فعل دال على الضجر وهو منقول من صورة تنفس المتضجر لضيق نفسه من الغضب. وتنوين (أف) يسمى تنوين التنكير والمراد به التعظيم أي ضجرا قويا لكم^(١).

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/١٠٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨)
 ﴿قُلْنَا يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ
 الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره-: قال بعض قوم إبراهيم لبعض: حرقوا إبراهيم بالنار ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يقول: إن كنتم ناصريها، ولم تريدوا ترك عبادتها... وقوله: ﴿قُلْنَا يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) في الكلام متروك اجتزئ بدلالة ما ذكر عليه منه وهو: فأوقدوا له نارا ليحرقوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، وذكر أنهم لما أرادوا إحراقه بنوا له بنيانا»^(١).

قال ابن عطية: «وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم، وذكروا تحديد مدة بقاءه في النار وصورة بقاءه ما رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقى في النار فجعلها الله تعالى عليه ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فخرج منها سالما وكانت أعظم آية»^(٢).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن نبيه إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- لما أفحم قومه الكفرة بالبراهمين والحجج القاطعة، لجؤوا إلى استعمال القوة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي بقتلكم عدوها إبراهيم شر قتلة، وهي الإحراق بالنار.

ولم يذكر هنا أنهم أرادوا قتله بغير التحريق: ولكنه تعالى ذكر في سورة العنكبوت أنهم ﴿قَالُوا أَتَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾^(٣) وذلك في قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٨٨-٨٩).

(١) جامع البيان (١٧/ ٤٣).

(٣) العنكبوت: الآية (٢٤).

إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴿١﴾ الآية .

وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجأ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحق .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصرين ألهتكم نصرا مؤزرا . فاختاروا له أفظع قتلة ، وهي الإحراق بالنار . وإلا فقد فرطتم في نصرها .

قوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ (١٦) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿١٧﴾ في الكلام حذف دل المقام عليه ، وتقديره : قالوا حرقوه فرموه في النار ، فلما فعلوا ذلك ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ . وقد بين في الصفات أنهم لما أرادوا أن يلقوه في النار بنوا له بنيانا ليلقوه فيه .

وفي القصة : أنهم ألقوه من ذلك البنيان العالي بالمنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس (يعنون الأكراد) ، وأن الله خسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٢) . والمفسرون يذكرون من شدة هذه النار وارتفاع لهبها ، وكثرة حطبها شيئا عظيما هائلا . وذكروا عن نبي الله إبراهيم أنهم لما كتفوه مجردا ورموه إلى النار ، قال له جبريل : هل لك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، وأما الله فنعم ! قال : لم لا تسأله ؟ قال : علمه بحالي كاف عن سؤالي (٣) .

وما ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة : من أنه أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم يدل على أنه أنجاه من تلك النار . لأن قوله تعالى : ﴿كُوفِي بَرْدًا﴾ يدل على سلامته من حرها . وقوله : ﴿وَسَلَامًا﴾ يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه . وانجاؤه إياه منها الذي دل عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرحا به في العنكبوت في قوله تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ (٤) وأشار إلى ذلك هنا بقوله : ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ (٥) الآية .

(١) العنكبوت : الآية (٢٤) .

(٢) الصفات : الآية (٩٧) .

(٣) لا أصل له ، انظر الضعيفة (رقم ٢١) .

(٤) العنكبوت : الآية (٢٤) .

(٥) الأنبياء : الآية (٧١) .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾^(١) يوضحه ما قبله . فالكيد الذي أرادوه به إحراقه بالنار نصرا منهم لآلهتهم في زعمهم ، وجعله تعالى إياهم الأخسرين . أي الذين هم أكثر خسرانا لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم .

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضًا في سورة الصافات في قوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾^(٢) وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من شرهم . وكونهم الأخسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وفي القصة : ... أن كل الدواب تطفئ عن إبراهيم النار ، إلا الوزغ فإنه ينفخ النار عليه^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عداوة الوزغ للتوحيد وما اكثرت الوزغ في هذا الزمان الذين ينفخون في الشرك ضد التوحيد وفي البدعة ضد السنة

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٤) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٥) .

* وعنه رضي الله عنه قال : كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٦) .

★ فوائد الحديثين:

قال الشيخ ابن عثيمين : «هذه الكلمة: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حينما ألقى في النار ، وذلك أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأبوا وأصروا على الكفر والشرك . فقام ذات يوم على أصنامهم فكسرها وجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم ، فلما وجدوا آلهتهم قد كسرت فانتقموا والعياذ بالله لأنفسهم .

(١) الأنبياء: الآية (٧٠) .

(٢) الصافات: الآية (٩٨) .

(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٨٧-٥٨٩) .

(٤) آل عمران: الآية (١٧٣) .

(٥) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٨٩/ ٤٥٦٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٦/ ١١٠٨١) .

(٦) أخرجه البخاري (٨/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٤٥٦٤) .

فقالوا ماذا نصنع بإبراهيم؟ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ انتصارا لآلهتهم ﴿وَأَنْصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ﴾. فأوقدوا نارا عظيمة جدا ثم رموا إبراهيم في هذه النار. ويقال إنهم لعظم النار لم يتمكنوا من القرب منها وأنهم رموا إبراهيم فيها بالمنجنيق من بعد. فلما رموه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فما الذي حدث؟

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿١١﴾ بردًا ضد حر، وسلامًا ضد هلاك لأن النار حارة ومحرقة مهلكة، فأمر الله هذه النار أن تكون بردا وسلاما عليه فكانت بردا وسلاما.

والمفسرون بعضهم ينقل عن بني إسرائيل في هذه القصة أن الله لما قال: ﴿يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ صارت جميع نيران الدنيا بردا.

وهذا ليس بصحيح لأن الله وجه الخطاب إلى نار معينة ﴿يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا﴾ وعلماء النحو يقولون أنه إذا جاء التركيب على هذا الوجه صار نكرة مقصودة أي: لا يشمل كل نار، بل هو للنار التي ألقي فيها إبراهيم فقط، وهذا هو الصحيح، وبقية نيران الدنيا بقيت على ما هي عليه.

وقال العلماء أيضا: ولما قال الله: ﴿كُوفِي بَرْدًا﴾ قرن ذلك بقوله: كوني ﴿سَلَامًا﴾ لأنه لو اكتفى بقوله: ﴿بَرْدًا﴾ لكانت بردا حتى تهلكه؛ لأن كل شيء يمثل لأمر الله ﷻ.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوِيَ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِي طَوْعًا﴾ فماذا قالتا: ﴿قَالَتَا أَأَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) منقادين لأمر الله^(٢).

* عن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة أنها دخلت على عائشة فرأت في بيتها رمحا موضوعا. فقالت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا؟ قالت: نقتل به هذه الأوزاغ. فإن نبي الله ﷺ أخبرنا أن إبراهيم لما ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا أطفأت النار غير الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه. فأمر رسول الله ﷺ بقتله^(٣).

★ غريب الحديث:

الوزغ: جمع وزغة، وهي دويبة معروفة من الزواحف.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥١٤-٥١٦).

(١) فصلت: الآية (١١).

(٣) أخرجه: أحمد (٨٣/ ٦) وابن ماجه (١٠٧٦/ ٢) قال في الزوائد: [إسناد حديث عائشة صحيح ورجاله ثقات]. وصححه ابن حبان (الإحسان ١٢/ ٤٤٧) (٥٦٣١).

* عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفع على إبراهيم عليه السلام»^(١).

* فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «وأمره ﷺ بقتله لما يحصل منه من الضرر والأذى الذي هي عليه من الاستقذار المعتاد، والنفرة المألوفة؛ التي قد لازمت الطباع، ولما يتقى أن يكون فيها سم؛ أو شيء يضر متناوله، ولما روي: من أنها أعانت على وقود نار إبراهيم عليه السلام؛ فإنها كانت تنفخ فيه ليشعل»^(٢).

وقال النووي: «واتفقوا على أن الوزغ من الحشرات المؤذيات وجمعه أوزاغ ووزغان، وأمر النبي ﷺ بقتله وحث عليه ورغب فيه لكونه من المؤذيات، وأما سبب تكثير الثواب في قتله بأول ضربة ثم ما يليها»^(٣) فالمقصود به الحث على المبادرة بقتله والاعتناء به وتحريض قاتله على أن يقتله بأول ضربة، فإنه إذا أراد أن يضره ضربات ربما انفلت وفات قتله»^(٤).

وقال المناوي: «قال البيضاوي: قوله: «كان ينفع على إبراهيم» بيان لخبث هذا النوع وفساده، وأنه بلغ في ذلك مبلغا استعمله الشيطان فحمله على أن ينفع في النار التي ألقى فيها الخليل، وسعى في اشتعالها، وهو في الجملة من ذوات السموم المؤذية»^(٥).

وقال الشوكاني: «قوله: «وكان ينفع على إبراهيم» أي: في النار، وذلك لما جبل عليه طبعها من عداوة نوع الإنسان»^(٦).



(١) أخرجه: عبد بن حميد (١٥٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٣١٦/٩) والبيهقي في شرح السنة (١٢/١٩٦-١٩٧/٣٢٦٧) وأخرجه: أحمد (٤٢١/٦) والبخاري (٣٣٠٧/٤٣٢/٦) ومسلم (٤/١٧٥٧/٢٢٣٧) والنسائي (٥/٢٢٩-٢٣٠/٢٨٨٥) وابن ماجه (٢/١٠٧٦/٣٢٢٨) بدون زيادة: «كان ينفع على إبراهيم عليه السلام».

(٢) المفهم (٥/٥٣٩).

(٣) يشير إلى ما رواه أحمد (٢/٣٥٥)، ومسلم (٤/١٧٥٨/٢٢٤٠)، وأبو داود (٥/٢٦١/٥٢٦٣)، والترمذي (٤/١٤٨٢/٧٦/٤)، وابن ماجه (٢/١٠٧٦/٣٢٢٩)، كلهم من حديث أبي هريرة عليه السلام.

(٤) شرح مسلم (١٤/١٩٨).

(٥) فيض القدير (٢/٥٩).

(٦) نيل الأوطار (٨/١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ونجينا إبراهيم ولوطا من أعدائهما، نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض الشام فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام.

وهذه القصة التي قص الله من نبأ إبراهيم وقومه تذكير منه بها قوم محمد ﷺ من قريش أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثان وأذاهم محمدا على نهيه عن عبادتها ودعاهم إلى عبادة الله مخلصين له الدين، مسلك أعداء أبيهم إبراهيم، ومخالفتهم دينه، وأن محمدا في براءته من عبادتها وإخلاصه العبادة لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يلقي منهم في ذلك سالك منهاج أبيه إبراهيم، وأنه مخرجه من بين أظهرهم كما أخرج إبراهيم من بين أظهر قومه حين تمادوا في غيهم إلى مهاجرة من أرض الشام، ومسلك بذلك نبيه محمدا ﷺ عما يلقي من قومه من المكروه والأذى، ومعلمه أنه منجيه منهم كما نجى أباه إبراهيم من كفره قومه»^(١).

وقال أيضا: «وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنه إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقيم بها ولم يتخذها وطنا لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين»^(٢).

قال ابن عطية: «واختلف الناس في ﴿الْأَرْضِ﴾ التي يورك فيها، ولجأ إليها إبراهيم ولوط ﷺ، فقالت فرقة: هي مكة، وذكرها قول الله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾

(١) جامع البيان (١٧/٤٥-٤٦).

(٢) جامع البيان (١٧/٤٧).

مُبَارَكًا»^(١)، وقال الجمهور: من أرض الشام، وهي الأرض التي بارك فيها، أما من جهة الآخرة فبالنبوة، وأما من جهة الدنيا فهي أطيب بلاد الله أرضا وأعذبها ماء وأكثرها ثمرة ونعمة، وهو الموضع المعروف بسكنى إبراهيم وعقبه.

وروي أنه ليس في الأرض ماء عذب إلا وأصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف، وهي أرض المحشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يهلك المسيح الدجال»^(٢).

قال ابن عاشور: «هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضر النار، هي نجاته من الحلول بين قوم عدوله كافرين بربه وربهم، وهي نجاة من دار الشرك وفساد الاعتقاد. وتلك بأن سهل الله له المهاجرة من بلاد «الكلدان» إلى أرض «فلسطين» وهي بلاد «كنعان».

وهجرة إبراهيم هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين. واستصحب إبراهيم معه لوطا ابن أخيه (هاران) لأنه آمن بما جاء به إبراهيم. وكانت سارة امرأة إبراهيم معهما، وقد فهمت معيتها من أن المرء لا يهاجر إلا ومعه امرأته»^(٣).

قال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط من أرض العراق إلى الشام فرارا بدينهما.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في غير هذا الموضع. كقوله في العنكبوت: ﴿فَتَأْمَنَ لَّهُ لُوطٌ ۖ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾^(٤) الآية، وقوله في الصافات: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^(٥) على أظهر القولين؛ لأنه فار إلى ربه بدينه من الكفار. وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^(٦): هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ﴿فَإِنَّهُمْ سَيِّدِينَ﴾^(٧) فيما نويت إلى الصواب. وما أشار إليه -جل

(١) آل عمران: الآية (٩٦).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٨٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٨).

(٤) العنكبوت: الآية (٢٦).

(٥) الصافات: الآية (٩٩).

(٦) الزخرف: الآية (٢٧).

وعلا- من أنه بارك العالمين في الأرض المذكورة، التي هي الشام على قول الجمهور في هذه الآية بقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ بينه في غير هذا الموضوع. كقوله: ﴿وَلَسُلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾^(١) الآية، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(٢) الآية. ومعنى كونه (بارك فيها). هو ما جعل فيها من الخصب والأشجار والأنهار والثمار. كما قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) ومن ذلك أنه بعث أكثر الأنبياء منها.

وقال بعض أهل العلم: ومن ذلك أن كل ماء عذب أصل منبعه من تحت الصخرة التي عند بيت المقدس. وجاء في ذلك حديث مرفوع، والظاهر أنه لا يصح. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾^(٤) أقوال أخر تركناها لضعفها في نظرنا. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب. وهذا النوع من الهجرة وجوبه باق بلا خلاف بين العلماء في ذلك^(٥).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٨١).

(٢) الإسراء: الآية (١).

(٣) الأعراف: الآية (٩٦).

(٤) الأنبياء: الآية (٧١).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٩٠-٥٩١).

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

صَلِّينَ ﴿٧١﴾﴾

★ غريب الآية:

نافلة: زيادة. وقيل: عطية خاصة. ومنه نافلة الصلاة، لأنها زيادة على ما فرض
قال كعب يمدح النبي ﷺ:

مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَلَمْ تَقْرَأْ فِيهَا مَوَاعِظَ وَتَفْصِيلَ

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى بعد ذكره لإنعامه على إبراهيم وعلى لوط بأن
نجاههما إلى الأرض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم، وإنما جمع بينهما لأن في
كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة في النبوة مزيد إنعام، ثم إنه
سبحانه ذكر النعم التي أفاضها على إبراهيم ﷺ ثم النعم التي أفاضها على لوط،
أما الأول فمن وجوه؛ أحدها: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ واعلم أن النافلة
العطية خاصة، وكذلك النفل يسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا، ثم للمفسرين
ههنا قولان: الأول: أنه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين
ذلك، وبين قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ هبة أي وهبناهما له عطية وفضلا من غير أن يكون
جزاء مستحقا، وهذا قول مجاهد وعطاء. والثاني: وهو قول أبي بن كعب وابن
عباس وقتادة والفراء والزجاج: أن إبراهيم ﷺ لما سأل الله ولدا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي
مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٣﴾﴾ (١) فأجاب الله دعاءه: ووهب له إسحاق، وأعطاه يعقوب من غير
دعائه، فكان ذلك: ﴿نَافِلَةً﴾ كالشيء المتطوع به من الآدميين فكأنه قال: ﴿وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ﴾ إجابة لدعائه، ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التي
هي زيادة على الفرض، وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة.

(١) الصافات: الآية (١٠٠).

والوجه الأول: أقرب لأنه تعالى جمع بينهما، ثم ذكر قوله: ﴿نَافِلَةً﴾ فإذا صلح أن يكون وصفا لهما فهو أولى.

النعمة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب أنبياء مرسلين، هذا قول الضحاك، وقال آخرون عاملين بطاعة الله ﷻ مجتنبين محارمه.

والوجه الثاني: أقرب لأن لفظ الصلاح يتناول الكل لأنه سبحانه قال بعد هذه الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾^(١).

قال السعدي: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ حين اعتزل قومه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٢) ويعقوب، هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته، سيد الأولين والآخرين. ﴿وَكَلَّا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: قائمين بحقوقه، وحقوق عباده^(٣).

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه وهب لإبراهيم ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأنه جعل الجميع صالحين. وقد أوضح البشارة بهما في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٥). وقد أشار تعالى في سورة مريم إلى أنه لما هجر الوطن والأقارب عوضه الله من ذلك قرة العين بالذرية الصالحة، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾^(٦).

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿نَافِلَةً﴾ قال فيه ابن كثير: قال عطاء ومجاهد: نافلة عطية. وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عتيبة: النافلة: ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق.

(٢) هود: الآية (٧١).

(٤) هود: الآية (٧١).

(٦) مريم: الآية (٤٩).

(١) التفسير الكبير (٢٢/١٩١-١٩٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٤٥).

(٥) الصفات: الآية (١١٢).

قال مقبده -عفا الله عنه وغفر له- : أصل النافلة في اللغة : الزيادة على الأصل ، ومنه النوافل في العبادات ، لأنها زيادات على الأصل الذي هو الفرض . وولد الولد زيادة على الأصل ، الذي هو ولد الصلب ، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي :

فإن تك أنثى من معد كريمة علينا فقد أعطيت نافلة الفضل

أي أعطيت الفضل عليها والزيادة علينا ، كما هو التحقيق في معنى بيت أبي ذؤيب هذا ، وكما شرحه به أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري في شرحه لأشعار الهذليين . وبه تعلم أن إيراد صاحب اللسان بيت أبي ذؤيب المذكور مستشهدا به لأن النافلة الغنيمة غير صواب ، بل هو غلط . مع أن الأنفال التي هي الغنائم راجعة في المعنى إلى معنى الزيادة ، لأنها زيادة تكريم أكرم الله بها هذا النبي الكريم فأحلها له ولأمته . أو لأن الأموال المغنومة أموال أخذوها زيادة على أموالهم الأصلية بلا تمن^(١) .

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٥٩١-٥٩٢) .

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ ﴿٧٣﴾

أحوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه وصفهم أولاً بالصالح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالإمامة. ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحي. وإذا كان الصالح الذي هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على أن الأنبياء معصومون فإن المحروم عن أول المراتب أولى بأن يكون محروماً عن النهاية، ثم إنه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ كأنه ﷺ لما وفى بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة»^(١).

قال السعدي: «ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرؤن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات كلها، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه،

(١) التفسير الكبير (٢٢/١٩٣).

والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكَاثُرًا لَّنَا﴾ أي: لا لغيرنا ﴿عَبِيدِينَ﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله^(١).

قال ابن عاشور: «وتخصيص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما لأن بالصلاة صلاح النفس إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين. وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام».

ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أنه أوحى إليهم الأمر بذلك كما هو بين.

ثم خصهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما دل عليه فعل الكون المفيد تمكن الوصف، ودلت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف كما قال يوسف: ﴿مَا كُنَّا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢) وقال تعالى في الشاء عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)،^(٤).

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله: ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ يشمل كل المذكورين: إبراهيم، ولوطا وإسحاق، ويعقوب، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط، وهو الظاهر.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات وقوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وهذه الآية الكريمة تبين أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة البقرة

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) يوسف: الآية (٣٨).

(٣) آل عمران: الآية (٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١١١).

أجابه الله فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها ، وضابط ذلك : أن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم ؛ كإسحاق ويعقوب فإنهم ينالونها كما صرح به تعالى في قوله هنا : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً ﴾ . وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) . فقوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير . فأجابه الله بقوله : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي : لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة ؛ على الأصوب . ومفهوم قوله : ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ أن غيرهم يناله عهده بالإمامة ، كما صرح به هنا . وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في الصافات بقوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ ^(٢) وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أي أن يفعلوا الطاعات ، ويأمروا الناس بفعلها . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة الخيرات ، فهو من عطف الخاص على العام . وقد قدمنا مرارا النكتة البلاغية المسوغة للإطناب في عطف الخاص على العام . وعكسه في القرآن . فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ ﴾ أي : مطيعين باجتناب النواهي وامتنثال الأوامر بإخلاص . فهم يفعلون ما يأمرهم الناس به ، ويجتنبون ما ينهونهم عنه . كما قال نبي الله شعيب : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنَّهُكُمْ عَنْهُ ﴾ ^(٣) الآية . وقوله : ﴿ أَيْمَةً ﴾ معلوم أنه جمع إمام ، والإمام : هو المقتدى به ، ويطلق في الخير كما هنا ، وفي الشر كما في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ ﴾ ^(٤) الآية ^(٥) .

* * *

(١) البقرة : الآية (١٢٤) .

(٢) الصافات : الآية (١١٣) .

(٣) هود : الآية (٨٨) .

(٤) القصص : الآية (٤١) .

(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٩٢-٥٩٣) .

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «عطف بذكر لوط وهو لوط بن هاران بن آزر، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَتَأَمَّنَ لُوطُ قَالِ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْكَ رَبِّي﴾»^(١) فاتاه الله حكما وعِلما وأوحى إليه، وجعله نبيا، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالقوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَسَقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾»^(٢).

قال السعدي: «هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والساداد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم ﴿قَوْمَ سَوِءٍ فَسَقِينَ﴾ كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطا وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلا ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم وممته.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ التي من دخلها، كان من الآمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة، وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم

(١) المنكوت: الآية (٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٤٨).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَلَوْ طَأَّ﴾ منصوب بفعل مضمر وجوباً يفسر ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ كما قال في الخلاصة:

قال مقيده عفا الله عنه : أصل الحكم في اللغة : المنع كما هو معروف . فمعنى الآيات : أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعتربها الخلل . والقرية التي كانت تعمل الخبائث : هي سدوم وأعمالها ، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله : منها اللواط ، وأنهم هم أول من فعله من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) ، وقال : ﴿ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ^(٥) . ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديبهم ، وقطعهم الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُوا الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُوا فِي نَآدِيكُمْ الْمُنكَرَ ﴾ ^(٦) الآية . ومن أعظم خبائثهم : تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن . كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَالُوا لَيْنَ لَرَّ نَتْنِهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ ^(٧) ، وقال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُ أَلَا لُوطُ مِنْ قَرْنَيْكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ ﴾ ^(٨) إلى غير ذلك من الآيات . وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه : أنه أهلكهم فقلب بهم بلدهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

(١) النمل: الآية (١٩).

(٣) الأعراف: الآية (٨٠).

(٥) العنكم ت: الآية (٢٩)

(٧) النمل، : الآية (٥٦).

جِبَارَةٌ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾^(١) والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك.

وقوله: ﴿قَوْمٌ سَوْءٌ﴾ أي أصحاب عمل سيئ، ولهم عند الله جزاء يسوءهم: وقوله: ﴿فَنَسِيقَينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله. وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ﴾ يعني لوطاً ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة، كما في الحديث الصحيح: «تحتاج النار والجنة»^(٢) الحديث. وفيه: «فقال للجنة أنت رحمتي أرحم بها من أشياء من عبادي»^(٣).

* * *

(١) الحجر: الآية (٧٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٧٦/٢) والبخاري (٨/٧٦٥/٤٨٥٠) ومسلم (٤/٢١٨٦/٢٨٤٦) والترمذي (٤/٥٩٨-٥٩٩).

(٣) أضواء البيان (٤/٥٩٤-٥٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧١﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٢﴾﴾

★ غريب الآية:

الكرب: الغم الشديد. وأصل ذلك من كَرْبِ الأرض: أي حفرها وقلبها، وكان الغم يثير النفس إثارة ذلك.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واذكريا محمد نوحا إذ نادى ربه من قبلك، ومن قبل إبراهيم ولوط، وسألنا أن نهلك قومه الذين كذبوا الله فيما توعدهم به من وعيده، وكذبوا نوحا فيما أتاهم به من الحق من عند ربه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (١) فاستجبنا له دعاءه، ونجيناه وأهله يعني بأهله: أهل الإيمان من ولده وحلائلهم ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ يعني بالكرب العظيم: العذاب الذي أحل بالمكذبين من الطوفان والغرق. والكرب: شدة الغم، يقال منه: قد كربني هذا الأمر فهو يكربني كربا وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقول: ونصرنا نوحا على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم، فأغرقناهم أجمعين، إنهم كانوا قوم سوء. يقول -تعالى ذكره- إن قوم نوح الذين كذبوا بآياتنا كانوا قوم سوء يسيئون الأعمال، فيعصون الله ويخالفون أمره» (٢).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ (٣) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ

(٢) جامع البيان (١٧/٥٠).

(١) نوح: الآية (٢٦).

(٣) القمر: الآية (١٠).

الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾ «^(١) ولهذا قال ههنا : ﴿إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي الذين آمنوا به كما قال : ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ﷻ ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصون قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل على خلافه . وقوله : ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَعْرِفْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكهم الله بعامة ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحدا ، كما دعا عليهم نبيهم» ^(٣).

قال الشنقيطي : «قوله : ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بـ (اذكر) مقدرا ، أي واذكر نوحا حين نادى من قبل ، أي من قبل إبراهيم ومن ذكر معه . ونداء نوح هذا المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾» ^(٤) وقد أوضح الله هذا النداء بقوله : ﴿وَقَالَ نُوْحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾» وقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْجُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿٣﴾﴾ ^(٥) الآية . والمراد بالكرب العظيم في الآية : الغرق بالطوفان الذي تتلاطم أمواجه كأنها الجبال العظام ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ^(٦) ، وقال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ ^(٨) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . والكرب : هو أقصى الغم ، والأخذ بالنفس .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ^(٩) يعني إلا من سبق عليه القول من أهله بالهلاك مع الكفرة الهالكين ، كما قال تعالى : ﴿قُلْنَا أَجَلٌ فِيهَا مِنْ

(١) نوح : الآيتان (٢٦ و ٢٧) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤٨-٣٤٩) .

(٥) نوح : الآيتان (٢٦ و ٢٧) .

(٧) هود : الآية (٤٢) .

(٩) الأنبياء : الآية (٧٦) .

(٢) هود : الآية (٤٠) .

(٤) الصافات : الآيات (٧٥-٧٧) .

(٦) القمر : الآيات (٩-١١) .

(٨) العنكبوت : الآية (١٥) .

كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴿١﴾ الآية. ومن سبق عليه القول منهم: ابنه المذكور في قوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿٢﴾ وامرأته المذكورة في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ ﴿٣﴾. اهـ ﴿٤﴾

* * *

(٢) هود: الآية (٤٣).

(١) هود: الآية (٤٠).

(٣) التحريم: الآية (١٠).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٥٩٥-٥٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ
غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا
ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾

★ غريب الآية:

نفشت: تفرقت وانتشرت لترعى ليلاً بلا راع. مِنْ نَفَسَتْ الصَّوْفُ إِذَا بَشَّهَا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- لنبه محمد ﷺ: واذكر داود وسليمان
يا محمد إذ يحكمان في الحرث

واختلف أهل التأويل في ذلك الحرث ما كان؟ فقال بعضهم: كان نبثاً.. وقال
آخرون: بل كان ذلك الحرث كرمًا.. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك
بالصواب ما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ والحرث: إنما هو
حرث الأرض، وجائز أن يكون ذلك كان زرعاً، وجائز أن يكون غرساً، وغير ضائر
الجهل بأي ذلك كان.

وقوله: ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ يقول: حين دخلت في هذا الحرث غنم
القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلاً، فرعته أو أفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ
شَاهِدِينَ﴾ يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت
غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيب
عنا علمه، وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ يقول: ففهمنا القضية في ذلك ﴿سُلَيْمَانَ﴾ دون داود
﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يقول: وكلهم من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم
في أول هذه السورة آتيناهم حكماً وهو النبوة، وعلماً: يعني وعلماً بأحكام الله^(١).

قال ابن العربي: «فيها ثماني عشرة مسألة:

المسألة الأولى : قوله : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ لم يرد إذ جمعهما في القول اجتماعهما في الحكم ، فإن حاكمين على حكم واحد لا يجوز ، كما قدمناه ، وإنما حكم كل منهما على انفراد بحكم ، وكان سليمان هو الفاهم لها .

المسألة الثانية : في دستور في قصص القرآن : وذلك أن الله ذكر لرسوله ما جرى من الأمم وعليها ، وأقوال الأنبياء وأفعالها ، فأحسن القصص وهو أصدقها ؛ فإن الإسرائيليات ذكروها مبدلة وبزيادة باطلة موصولة ، أو بنقصان محرف للمقصد منقولة ، وما نقل من حديث نفس الغنم ، وقضاء داود وسليمان فيها ، انظروا إليه ، فما وافق منه ظاهر القرآن فهو صحيح ، وما خالفه فهو باطل ، وما لم يرد له فيه ذكر فهو محتمل ، ربك أعلم به .

المسألة الثالثة : في ذكر وصف ما قضاه النبيان صلى الله عليهما وسلم فيه : وفيه قولان : أحدهما : أنه كان زرعاً وقعت فيه الغنم ليلاً ، قاله قتادة .

الثاني : أنه كان كرماً نبتت عناقيده ، وهو قول ابن مسعود وشريح .

وقد روي أن النفس رعي الليل ، والهمل رعي النهار ، وهذا هو المشهور في اللغة .

المسألة الرابعة : في ذكر وصف قضائهما : أما حكم داود فإنه يروي أنه قضى لصاحب الحرث بالغنم .

وأما حكم سليمان فإنه قضى بأن تدفع الغنم لصاحب الحرث عله^(١) يغتلبها ، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم بعمارتها ، فإذا عاد في السنة المقبلة إلى مثل حالته رد إلى كل أحد ماله قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، فرجع داود إلى حكم سليمان . .

المسألة السابعة : قال بعض الناس : إن داود لم يكن أنفذ الحكم ، وظهر له ما قال غيره .

وقال آخرون : لم يكن حكماً ، وإنما كانت فتياً ، فأما القول بأن ذلك من داود كان فتياً فهو ضعيف ؛ لأنه كان النبي ، وفتياه حكم .

وأما قوله الآخر : إنه لم يكن أنفذ الحكم فظهر له ما قال غيره فهو ضعيف ؛ لأنه قال : ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ ، فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم ، على أنه قد قيل : إن

(١) هكذا بالأصل ، ولعله : غَلَّة .

الفتيا حكم، وهو صحيح لفظاً، وفي بعض المعنى؛ لأنه يلزم المقلد قوله، ولا يلزم المجتهد قول غيره.

وقد قيل: إن الله أوحى أن الحكم حكم سليمان، فعلى هذا كان القضاء من الله، وكل ذلك محتمل.

وهذا كله مبني على أن الأنبياء يجوز لهم الحكم بالاجتهاد، وهي: المسألة الثامنة: وقد بينا في كتاب التمهيد أن اجتهادهم صحيح؛ لأنه دليل شرعي، فلا إحالة في أن يستدل به الأنبياء.

فإن قيل: إنما يكون دليلاً إذا عدم النص، وهم لا يعدونه، لأجل نزول الملك.

قلنا: إذا لم ينزل الملك فقد عدموا النص.

جواب آخر: وذلك أنه عندنا دليل مع عدم النص، وعندهم هو دليل مع وجوده والله أعلم^(١).

قال السعدي: «أي: واذكر هذين النبيين الكريمين ﴿ذَاوُدَ﴾ و﴿سُلَيْمَانَ﴾ مثنياً مبجلاً، إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفست فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلاً فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، ففضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بديرها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، تراداً ورجع كل منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله: ﴿وَوَكَّلْنَا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي: آتيناهما حكماً وعِلْماً. وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده^(٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٩/٥-٢٥٠).

(١) أحكام القرآن (٣/١٢٦٦-١٢٦٨).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ﴾ منصوب بـ (اذكر) مقدرا. وقيل: معطوف قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾^(١) أي واذكر نوحا إذ نادى من قبل ﴿وَدَاوُدَ﴾ و﴿سُلَيْمَنَ إِذْ يَخُصَّصُ فِي الْحَرْثِ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِذْ﴾ بدل من (داود وسليمان) بدل اشتمال كما أوضحناه في سورة مريم وذكرنا بعض المناقشة فيه، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وذكرنا في هذا الكتاب مسائل كثيرة من ذلك. فإذا علمت ذلك فاعلم أن جماعة من العلماء قالوا: إن حكم داود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحى: إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخا لما أوحى إلى داود.

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده، وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لوما ولا ذما بعدم إصابته. كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ﴾، وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فدل قوله: ﴿إِذْ يَخُصَّصُ فِي الْحَرْثِ﴾ على أنهما حكما فيها معا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف. ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهما إياها كما ترى. فقوله: ﴿إِذْ يَخُصَّصُ فِي الْحَرْثِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ الآية يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع. لا أنه أنزل عليه فيها وحيا جديدا ناسخا. لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله

أجران وإذا أخطأ فله أجر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت امرأتان معهما ابناهما

جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجنا على سليمان بن داود فأخبرناه فقال : آتوني بالسكين أشقه بينهما . فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها . فقضى به للصغرى^(١) .

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر : « قوله : « فقضى به للكبرى » إلخ قيل : كان ذلك على سبيل الفتيا منهما لا الحكم ، ولذلك ساغ لسليمان أن ينقضه . وتعقبه القرطبي بأن في لفظ الحديث أنه قضى بأنهما تحاكما ، وبأن فتيا النبي وحكمه سواء في وجوب تنفيذ ذلك . وقال الداودي : إنما كان منهما على سبيل المشاورة فوضح لداود صحة رأي سليمان فأمضاه . وقال ابن الجوزي : استويا عند داود في اليد ، فقدم الكبرى للسن . وتعقبه القرطبي وحكى أنه قيل : كان من شرع داود أن يحكم للكبرى قال : وهو فاسد لأن الكبير والصغير وصف طردي كالطول والقصر والسواد والبياض ، ولا أثر لشيء من ذلك في الترجيح ، قال : وهذا مما يكاد يقطع بفساده . قال : والذي ينبغي أن يقال إن داود عليه السلام قضى به للكبرى لسبب اقتضى به عنده ترجيح قولها ، إذ لا بينة لواحدة منهما ، وكونه لم يعين في الحديث اختصارا لا يلزم منه عدم وقوعه ، فيحتمل أن يقال : إن الولد الباقي كان في يد الكبرى وعجزت الأخرى عن إقامة البينة قال : وهذا تأويل حسن جار على القواعد الشرعية وليس في السياق ما يأباه ولا يمنعه ، فإن قيل فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ؟ فالجواب أنه لم يعمد إلى نقض الحكم ، وإنما احتال بحيلة لطيفة أظهرت ما في نفس الأمر ، وذلك أنهما لما أخبرتتا سليمان بالقصة فدعا بالسكين ليشقه بينهما ، ولم يعزم على ذلك في الباطن ، وإنما أراد استكشاف الأمر ، فحصل مقصوده لذلك لجزع الصغرى الدال على عظيم الشفقة ، ولم يلتفت إلى إقرارها بقولها هو ابن الكبرى لأنه علم أنها آثرت حياته ، فظهر له من قرينة شفقة الصغرى وعدمها في الكبرى - مع ما انضاف إلى ذلك من القرينة الدالة على صدقها - ما هجم به على الحكم للصغرى . ويحتمل أن يكون سليمان عليه السلام ممن يسوغ له أن يحكم بعلمه ، أو تكون الكبرى في تلك

(١) أخرجه : أحمد (٢/٣٢٢) والبخاري (٦/٥٦٦-٣٤٢٧-٦٧٦٩) ومسلم (٣/١٣٤٤-١٣٤٥/١٣٢٠) والنسائي (٨/٢٣٦-٢٣٧/٥٤١٩) .

الحالة اعترفت بالحق لما رأت من سليمان الجد والعزم في ذلك . ونظير هذه القصة ما لو حكم حاكم على مدع منكر يمين ، فلما مضى ليحلفه حضر من استخرج من المنكر ما اقتضى إقراره بما أراد أن يحلف على جحده ، فإنه والحالة هذه يحكم عليه بإقراره سواء كان ذلك قبل اليمين أو بعدها ، ولا يكون ذلك من نقض الحكم الأول ، ولكن من باب تبدل الأحكام بتبدل الأسباب . وقال ابن الجوزي : استنبط سليمان لما رأى الأمر محتملاً فأجاد ، وكلاهما حكم بالاجتهاد ، لأنه لو كان داود حكم بالنص لما ساغ لسليمان أن يحكم بخلافه^(١) .

قال المازري : « هذا يكون أصلاً في استعمال الحكام طرقاً من الحيل المباحة في استخراج الحقوق إذا وقع الإشكال . وكأن داود رجح بالكبر فقضى به ، وهذا ليس في شرعنا . وأما سليمان فعلم أن الطباع مجبولة على الإشفاق على الولد ، فأراد اختبار المشفقة عليه ليستدل بذلك على الأم منهما^(٢) .

قال القاضي عياض : « يحتمل أن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى على مقتضى شرعنا إذ كان لا يخالفه ، إما لكونه في يدها أو يشبهها إن كان القضاء في شرعه في الإلحاق بالشبهة ، وحكم سليمان بعد هذا التوسط والتلطف به للصغرى ؛ لما رأى من إشفاقها بعد تعجيزه الكبرى بذلك وفضيحتها لها ، إذ لو كان ولدها لأشفقت عليه فيكون منها حينئذ لتلك الخجلة والفضيحة ما يوجب الاعتراف والتسليم ، ومثل هذا يفعل به نبهاء الحكام من الاستدلال بأمور لو تجردت لم يقضى بها في شيء ، لكن يقيم بها الحجة والإرهاب على المدعي حتى يستبين منه الاضطراب ، ويضطر إلى الاعتراف ، ورب قوي الشكيمة في الباطل لا تنفع فيه رقية ولا حيلة^(٣) .

قال ابن بطال : « فيه من الفقه : أن من أتى من المتنازعين بما يشبه فالقول قوله ؛ لأن سليمان جعل شفقتها عليه شبهة مع دعواها .

وفيه : أنه جائز للعالم مخالفة غيره من العلماء وإن كانوا أسن منه وأفضل إذا رأى الحق في خلاف قولهم .

(١) الفتح ٥٧٤-٥٧٥ .

(٢) المعلم ٢/٢٦٦ .

(٣) إكمال المعلم ٥/٥٨٠ .

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُنَانِ فِي الْحَرَّةِ﴾ الآية فإنه أثنى على سليمان بعلمه، وعذر داود باجتهاده ولم يخله من العلم^(١).

وقال الحافظ ابن حجر: «دلت هذه القصة على أن الفطنة والفهم موهبة من الله لا تتعلق بكبر سن ولا صغره، وفيه أن الحق في جهة واحدة، وأن الأنبياء يسوغ لهم الحكم بالاجتهاد وإن كان وجود النص ممكناً لديهم بالوحي، لكن في ذلك زيادة في أجورهم ولعصمتهم من الخطأ في ذلك؛ إذ لا يقرون لعصمتهم على الباطل^(٢)».

* عن حرام بن محيصة عن أبيه أن ناقة للبراء بن عازب دخلت جائط رجل فأفسدته عليهم، ف قضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «وهذه سنة لرسول الله ﷺ خاصة في هذا الباب، ويشبه أن يكون إنما فرق بين الليل والنهار في هذا لأن في العرف أن أصحاب الحوائط والبساتين يحفظونها بالنهار ويوكلون بها الحفاظ والنواطير. ومن عادة أصحاب المواشي أن يسرحوها بالنهار ويردونها مع الليل إلى المراح فمن خالف هذه العادة كان به خارجاً عن رسوم الحفاظ إلى حدود التقصير والتضييع، فكان كمن ألقى متاعه في طريق شارع أو تركه في غير موضع حرز، فلا يكون على آخذه قطع. وبالتفريق بين حكم الليل والنهار قال الشافعي. وقال أصحاب الرأي: لا فرق بين الأمرين، ولم يجعلوا على أصحاب المواشي غرماً، واحتجوا بقوله: «العجماء جبار»^(٤).

قال الشيخ: وحديث العجماء جبار عام، وهذا حكم خاص، والعام ينبئ على الخاص. ويرد إليه فالمصير في هذا إلى حديث البراء والله أعلم^(٥).

(١) شرح صحيح البخاري (٨/٣٨٥). (٢) فتح الباري (٦/٥٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/٤٣٦) وأبو داود (٣/٨٢٨-٨٣٠/٣٥٦٩-٣٥٧٠) وابن ماجه (٢/٧٨١/٢٣٣٢) والنسائي في الكبرى (٣/٤١١/٥٧٨٤) وصححه ابن حبان (١٣/٣٥٤-٣٥٥/٦٠٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٩) والبخاري (١٢/٣١٤/٦٩١٢) ومسلم (٣/١٣٣٤/١٧١٠) وأبو داود (٣/٤٦٢/٣٠٨٥) والترمذي (٣/٦٦١/١٣٧٧) والنسائي (٥/٤٧/٢٤٩٤) وابن ماجه (٢/٨٩١/٢٦٧٣) من حديث

أبي هريرة ؓ.

(٥) معالم السنن (٣/١٥٢).

قال ابن عبد البر: «والفرق عند أهل العلم في حديث البراء وحديث أبي هريرة في العجماء وبين ما تتلفه العجماء ليلاً من الزرع والحرث وبينما تتلفه نهاراً أن أهل المواشي بهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم لترعى بالنهار. ولأهل الزرع حقوق في أن لا تتلف عليهم زروعهم. والأغلب عندهم أن من له الزرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده لا انتشار البهائم للرعي وغيره. فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزرع، لأنه وقت التصرف في المعاش والرعي، وحفظ الأموال، وإرسال الدواب، والمواشي. وإذا أتلقت بالنهار من الزرع شيئاً فصاحب الزرع إنما أوتي من قبل نفسه حيث لم يحفظه في الوقت الذي الأغلب من الناس أنهم يحفظونه فيه ممن أراده. إذ لو منع الناس من ترك مواشيهم للرعي من أجل الزرع للحقتهم في ذلك مضرة ومشقة، فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه، ويرجع أهل الزرع إلى منازلهم، ويرد أهل الماشية ماشيتهم إلى مواضعهم ليحفظوها فيها، فإذا تركوها ليلاً حتى أفسدت فالجناية من أهل المواشي، لا من أهل الزرع، لأن الأغلب أن الناس لا يحفظون زروعهم بالليل لاستغنائهم عن ذلك، وعلمهم أن المواشي بالليل ترد إلى أماكنها. فإذا فرط صاحب الماشية في ردها إلى منزله، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلقت شيئاً، فعليه ضمان ذلك، إلا أن تكون الماشية ضالة أو نافرة، فلا يتهماً لصحابها ضمها ولا ردها إلى مكانها، فإذا كان كذلك لم يلزمه ضمان ما أتلقت بالليل - كما لا يلزمه ضمان ما أتلقت بالنهار. وأما السائق والراكب والقائد فإنهم يضمنون ما أصابت الدابة استدلالاً بحديث البراء، لأن ذلك في معنى ما أتلقت بالليل، لأن الراكب يتهماً له حفظ الدابة فعليه حفظها، ولا مشقة عليه في ذلك وكذلك سائقها وقائدها. والأغلب أن الناس إذا ركبوا أو ساقوا أو قادوا، منعوا الدابة مما أرادت من إتلاف أو غيره، فإذا لم يفعلوا ذلك فإنما أوتوا من قبل أنفسهم، فعليهم الضمان، إلا أن تكون الدابة قد غلبت الراكب أو القائد أو السائق، فلم يقدر عليها. فإذا كان كذلك فلا غرم عليه، ولا ضمان يلزمه، لأنه مغلوب عن حفظ ما أمر بحفظه، ولم يمكنه الدفع.

وخبر البراء بن عازب هذا في طرح الضمان عن أهل المواشي، فيما أتلقت ماشيتهم من زروع الناس نهاراً إنما معناه عند أهل العلم إذا أطلقت للرعي، ولم يكن معها صاحبها، وأما إذا كانت ترعى ومعها صاحبها فلم يمنعها من زرع غيره،

وقد أمكنه ذلك حتى أتلفته فعليه الضمان ، لأنه لا مشقة عليه في منعها . وهو في معنى الراكب والسائق . وبالله العصمة والتوفيق»^(١) .

وقال **رحمه الله** : «فأما فساد الزروع والحوائط والكروم فقال مالك والشافعي وأهل الحجاز في ذلك ما ذكرناه عنهم في هذا الباب ، وحجتهم حديث البراء بن عازب المذكور فيه مع ما دل عليه القرآن في قصة ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخَرِثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ . ولا خلاف بين أهل اللغة أن النفس لا يكون إلا بالليل ، وكذلك قال جماعة العلماء بتأويل القرآن . وقال الله **رحمه الله** لمحمد **ﷺ** ، عند ذكر من ذكر من أنبيائه في سورة الأنعام ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾^(٢) . فجاز الاقتداء بكل ما ورد به القرآن من شرائع الأنبياء ، إلا أن يمنع من ذلك ما يجب التسليم له ، من نسخ في الكتاب أو سنة واردة عن النبي **ﷺ** بخلاف ذلك تبين مراد الله . فيعلم حينئذ أن شريعتنا مخالفة لشريعتهم ، فتحمل على ما يجب الاحتمال عليه من ذلك ، وبالله التوفيق»^(٣) .

* عن عمرو بن العاص **رضي الله عنه** أنه سمع رسول الله **ﷺ** يقول : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»^(٤) .

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر : «اختلف الفقهاء في تأويل هذا الحديث ، فقال قوم : لا يؤجر من أخطأ لأن الخطأ لا يؤجر أحد عليه وحسبه أن يرفع عنه المأثم ، وردوا هذا الحديث بحديث بريدة المذكور في هذا الباب»^(٥) ويقولون : «تجاوز الله لأمتي عن خطيئها ونسيانها»^(٦) ويقول الله : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾^(٧) ونحو

(١) التمهيد (١١/ ٥٧١-٥٧٢ فتح البر) .

(٢) التمهيد (١١/ ٥٦٨-٥٦٩ فتح البر) .

(٣) أخرجه : أحمد (٤/ ١٩٨) والبخاري (١٣/ ٣٩٣/ ٧٣٥٢) ومسلم (٣/ ١٣٤٢/ ١٧١٦) وأبو داود (٤/ ٦-٧/ ٣٥٧٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٦١/ ٥٩١٨) وابن ماجه (٢/ ٧٧٦/ ٢٣١٤) .

(٤) سيأتي تخريجه قريباً .

(٥) أخرجه : ابن ماجه (١/ ٦٥٩/ ٢٠٤٥) وصححه الحاكم (٢/ ١٣٨) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وابن

حبان (١٦/ ٢٠٦/ ٧٢١٩) من حديث ابن عباس **رضي الله عنه** .

(٧) الأحزاب : الآية (٥) .

هذا، وقال آخرون: يؤجر في الخطأ أجرا واحدا على ظاهر حديث عمرو بن العاص؛ لأن رسول الله ﷺ قد فرق بين أجر المخطئ والمصيب فدل أن المخطئ يؤجر، وهذا نص ليس لأحد أن يرده. وقال الشافعي رحمه الله ومن قال بقوله: يؤجر ولكنه لا يؤجر على الخطأ؛ لأن الخطأ في الدين لم يؤمر به أحد، وإنما يؤجر لإرادته الحق الذي أخطأه، قال المزني: فقد أثبت الشافعي في قوله هذا أن المجتهد المخطئ أحدث في الدين ما لم يؤمر به ولم يكلفه، وإنما أجر في نيته لا في خطئه»^(١).

قال ابن بطال: «قال ابن المنذر: وإنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن، وأما من لم يعلم ذلك فلا يدخل في معنى الحديث، يدل على ذلك ما رواه الأعمش، عن سعيد ابن عبيدة، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، فقاض قضى بغير الحق وهو يعلم، فذلك في النار، وقاض قضى وهو لا يعلم فأهلك حقوق الناس فذلك في النار، وقاض قضى بالحق، فذلك في الجنة»^(٢).

قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية^(٣).

وقال أيضا: «قال أبو بكر ابن الطيب: اختلفت الروايات عن أئمة الفتوى في هذا الباب كمالك وأبي حنيفة والشافعي:

فأما مالك، فالمروي عنه منعه المهدي من حمله الناس على العمل والفتيا بما في الموطأ، وقال له: دع الناس يجتهدون. وظاهر هذا إيجابه على كل مجتهد القول بما يؤديه الاجتهاد إليه، ولو رأى أن الحق في قوله فقط، أو قطع عليه لكان الواجب عليه المشورة على السلطان بالعمل به، ويبعد أن يعتقد مالك أن كل مجتهد مأمور بالحكم والفتيا باجتهاده، وإن كان مخطئا في ذلك، وذكر عن أبي حنيفة والشافعي القولين جميعا.

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٨٣-٨٨٤).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٨١).

واحتج من قال : إن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين بقوله -ﷺ- : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر». قالوا : وهذا نص على أن في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئا ومصيبا، قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدي إلى كون الشيء حلالا حراما وواجبا ندبا، ويلزم الحاكم اعتقاد كونه حلالا إذا رأى ذلك بعض أهل الاجتهاد، وحراما إذا رأى ذلك غيره، وأن تكون الزوجة محللة محرمة، والمال ملك الإنسان وغير ملك له إذا اختلف في ذلك أهل الاجتهاد.

واحتج كل من قال : كل مجتهد مصيب، فقالوا : اتفق الكل من الفقهاء على أن فرض كل عالم الحكم والفتيا بما أداه الاجتهاد إليه، وما هو الحق عنده وفي غالب ظنه، وأنه حرام عليه أن يفتي ويحكم بقول مخالفه، ولو كان في الأقاويل المختلف فيها ما هو خطأ وخلاف دين الله لم يجوز أن تجمع الأمة على أن فرض القائل به ؛ لأن إجماعها على ذلك إجماع على خطأ، وقد نهى الله عنه وشرع خلافه .

ولو جاز أن يكون أحدهما مخطئا لأدى ذلك إلى أن الله تعالى أمر أحدهما بإصابة عين الباطل، وفي هذا القول بأن الله أمر بالباطل، وإذا فسد هذا مع كونه مأمورا بالاجتهاد وجب كونه بفتياه ممثلا أمر ربه وطائعا له ومصيبا عند الله، فثبت أن الحق مع كل واحد منهما بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(١)، ومع قيام الدليل على أن طاعة الباري إنما كانت طاعة لأمره بها كما أن المعصية كانت معصية لنهيه عنها .

وقد أجاب الشافعي عن هذا الحديث في الرسالة بنحو هذا فقال : لو كان في الاجتهاد خطأ وصواب في الحقيقة لم يجوز أن يثاب على أحدهما أكثر من الآخر ؛ لأن الثواب لا يجوز فيما لا يسوغ ولا في الخطأ الموضوع إثمه عنا .

وقال ابن الطيب : هذا الخبر يدل على أن كل مجتهد مصيب أولى وأقرب ؛ لأن المخطئ لحكم الله والحاكم بغيره مع الأمر له به لا يجوز أن يكون مأجورا على الحكم بالخطأ بل أقصى حالاته أن يكون إثمه موضوعا عنه فأما أن يكون بمخالفة حكم الله مأجورا فإنه باطل باتفاق، والنبي -ﷺ- قد جعله مأجورا، فدل ذلك على

أن هذا ليس بخطأ في شيء من الأحكام وجب عليه ولزمه الحكم به .

ويحتمل أن يكون معناه إذا اجتهد في البحث والطلب للنص فأصابه وحكم بموجبه فله أجران : أحدهما على البحث والطلب ، والآخر على الحكم بموجبه ، وأراد بقوله : «إن حكم فأخطأ» أي : أخطأ الخبر ، بأن لم يبلغه مع الاجتهاد في طلبه ، ثم حكم باجتهاده المخالف لحكم النص كان مخطئاً للنص ومصيبه لا محالة في الحكم ؛ لأن الحكم بالاجتهاد عند ذلك هو فرضه .

ولهذا كان يقول عمر عندما كان يبلغه الخبر : لولا هذا لقضينا فيه برأينا ، ولم يقل له أحد من الصحابة : لو قضيت فيه برأيك ولم يبلغك الخبر لكنت بذلك عاصياً ، ولم أردت أن تقضي بالرأي وهذا الخبر كان موجوداً ، فدل إمساك الكل عن ذلك أن فرض الحاكم والمجتهد الحكم والفتيا برأيه ، وإن خالف موجب الخبر ، فإذا بلغه تغير عند ذلك فرضه ولزمه الحكم بموجبه .

ولا نقول : إن كل مجتهد مصيب إلا في الفروع ومسائل الاجتهاد التي يجوز للعامي فيها التقليد ، وأما القول بوجوب الصلوات الخمس والصيام والحج وكل فرض يثبت العمل به بالتواتر والاتفاق فأصل من أصول الدين الذي يحرم خلافه كالتوحيد والنبوة وما يتصل بها^(١) .

قال ابن عبد البر : «وذكر عبيد الله بن عمر بن أحمد الشافعي البغدادي في كتابه في القياس جملاً مما ذكر الشافعي رحمته الله في كتابه في الرسالة البغدادية وفي الرسالة المصرية وفي كتاب جماع العلم وفي كتاب اختلاف الحديث في القياس وفي الاجتهاد قال : وفي هذا من قول الشافعي دليل على ترك تخطئة المجتهدين بعضهم لبعض إذ كل واحد منهم قد أدى ما كلف باجتهاده ، إذا كان ممن اجتمعت فيه آلة القياس ، وكان ممن له أن يجتهد ويقيس . قال : وقد اختلف أصحابنا في ذلك فذكر مذهب المزني ، قال : وقد خالفه غيره من أصحابنا قال : ولا أعلم اختلافاً بين الحذاق من شيوخ المالكيين ونظرائهم من البغداديين مثل إسماعيل بن إسحاق القاضي وابن بكير وأبي العباس الطيالسي ومن دونهم مثل شيخنا عمر بن محمد بن أبي الفرج المالكي ، وأبي الطيب محمد بن محمد بن إسحاق بن راهويه ، وأبي

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٨١-٣٨٤) .

الحسن بن المنتاب وغيرهم من الشيوخ البغداديين والمصريين المالكيين، كل يحكي أن مذهب مالك رحمته الله في اجتهاد المجتهدين والقياسيين إذا اختلفوا فيما يجوز فيه التأويل من نوازل الأحكام أن الحق من ذلك عند الله واحد من أقوالهم واختلافهم، إلا أن كل مجتهد إذا اجتهد كما أمر وبالعلم ولم يأل وكان من أهل الصناعة ومعه آلة الاجتهاد فقد أدى ما عليه، وليس عليه غير ذلك، وهو مأجور على قصده الصواب، وإن كان الحق عند الله من ذلك واحدا، قال: وهذا القول هو الذي عليه عمل أكثر أصحاب الشافعي رحمته الله قال: وهو المشهور من قول أبي حنيفة رحمته الله فيما حكاه محمد بن الحسن، وأبو يوسف وفيما حكاه الحذاق من أصحابهم مثل عيسى بن أبان، ومحمد بن شجاع البلخي، ومن تأخر عنهم مثل أبي سعيد البرذعي، ويحيى بن سعيد الجرجاني وشيخنا أبي الحسن الكرخي، وأبي بكر البخاري المعروف بحد الجسم وغيرهم ممن رأينا وشاهدنا وبالله التوفيق. قال أبو عمر: قد اختلف أصحاب مالك فيما وصفنا، واختلف فيه قول الشافعي، وكذلك اختلف فيه أصحابه، والذي أقول به: إن المجتهد المخطئ لا يأثم إذا قصد الحق وكان ممن له الاجتهاد، وأرجو أن يكون له في قصده الصواب وأراد به، له أجر واحد إذا صحت نيته في ذلك، والله أعلم^(١).

قال القرطبي: «قوله: «فأصاب» أي حكم فأصاب وجه الحكم. وهو أن يحكم بالحق لمستحقه في نفس الأمر عند الله تعالى. فهذا يكون له أجر بحسب اجتهاده، وأجر بسبب إصابة ما هو المقصود لنفسه. والخطأ الذي يناقض هذا هو أن يجتهد في حجج الخصمين، فيظن أن الحق لأحدهما، وذلك بحسب ما سمع من كلامه وحجته فيقضي له، وليس كذلك عند الله تعالى. فهذا له أجر اجتهاده خاصة إذ لا إصابة. وهذا المعنى هو الذي أراده النبي ﷺ بقوله: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على حسب ما أسمع» وفي الأخرى: «فأحسب أنه صادق فأقضي له»^(٢). وهذا في الحاكم بين الخصوم واضح؛ لأن هنالك حقا معينا

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٨٥-٨٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٠٧/٦) والبخاري (٣٦١/٥) ومسلم (١٣٣٧/٣) وأبو داود (١٢/٤) وابن ماجه (٢٣١٧/٢) عن أم سلمة

(٣٥٨٣) والترمذي (١٣٣٩/٢٤٤) والنسائي (٥٤١٦/٢٢٥) وابن ماجه (٢٣١٧/٢) عن أم سلمة

عند الله تعالى تنازعه الخصمان، لأن أحد الخصمين مبطل قطعاً، لأنهما تقاسما الصدق والكذب، فمتى صدق أحدهما كذب الآخر. والحاكم إنما يجتهد في تعيين الحق، فقد يصيبه وقد يخطئه. وعلى هذا فلا ينبغي أن يختلف هنا في أن المصيب واحد، وأن الحق في طرف واحد. وإنما ينبغي أن يختص الخلاف بالمجتهد في استخراج الأحكام من أدلة الشريعة بناء على الخلاف في أن النوازل غير المنصوص عليها، هل لله تعالى فيها أحكام معينة أم لا؟ وللمسألة غور، وفيها أبحاث استوفيناها في كتابنا في الأصول.

وأعظم فوائد هذا الحديث أن الحاكم لا بد أن يكون من أهل الاجتهاد، فإذا اجتهد وحكم فلا بد له من الأجر، فإما ضعفان مع الإصابة، وإما ضعف واحد مع الخطأ. فأما لو كان جاهلاً أو مقصراً في اجتهاده فهو عاص آثم في كل ما يحكم به. أما الجاهل فلعدم أهليته. وأما المقصر فلعدم استيفاء شرطه. وكلاهما حكم بغير حكم الله، بل بالباطل، والاختلاق على الله^(١).

قال أبو بكر ابن العربي: «اعلموا وفقكم الله أن الأجر على العمل القاصر على العامل واحد، وأن الأجر على العمل المتعدى إلى الغير أجران فإنه يؤجر في نفسه، ويجري له ما تعلق بغيره من جنسه فإذا قضى بالحق وأعطاه لمستحقه ثبت له أجر اجتهاده، وجرى له أجر الاستحقاق في عود الحق إلى مكانه، وإذا كان أحد الخصمين الحن بحجته من الآخر فقضى لغير صاحبه بالمدعى فيه كان له أجر الاجتهاد خاصة، وقد حاموا عليه فما أسفوا، والله المؤمن بفضلته ورحمته»^(٢).

* عن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»^(٣).

(١) المفهم (٥/١٦٧-١٦٨).

(٢) عارضة الأحوذى (٦/٧٢).

(٣) أخرجه: أبو داود (٤/٣٥٧٣) وقال: «وهذا أصح شيء فيه، يعني حديث ابن بريدة»، والترمذي (٣/١٣٢٢/٦١٣) وابن ماجه (٢/٧٧٦/٢٣١٥) والنسائي في الكبرى (٣/٤٦١-٤٦٢/٥٩٢٢) والحاكم (٩٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم» وتعبه الذهبي: «ابن بكير الغنوي منكر الحديث. وله شاهد صحيح». والحديث صححه الشيخ الألباني رحمته الله في صحيح سنن أبي داود (٢/٦٨٢).

★ فوائد الحديث:

قال أبو بكر ابن العربي: «الذي يقضي بالجور قد أتى كبيرة من أعظم الكبائر في ظلم العباد ونقض عهد الله من بعد ميثاقه، وما أبعد من المغفرة المطلقة، والذي يقضي بالجهل جائر لا تقصر مرتبته عنه. ومثال الأول: مثال من يقتل من لا يحل قتله، أو يزني بمن لا يحل وطؤه. ومثال الثاني: من يتعرض للقتل ولا يبالي أصاب قتله من يستحقه أو لا يستحقه، وكذلك من يسترسل على وطء من وجد من النساء ولا يبالي كانت ممن تحل له أو لا تحل، فالأول منتهك للحرمة عمداً، والثاني مستهين بها نية وعقداً، والثالث من خلفاء الله في أرضه، وممن قال فيه النبي ﷺ: «المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن وكلنا يديه يمين»^(١) والآثار في ذلك كثيرة. هذا الذي قضى بالحق إن كان عن علم، فهو الذي تقدم وإن كان عن تقليد فلا يجوز أن يتخذ قاضياً إلا عند الضرورة، فيقضي حينئذ في النازلة بفتوى عالم رآه ورواه بنص النازلة، فإن قاس على قوله أو قال يحى من هذا كذا أو نحوه فهو معتد، ولا يحل تولية مقلد في موضع يوجد فيه عالم، فإذا تقلد فهو جائر متعد لأنه قعد في مقعد غيره ولبس خلعة سواه من غير استحقاق والله أعلم»^(٢).

قال أبو الطيب محمد آبادي: «والحديث دليل على أنه لا ينجو من النار من القضاة إلا من عرف الحق وعمل به، والعمدة العمل، فإن من عرف الحق ولم يعمل فهو ومن حكم بجهل سواء في النار، وظاهره أن من حكم بجهل وإن وافق حكمه الحق فإنه في النار لأنه أطلقه وقال فقضى للناس على جهل، فإنه يصدق على من وافق الحق وهو جاهل في قضائه أنه قضى على جهل، وفيه التحذير من الحكم بجهل أو بخلاف الحق مع معرفته به»^(٣).



(١) أخرجه: أحمد (٢/١٦٠) ومسلم (٣/١٤٥٨/١٨٢٧) والنسائي (٨/٦١٢-٦١٣/٥٣٩٤) من حديث عبد الله

ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) عارضة الأحوذى (٦/٦٧-٦٨).

(٣) عون المعبود (٩/٤٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «ذكر ما خص به كلا منهما فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكرا وتسيحا وتمجيذا، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحدا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، فلهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾»^(١).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه سخر الجبال أي ذلها، وسخر الطير تسبح مع داود. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من تسخير الطير، والجبال تسبح مع نبيه داود بينه في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾^(٢) الآية. وقوله: ﴿أَوِي مَعَهُ﴾ أي رجعي معه التسبيح. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي وناديننا الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه. وقول من قال: ﴿أَوِي مَعَهُ﴾: أي سيري معه، وأن التأويب سير النهار ساقط كما ترى. وكقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٣) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُنُقِ وَالْإِنشِرَاقِ ﴿٧﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾^(٤).

والتحقيق: أن تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي. لأن الله -جل وعلا- يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو -جل وعلا- ونحن لا نعلمها. كما قال: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ مِّنَ الْجِبَارَةِ لَمَّا يَنْفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَلَنْ مِّنْهَا لَمَّا يَنْشَقُّ مِنْهُ الْمَاءُ وَلَنْ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٠).

(٢) سبأ: الآية (١٠).

(٣) ص: الآيات (١٧-١٩).

(٤) الإسراء: الآية (٤٤).

مِنْهَا لَمَّا يَهَيِّطُ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ^(١) والآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾^(٢) الآية. وقد ثبت في صحيح البخاري: أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين^(٣).

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجرا كان يسلم علي في مكة قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن»^(٤)، وأمثال هذا كثيرة، والقاعدة المقررة عند العلماء: أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه. والتسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، وفي اصطلاح الشرع: تنزيه الله - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ أي: جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح والظاهر أن قوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ مؤكد لقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ﴾ والموجب لهذا التأكيد: أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة.

وقال الزمخشري: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي قادرين على أن نفعل هذا. وقيل: كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك. وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط. لأن تأويل ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بمعنى كنا قادرين بعيد، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى.

وقال أبو حيان: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن، والطير لمن نخصه بكرامتنا اه، وأظهرها عندي هو ما تقدم، والعلم عند الله تعالى^(٥).

(١) البقرة: الآية (٧٤).

(٢) الأحزاب: الآية (٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (١٠٩/٢) والبخاري (٣٥٨٣/٧٤٦/٦) وأبو داود (١٠٨١/٦٥٣/١) والترمذي (٣٧٩/٢).

(٥٥) من حديث ابن عمر ؓ. وفي الباب عن جابر وأنس وسهل بن سعد وغيرهم ؓ.

(٤) أخرجه: أحمد (٨٩/٥) ومسلم (٢٢٧٧/١٧٨٢/٤) من حديث جابر بن سمرة ؓ.

(٥) أضوا. البيان (٤/٦٧٢-٦٧٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل داود عليه السلام ومقدار عمره

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، إلى ملائمتهم جلوس فقل السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، فقال الله له ويدها مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أي رب ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عيني، فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم. قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة. قال: يا رب زده في عمره قال: ذاك الذي كتبت له. قال: أي رب فإنني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال: أنت وذاك. قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها، فكان آدم يعد لنفسه. قال: فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كتب لي ألف سنة. قال: بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته. قال: فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود»^(١).

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لقد أوتيت زممارا من زمامير آل داود»^(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال الخطابي: «أراد بآل داود، نفس داود خاصة لأنه لم يذكر أن أحدا من آل داود كان أعطي من حسن الصوت ما أعطي داود»^(٣).

قال ابن الأثير: «شبه حُسن صوته وحلاوة نغمته بصوت المزممار. وداود هو النبي ﷺ وإليه المنتهى في حسن الصوت بالقراءة»^(٤).

(١) أخرجه: الترمذي (٤٢٢/٥-٤٢٣/٥٣٦٨) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والنسائي في الكبرى (١٠٠٤٦/٦٣/٦) مختصرا، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/٤٠-٤١/٦١٦٧) والحاكم (١/٦٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: البخاري (٥٠٤٨/١١٣/٩) ومسلم (٧٩٣٢٣٦/٥٤٦/١) والترمذي (٣٨٥٥/٦٥٠/٥).

(٤) النهاية (٣١٢/٢).

(٣) معالم السنن (١٩٥١/٣).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

★ غريب الآية:

لَبُوسٍ: اللبوس: الدرع. وقيل: اسم للسلاح كله عند العرب درعاً أو سيفاً أو رمحاً. قال الهذلي يصف رمحاً:

ومعي لبوس للبتيس كأنه روق بجبهة ذي نعاج مجفل
تحصنكم: تحميكم. وأصل الإحصان: المنع. ومنه سمي الحصن لمنعه الأعداء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «عدد الله تعالى على البشر أن علم داود ﴿صَنْعَةَ﴾ الدروع فكان يصنعها أحكم صنعة لتكون وقاية من الحرب وسبب نجاة من العدو، و(اللبوس) في اللغة السلاح، فمنه الدرع والسيف والرمح وغير ذلك»^(١).

قال الرازي: «فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه، فتوارث الناس عنه ذلك. فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة»^(٢).

قال السعدي: «أي: علم الله داود ﴿صَنْعَةَ﴾ الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده، فألان الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة، ﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس.

(١) المحرر الوجيز (٩٣/٤).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/٢٠٢).

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ نعمة الله عليكم ، حيث أجزاها على يد عبده داود ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾^(١) .

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة ، وأن يكون -كما قاله المفسرون- : إن الله ألان له الحديد ، حتى كان يعمل كالعجين والطين ، من دون إذابة له على النار ، ويحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة ، وأن إلانة الحديد له ، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها ، وهذا هو الظاهر ، لأن الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها ، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد ، لم يمتن عليهم بذلك ، ويذكر فائدتها ، لأن الدروع التي صنع داود ﷺ متعذر أن يكون المراد أعيانها ، وإنما المنة بالجنس ، والاحتمال الذي ذكره المفسرون ، لا دليل عليه إلا قوله : ﴿وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وليس فيه أن الإلانة من دون سبب ، والله أعلم بذلك^(٢) .

قال الشنقيطي : «الضمير في قوله : ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ راجع إلى داود ، والمراد بصناعة اللبوس : صناعة الدروع ونسجها . والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع : أنه أتبعه بقوله : ﴿لِنُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف ، والرمي بالرمح والسهم ، كما هو معروف . وقد أوضح هذا المعنى بقوله : ﴿وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَيْفَتٍ وَقَدَرٍ فِي السَّرَدِ﴾^(٣) فقوله : ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيْفَتٍ﴾ أي أن اصنع دروعا سابغات من الحديد الذي ألناه لك . والسرد : نسج الدرع . ويقال فيه الزرد ، ومن الأول قول أبي ذؤيب الهذلي :

وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أو اصنع السوابغ تبع
ومن الثاني قول الآخر :

نقريهم لهذميات نقد بها
ما كان خاط عليهم كل زراد

(١) النحل : الآية (٨١) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٠-٢٥١) .

(٣) سبأ : الآيتان (١٠ و ١١) .

ومراده بالزراد: ناسج الدرع. وقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّيِّدِ﴾ أي اجعل الحلق والمسامير في نسجك للدرع بأقدار متناسبة. فلا تجعل المسمار دقيقا لثلا ينكسر، ولا يشد بعض الحلق ببعض، ولا تجعله غليظا غليظا زائدا فيفصم الحلقة. وإذا عرفت أن اللبوس في الآية الدروع فاعلم أن العرب تطلق اللبوس على الدروع كما في الآية. ومنه قول الشاعر:

عليها أسود ضاويات لبوسهم سوابغ بيض لا يخرقها النبل

فقوله: (سوابغ) أي دروع سوابغ، وقول كعب بن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سراويل

ومراده باللبوس التي عبر عنها بالسراويل: الدروع. والعرب تطلق اللبوس أيضًا على جميع السلاح درعا كان أو جوشنا أو سيفًا أو رمحا. ومن إطلاقه على الرمح قول أبي كبير الهذلي يصف رمحا:

ومعي لبوس للبتيس كأنه روق بجبهة ذي نعاج مجفل

وتطلق اللبوس أيضًا على كل ما يلبس. ومنه قول يهس:

البس كل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وما ذكره هنا من الامتنان على الخلق بتعليمه صنعة الدروع ليقبهم بها من بأس السلاح تقدم إيضاحه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾^(١) الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ أَسْتَمُ شَكْرُونَ﴾ الظاهر فيه أن صيغة الاستفهام هنا يراد بها الأمر، ومن إطلاق الاستفهام بمعنى الأمر في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْغَيْرِ وَالْمَيْسِرِ وَبُذِّمَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٢) أي انتهوا. ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ﴾^(٣) الآية، أي أسلموا. وقد

(١) النحل: الآية (٨١).

(٢) المائدة: الآية (٩١).

(٣) آل عمران: الآية (٢٠).

تقرر في فن المعاني: أن من المعاني التي تؤدي بصيغة الاستفهام: الأمر، كما ذكرنا.

وقوله: ﴿شَكَرُونَ﴾ شكر العبد لربه: هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل. ومادة (شكر) لا تتعدى غالبا إلا باللام، وتعديتها بنفسها دون اللام قليلة، ومنه قول أبي نخيلة: شكرتك إن الشكر جبل من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضى^(١).

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٦٧٣-٦٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَسَلَيْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾

★ غريب الآية:

الريح: الهواء المتحرك.

عاصفة: أي شديدة الهبوب. يقال: عصفت الريح واعتصفت، فهي عاصف وعاصفة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ﴿و﴾ سخرنا ﴿وَلَسَلَيْنَا﴾ بن داود ﴿الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وعصوفها: شدة هبوبها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يقول: تجري الريح بأمر سليمان إلى الأرض التي باركنا فيها يعني: إلى الشام وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾..

يقول - تعالى ذكره -: وسخرنا أيضاً لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر، ويعملون عملاً دون ذلك من البنيان والتماثيل والمحاريب ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ يقول: وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافظين، لا يثودنا حفظ ذلك كله^(١).

قال السعدي: ﴿وَلَسَلَيْنَا الرِّيحَ﴾ أي: سخرناها ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: سريعة في مرورها، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ حيث دبرت امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾

(١) جامع البيان (١٧/٥٥-٥٦).

قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان، ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ وهذا أيضًا من خصائص سليمان عليه السلام، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال، التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له في البحر، ويستخرج الدر، واللؤلؤ وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿تَحْرِيبَ وَتَمَثِيلَ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، وبقوا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي: لا يقدرّون على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له، بقوته وعزته وسلطانه^(١).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ معطوف على معمول (سخرنا)، في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ آلِ حَبَالٍ﴾^(٢) أي وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفة؛ أي: شديدة الهبوب. يقال عصفت الريح أي اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وفي لغة بني أسد (أعصفت) فهي معصف ومعصفة، وقد قدمنا بعض شواهد العربية في سورة الإسراء.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ﴾ أي تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به، وما ذكره في هذه الآية: من تسخير الريح لسليمان، وأنها تجري بأمره بينه في غير هذا الموضع وزاد بيان قدر سرعتها، وذلك في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾^(٣)، وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٤).

تنبيه:

اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤاليين معروفين:

الأول أن يقال: إن الله وصف الريح المذكورة هنا في سورة الأنبياء بأنها

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) الأنبياء: الآية (٧٩).

(٣) سبأ: الآية (١٢).

(٤) ص: الآية (٣٦).

عاصفة. أي شديدة الهبوب، ووصفها في سورة ص بأنها تجري بأمره رخاء. والعاصفة غير التي تجري رخاء.

والسؤال الثاني هو أنه هنا في سورة الأنبياء خص جريها به بكونه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة ص قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهَ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث أراد. قاله مجاهد. وقال ابن الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب: أي أراد الصواب وأخطأ الجواب. ومنه قول الشاعر:

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

قاله القرطبي. وعن رؤية: أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه عن معنى (أصاب). فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا. ورجعا.

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين: الأول أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة. كأن تعصف ويشد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب.

الجواب الثاني هو ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت في نفسها رحية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة سيرة، على ما قال: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾. فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم انتهى محل الغرض منه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض. وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام. وعليه فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ في حالة الذهاب. وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى. فانفكت الجهة فزال الإشكال. وقد قال نابغة ذبيان:

إلا سليمان إذ قال إله له قم في البرية فاحدها عن الفند

وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
وتدمر: بلد بالشام. وذلك مما يدل على أن الشام هو محل سكنه كما هو
معروف.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
حَفِظِينَ﴾ (١٧).

الأظهر في قوله: ﴿مَن يَغْوُصُونَ﴾ أنه في محل نصب عطفًا على معمول
(سخرنا) أي وسخرنا له من يغوصون له من الشياطين. وقيل: (من) مبتدأ، والجار
والمجرور قبله خبره.

وقد ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه سخر لسليمان من يغوصون له
من الشياطين، أي يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة
كاللؤلؤ، والمرجان. والغوص: النزول تحت الماء. والغواص: الذي يغوص
البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أو درة صدفية غواصها بهج متى يراها يهمل ويسجد

وقد ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أيضًا أن الشياطين المسخرين له
يعملون له عملاً دون ذلك، أي سوى ذلك الغوص المذكور، أي كبناء المدائن
والقصور، وعمل المحارب والتماثيل، والجفان والقذور الراسيات، وغير ذلك
من اختراع الصنائع العجيبة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره،
أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه. وهذه المسائل
الثلاث التي تضمنتها هذه الآية الكريمة جاءت مبينة في غير هذا الموضع، كقوله في
الغوص والعمل سواء: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (١٧) (١)، وقوله في العمل
غير الغوص: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ﴾ (٢) وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ
مِنَ تَحْرِيبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ (٣)، وكقوله في حفظهم من أن

(٢) سبأ: الآية (١٢).

(١) ص: الآية (٣٧).

(٣) سبأ: الآية (١٣).

يزيغوا عن أمره: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَالْآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٢).

وصفة البساط، وصفة حمل الريح له، وصفة جنود سليمان من الجن والإنس والطير كل ذلك مذكور بكثرة في كتب التفسير، ونحن لم نطل به الكلام في هذا الكتاب المبارك^(٣).

* * *

(١) سبأ: الآية (١٢).

(٢) ص: الآية (٣٨).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٦٧٥-٦٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: واذكر أيوب يا محمد إذ نادى ربه وقد مسه الضر والبلاء رب ﴿أَيُّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ» يقول - تعالى ذكره - : فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا، فكشفنا ما كان به من ضر وبلاء وجهه، وكان الضر الذي أصابه والبلاء الذي نزل به امتحانا من الله له واختبارا^(١).

قال ابن القيم: «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه»^(٢).

قال السعدي: «أي: واذكر عبدنا ورسولنا، أيوب - مثنيا معظما له، رافعا ل قدره - حين ابتلاه، ببلاء شديد، فوجده صابرا راضيا عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله، وامتحانا فنفخ في جسده، فتقرح قروحا عظيمة ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿أَيُّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة، فاستجاب الله له، وقال له: ﴿أَرْكَضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٨٨﴾ فيركض برجله فخرجت من ركضته عين ماء باردة،

(١) جامع البيان (٥٧/١٧).

(٢) الفوائد (ص ٢٥٩).

(٣) ص: الآية (٤٢).

فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله عنه ما به من الأذى، ﴿وَأَتَيْنَتْهُ أَهْلُهُ﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله.

﴿وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ﴾ بأن منحه الله العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة.

﴿وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: جعلناه عبرة للعابدين، الذين ينتفعون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أنشئ الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١) فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضرر^(٢).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن قوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ منصوب بـ(اذْكُرْ) مقدراً، ويدل على ذلك قوله تعالى في ص: ﴿وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَّيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(٣).

وقد أمر -جل وعلا- في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه ﷺ: أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأن ربه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر، وأنه آتاه أهله، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه -جل وعلا- به، وتذكيراً للعابدين أي الذين يعبدون الله لأنهم هم المتفعون بالذكرى.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا ذكره أيضاً في سورة ص في قوله: ﴿وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَّيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(٤) إلى قوله: ﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(٥) والضر الذي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله. ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر، وشرب منها فزال كل ما بباطنه. كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(٥).

وما ذكره في الأنبياء: من أنه آتاه أهله ومثلهم رحمة منه وذكرى لمن يعبد بينه في ص في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرَ لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(٦)، وقوله في الأنبياء:

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٥٣-٢٥٤).

(٤) ص: الآيات (٤١-٤٣).

(٦) ص: الآية (٤٣).

(١) ص: الآية (٤٤).

(٣) ص: الآية (٤١).

(٥) ص: الآية (٤٢).

﴿وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ مع قوله في ص: ﴿وَذَكَرَ لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ فيه الدلالة الواضحة على أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، هم الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه. وهذا يؤيد قول من قال من أهل العلم، إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدهم طاعة لله تعالى؛ لأنهم هم أولو الأبواب. أي العقول الصحيحة السالمة من الاختلال.

تنبيه:

في هذه الآيات المذكورة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن قول أيوب المذكور في الأنبياء في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْ مَسَّيَ الضُّرِّ﴾^(١) وفي ص في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْ مَسَّيَ الشَّيْطَانُ يَصْبِرْ وَعَذَابُ﴾^(٢) يدل على أنه ضجر من المرض فشكا منه. مع أن قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾^(٣) يدل على كمال صبره؟

والجواب أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه، لا شكوى ولا جزع.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: ولم يكن قوله: ﴿مَسَّيَ الضُّرِّ﴾ جزعا. لأن الله تعالى، قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾^(٤) بل كان ذلك دعاء منه. والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا.

قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان. فسئلت عن هذه الآية الكريمة بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾^(٥) فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاء. بيانه ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ والإجابة تتبع الدعاء لا الاشتكاء، فاستحسنوه وارتضوه. وسئل الجنيد عن هذه الآية الكريمة فقال: عرفه فاقه السؤال ليمن عليه بكرم النوال. انتهى منه.

ودعاء أيوب المذكور ذكره الله في سورة الأنبياء من غير أن يسند مس الضر

(٢) ص: الآية (٤١).

(٤) ص: الآية (٤٤).

(١) الأنبياء: الآية (٨٣).

(٣) ص: الآية (٤٤).

(٥) ص: الآية (٤٤).

أيوب إلى الشيطان في قوله: ﴿إِنِّي مَسْفِيٌّ وَأَنْتَ الرَّحِيمُ﴾ وذكره في سورة (ص) وأسند ذلك للشيطان في قوله: ﴿إِنِّي مَسْفِيٌّ الشَّيْطَانُ يَنْصِبُ وَعَذَابٌ﴾^(١) والنصب على جميع القراءات معناه: التعب والمشقة، والعذاب: الألم. وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في آية ص هذه إشكال قوي معروف؛ لأن الله ذكر في آيات من كتابه: أن الشيطان ليس له سلطان على مثل أيوب من الأنبياء الكرام، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٤).

وللعلماء عن هذا الإشكال أجوبة، منها ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلمه على أنبيائه ليقضي من إعتابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلت: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروي أنه كان يعود ثلاثاً من المؤمنين. فارتد أحدهم فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء الصالحين. وذكر في سبب بلائه: أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله. انتهى منه.

ومنه ما ذكره جماعة من المفسرين: أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء

(١) ص: الآية (٤١).

(٢) النحل: الآية (٩٩).

(٣) سبأ: الآية (٢١).

(٤) إبراهيم: الآية (٢٢).

(٥) الحجر: الآية (٤٢).

لأيوب . فأهلك الشيطان ماله وولده ، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها ، فصار في جسده ثآليل ، فحكها بأظافره حتى دميت ، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه ، وعصم الله قلبه ولسانه .

(وغالب ذلك من الإسرائيليات) وتسليطه للابتلاء على جسده ، وماله وأهله ممكن ، وهو أقرب من تسليطه عليه بحمله على أن يفعل ما لا ينبغي . كمداهنة الملك المذكور ، وعدم إغاثة الملهوف ، إلى غير ذلك من الأشياء التي يذكرها المفسرون . وقد ذكروا هنا قصة طويلة تتضمن البلاء الذي وقع فيه ، وقدر مدته (وكل ذلك من الإسرائيليات) وقد ذكرنا هنا قليلا .

وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله ابتلى نبيه أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضر ، ووهبه أهله ومثلهم معهم ، وأن أيوب نسب ذلك في ص إلى الشيطان . ويمكن أن يكون سلطه الله على جسده وماله وأهله . ابتلاء ليظهر صبره الجميل ، وتكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ، ويرجع له كل ما أصيب فيه ، والعلم عند الله تعالى ، وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب ، لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمريض ، وذلك يقع للأنبياء ، فإنهم يصيبهم المرض ، وموت الأهل ، وهلاك المال لأسباب متنوعة . ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء . وقد أوضحنا جواز وقوع الأمراض والتأثيرات البشرية على الأنبياء في سورة (طه) وقول الله لنبيه أيوب في سورة ص : ﴿ وَخُذْ بِيدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۚ ﴾ ^(١) الآية ، قال المفسرون فيه : إنه حلف في مرضه ليضربن زوجه مائة سوط ، فأمره الله أن يأخذ ضغثا فيضربها به ليخرج من يمينه ، والضغث : الحزمة الصغيرة من حشيش أو ربحان أو نحو ذلك . والمعنى : أنه يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة ، فيخرج بذلك من يمينه . وقد قدمنا في سورة الكهف الاستدلال بآية ﴿ وَلَا تَحْنَثْ ۚ ﴾ على أن الاستثناء المتأخر لا يفيد ؛ إذ لو كان يفيد لقال الله لأيوب قل إن شاء الله . ليكون ذلك استثناء في يمينك ^(٢) .

(١) ص : الآية (٤٤) .

(٢) أضواء البيان (٤/ ٦٧٨-٦٨٢) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل أيوب عليه السلام وما أصابه من الضر

* عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب نبي الله ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(١) فاستبظاته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أحدا كان أشبه به منك إذ كان صحيحا، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضت»^(٢).

★ غريب الحديث:

أندران: الأندر: اليبدر، وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا، وحمدا

(١) ص: الآية (٤٢).

(٢) أخرجه: أبو يعلى (٢٩٩/٦-٣٠٠/٣) والبزار (كشف الأستار ٣/١٠٧-١٠٨/٢٣٥٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/١٥٧-١٥٩/٢٨٩٨) والحاكم (٢/٥٨١-٥٨٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/٢٠٨) وقال: «رواه أبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح». وصححه الألباني (الصحيحة ١٧).

وشكرًا، حتى إن المثل ليضرب بصبره - ﷺ - ويضرب المثل أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى، يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»^(٢).

★ غريب الحديث:

خر عليه: أي سقط عليه من فوق.

رجل جراد: السرب من الجراد أي جماعة من الجراد.

يحثي: بالمثلثة أي يأخذ بيديه جميعا.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفي الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر»^(٣).

وقال أيضا: «واستنبط منه الخطابي جواز أخذ النثار في الأملاك، وتعقبه ابن التين فقال: هو شيء خص الله به نبيه أيوب، وهو بخلاف النثار»^(٤) فإنه من فعل الآدمي فيكره لما فيه من السرف، ورد عليه بأنه أذن فيه من قبل الشارع إن ثبت الخبر ويستأنس فيه بهذه القصة، والله أعلم»^(٥).

* عن سعد رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي

(١) البداية والنهاية (١/٢٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣١٤) والبخاري (٦/٥١٨/٣٣٩١) والنسائي (١/٢٠٠-٢٠١/٤٠٧).

(٣) الفتح (٦/٥١٩-٥٢٠).

(٤) النثار: هو نثر الدراهم والسكر وغيرهما في عقد النكاح وغيره.

(٥) الفتح (٦/٥٢٠).

على الأرض ما عليه خطيئة»^(١).

★ غريب الحديث:

بلاء: «أي محنة ومصيبة، ويطلق على المنحة، لكن المراد هنا بقرينة السياق المنحة، فإن أصله الاختبار، لكن لما كان اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمنحة، وتارة بالمنحة، أطلق عليهما»^(٢).

ثم الأمثل فالأمثل: أي الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة.

صلبا: بضم الصاد المهملة، أي قويا شديدا.

رقة: أي ذارقة، ويحتمل أن يكون رقة اسم كان أي ضعف ولين.

فما يبرح: أي ما يفارق أو ما يزال.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «الأنبياء» المراد بهم ما شمل الرسل، وذلك لتضاعف أجورهم، وتكامل فضائلهم، ويظهر للناس صبرهم ورضاهم فيقتدى بهم، ولثلاث يفتتن الناس بدوام صحتهم فيعبدوهم. . ومن ظن أن شدة البلاء هوان بالعبد، فقد ذهب لبه وعمي قلبه، فقد ابتلي من الأكابر ما لا يحصى، ألا ترى إلى ذبيح نبي الله يحيى بن زكريا وقتل الخلفاء الثلاثة والحسين وابن الزبير وابن جبير، وقد ضرب أبو حنيفة وحبس ومات بالسجن. وجرّد مالك وضرب بالسياط وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه. وضرب أحمد حتى أغمي عليه وقطع من لحمه وهو حي، وأمر بصلب سفيان فاخفى، ومات البويطي مسجوناً في قيوده، ونفي البخاري من بلده، إلى غير ذلك مما يطول»^(٣).

(١) أخرجه: أحمد (١٧٢/١) والترمذي (٢٣٩٨/٥٢٠/٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، ابن ماجه (٢/

٤٠٢٣/١٣٣٤) وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/١٦١/٢٩٠١) والحاكم (٤١/١).

(٢) الفيض (٥١٨/١).

(٣) الفيض (٥١٨-٥١٩/١).

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بإسماعيل: إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد، وإدريس: أخنوخ وبذي الكفل: رجلا تكفل من بعض الناس، إما من نبي وإما من ملك من صالحي الملوك بعمل من الأعمال، فقام به من بعده، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به، وجعله من المعدودين في عباده، مع من حمد صبره على طاعة الله»^(١).

قال الرازي: «قال أبو موسى الأشعري عليه السلام ومجاهد: ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا، وقال الحسن والأشعثون: إنه من الأنبياء عليهم السلام، وهذا أولى لوجه:

أحدها: أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبا وأن يكون اسما، والأقرب أن يكون مفيدا، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب. إذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب، والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو إنما سمي بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره، ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء.

وثانيها: أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسماعيل وإدريس، والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته.

وثالثها: أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي»^(٢).

(١) جامع البيان (١٧/٧٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/٢١٢).

قال ابن كثير: «وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس عليه السلام، وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلا صالحا، وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا»^(١).

قال السعدي: «أي: واذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذو الكفل، نبين من أنبياء بني إسرائيل ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. والصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضًا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان بأن يكون رطبا من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفا وفضلا»^(٢).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٥٧/٥).

(٢) تفسير الكريم الرحمن (٢٥٥/٥).

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

ذا النون: النون: الحوت. والمراد به نبي الله يونس بن متى ﷺ، لا بتلاعه إياه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه فدعاهم، فلم يؤمنوا فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم. فجاءهم العذاب ورأوه عيانا، فعجوا إلى الله، وضجوا وتابوا، ورفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَتَتْ فَثَقَفَهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخَزْيِ فِي الْيَوْمِ الدُّنْيَا وَمَنْعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٨٧﴾ فَآمَنُوا فَمَنْعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾^(١) وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله. ولكنه -عليه الصلاة والسلام-، ذهب مغاضبا، وأبق عن ربه لذنوب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها لقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ... وَهُوَ مُلِيمٌ﴾^(٢) أي: فاعل ما يلام عليه، والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، ظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكمال من الخلق على وجه لا يستقر، ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا

(١) يونس: الآية (٩٨). (٢) الصافات: الآيتان (١٤٧ و ١٤٨).

(٣) الصافات: الآيات (١٤٠-١٤٢).

الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القردة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزله عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنائه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢﴾﴾^(١) ولهذا قال هنا: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي الشدة التي وقع فيها. ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام^(٢).

قال الشنقيطي: «أي واذكر ذان النون. والنون: الحوت. ﴿وَذَا﴾ بمعنى صاحب. فقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ معناه صاحب الحوت. كما صرح الله بذلك في القلم في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوَيْ﴾^(٣) الآية. وإنما أضافه إلى الحوت لأنه التقمه كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤﴾﴾^(٤).

وقوله: ﴿فَطَنَّنَ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر:

الأول أن المعنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لن نضيق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق (قدر) بمعنى (ضيق) في القرآن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾^(٥) أي ويضيق الرزق على من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لَيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾^(٦) الآية. فقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ومن ضيق عليه رزقه.

الوجه الثاني أن معنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء. (وقدر) بالتخفيف تأتي بمعنى (قدر) المضعفة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْنَفَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾^(٧) أي قدره الله. ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهداً لذلك:

(١) الصفات: الآيتان (١٤٣ و ١٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٣) القلم: الآية (٤٨).

(٤) الصفات: الآية (١٤٢).

(٥) الرعد: الآية (٢٦).

(٦) الطلاق: الآية (٧).

(٧) القمر: الآية (١٢).

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبدا ما أورق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر
والعرب تقول: قدر الله لك الخير يقدره قدرا، وكضرب يضرب، ونصر ينصر،
بمعنى قدره لك تقديرا. ومنه على أصح القولين (ليلة القدر) لأن الله يقدر فيها
الأمور. كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾^(١) والقدر بالفتح، والقدر
بالسكون: ما يقدره الله من القضاء. ومنه قول هذبة ابن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدرى
أما قول من قال: إن ﴿أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ من القدرة فهو قول باطل بلا شك. لأن
نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء، كما لا يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُغْضِبًا﴾ أي في حال كونه مغاضبا لقومه.
ومعنى المفاعلة فيه: أنه أغضبهم بمفارقتهم وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبه
حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. ثم خرج من بينهم على
عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج. قاله أبو حيان في
البحر. وقال أيضا: وقيل معنى ﴿مُغْضِبًا﴾ غضبان، وهو من المفاعلة التي
لا تقتضي اشتراكا. نحو عاقبت اللص، وسافرت اه.

واعلم أن قول من قال: ﴿مُغْضِبًا﴾ أي مغاضبا لربه كما روي عن ابن مسعود،
وبه قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير، واختاره الطبري والقتبي، واستحسنه
المهدوي يجب حمله على معنى القول الأول.

أي مغاضبا من أجل ربه. قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول عمن ذكرنا: وقال
النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى: مغاضبا
من أجل ربه، كما تقول: غضبت لك أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله ﷻ إذا
غضب. انتهى منه. والمعنى على ما ذكر: مغاضبا قومه من أجل ربه، أي من أجل
كفرهم به، وعصيانهم له. وغير هذا لا يصح في الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة

بطن الحوت . و(أن) في قوله : ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ مفسرة ، وقد أوضحنا فيما تقدم معنى ﴿أَنْ لَا إِلَهَ﴾ ، ومعنى ﴿سُبْحَنَكَ﴾ ، ومعنى الظلم ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . وقوله : ﴿فَأَنْسَجَبْنَا لَهُمْ﴾ أي أجبناه ونجينا من الغم الذي هو فيه في بطن الحوت ، وإطلاق استجاب بمعنى أجاب معروف في اللغة ، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
وما ذكره الله - جل وعلا - في هذه الآية : من نداء نبيه يونس في تلك الظلمات
هذا النداء العظيم ، وأن الله استجاب له ونجاه من الغم أوضحه في غير هذا
الموضع .

وبين في بعض المواضع : أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبت في بطن
الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه . وبين في بعضها أنه طرحه بالعراء وهو سقيم .
وبين في بعضها : أنه خرج بغير إذن كخروج العبد الآبق ، وأنهم اقترحوا على من
يلقى في البحر فوقعت القرعة على يونس أنه هو الذي يلقي فيه .

وبين في بعضها : أن الله تداركه برحمته . ولو لم يتداركه بها لنبذ بالعراء في حال
كونه مذموماً ، ولكنه تداركه بها فنبد غير مذموم ، قال تعالى في الصافات : ﴿وَلَنْ يُؤَسَّسَ
لِمَنِ الرِّسَالَيْنِ ۖ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٥٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٥١﴾ فَالْقَمَمُ الْخُوتُ
وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٥٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٥٣﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٥٥﴾ وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ مِجْرَةً مِنْ يَفْطِينٍ ﴿١٥٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ قَوْمِ آدَمَ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿١٥٧﴾ فَتَأَمَّلُوا مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٥٨﴾﴾^(١) . فقوله في آيات الصافات المذكورة
﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي : حين أبق ، وهو من قول العرب : عبد أبق ، لأن يونس خرج قبل أن
يأذن له ربه ، ولذلك أطلق عليه اسم الإباق . واستحقاق الملامة في قوله : ﴿وَهُوَ
مُلِيمٌ﴾ لأن المليم اسم فاعل آلام إذا فعل ما يستوجب الملام . وقوله : ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي
قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة . لأنه خرج له السهم الذي
يلقى صاحبه في البحر . ومن ذلك قول الشاعر :

(١) الصافات : الآيات (١٣٩-١٤٨) .

قتلنا المدحضين بكل فج فقد قرت بقتلهم العيون
وقوله: ﴿فَبَدَّلْتَهُ﴾ أي طرحناه، بأن أمرنا الحوت أن يلقيه بالساحل. والعراء:
الصحراء. وقول من قال: العراء الفضاء أو المتسع من الأرض، أو المكان الخالي
أو وجه الأرض راجع إلى ذلك، ومنه قول الشاعر وهو رجل من خزاعة:

ورفعت رجلا لا أخاف عشارها ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وشجرة اليقطين: هي الدباء. وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي مريض لما أصابه من
التقام الحوت إياه، وقال تعالى في القلم: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ
* لَوْلَا أَن تَدْرِكُمُ نِعْمَةُٰ رَبِّهِ لَئِذَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٨﴾ فَاجْنَبْهُ رَبُّهُمُ فَجَعَلَهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾^(١)
فقوله في آية القلم هذه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي نادى أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت
من الظالمين، وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غما، كما قال تعالى: ﴿وَجِئْتَهُ مِّنَ
الْعَرِّ﴾ وهو قول ابن عباس ومجاهد. وعن عطاء وأبي مالك ﴿مَكْظُومٌ﴾: مملوء
كربا. قال الماوردي: والفرق بين الغم والكرب: أن الغم في القلب. والكرب في
الأنفاس. وقيل: ﴿مَكْظُومٌ﴾ محبوس. والكظم: الحبس. ومنه قولهم: كظم
غيظه، أي حبس غضبه، قاله ابن بحر. وقيل: المكظوم المأخوذ بكظمه، وهو
مجرى النفس، قاله المبرد، انتهى من القرطبي.

وآية القلم المذكورة تدل على أن نبي الله يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام
عجل بالذهاب ومغاضبة قومه، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطبا نبينا ﷺ
فيها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ﴾^(٢) الآية. فإن أمره لنبينا ﷺ بالصبر
ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل على أن صاحب الحوت لم يصبر كما
ينبغي. وقصة يونس، وسبب ذهابه ومغاضبته قومه مشهورة مذكورة في كتب
التفسير. وقد بين تعالى في سورة يونس: أن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم دون
غيرهم من سائر القرى التي بعثت إليهم الرسل، وذلك في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ
ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْسُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠١﴾﴾^(٣).

(٢) القلم: الآية (٤٨).

(١) القلم: الآيات (٤٨-٥٠).

(٣) يونس: الآية (٩٨).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعيا بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا. وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور: «لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»^(١) رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم.

والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى، لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاءه المؤمنين.

وقوله: ﴿نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى»^(٢).

قال ابن القيم: «وأما دعوة ذي النون، فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله - سبحانه - في قضاء الحوائج فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عشرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فهاتنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد والتنزيه والعبودية والاعتراف»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مناقب يونس

وما اتصف به من الدعاء المستجاب وما ورد في المفاضلة بين الأنبياء

* عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «ومن الأنبياء جماعة لهم اسمان مثل: عيسى والمسيح وذو الكفل

(٢) أضواء البيان (٤/ ٦٨٢-٦٨٦).

(١) سيأتي تخريجه.

(٣) زاد المعاد (٤/ ٢٠٨).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٠) والترمذي (٥/ ٤٩٥/ ٣٥٠٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٨/ ١٠٤٩١-١٠٤٩٢).

وصححه الحاكم (١/ ٥٠٥) ووافقه الذهبي.

واليسع ويونس وذو النون وإبراهيم والخليل ومحمد وأحمد»^(١).

«قوله: ﴿سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: تصريحاً بالعجز والانكسار وإظهار الذلة والافتقار»^(٢).

«قوله: «في شيء» أي: من الحاجات والتقدير: فعليك أن تدعو بهذه الدعوة، فإنه لم يدع بها الخ»^(٣).

قال القرطبي: «فيه شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه، وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وليس هاهنا صريح دعاء، وإنما هو مضمون قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاعترف بالظلم فكان تلويحاً»^(٤).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه»^(٥).

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «وإنما خص يونس بالذكر فيما نرى والله أعلم لما قصه الله تعالى علينا من شأنه، وما كان من قلة صبره على أذى قومه، فخرج مغاضباً ولم يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»^(٦).

قوله: «ونسبه إلى أبيه»: قال الحافظ: «فيه إشارة على الرد إلى من زعم أن (متى) اسم أمه، وهو محكي عن وهب بن منبه في المبتدأ، وذكره الطبري وتبعه ابن الأثير في الكامل، والذي في الصحيح أصح»^(٧).

(١) العلم الهيب (ص ٣٤١).

(٢) فيض القدير (٣/ ٥٢٦).

(٣) تحفة الأحوذى (٩/ ٣٣٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٢١).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٢ و ٣٤٢) والبخاري (٦/ ٥٥٧ و ٣٤١٣) ومسلم (٤/ ١٨٤٦ و ٢٣٧٧) وأبو داود (٥/ ٤٦٦٩).

(٦) معالم السنن (٤/ ٢٨٧).

(٧) الفتح (٦/ ٥٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ إِنَّهُمْ لَوُجُوهٌ لَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

★ غريب الآية:

رغبًا ورهبًا: أي رجاء وخوفًا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- لنبية محمد ﷺ: واذكريا محمد زكريا حين نادى ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾ وحيدا ﴿فَرْدًا﴾ لا ولد لي ولا عقب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ يقول: فارزقني وارثا من آل يعقوب يرثني، ثم رد الأمر إلى الله فقال: وأنت خير الوارثين يقول الله -جل ثناؤه-: فاستجبنا لزكريا دعاءه ووهبنا له يحيى ولدا ووارثا يرثه، وأصلحنا له زوجه.

واختلف أهل التأويل في معنى الصلاح الذي عناه الله -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَاهُ لَمْ زَوْجَهُ﴾ فقال بعضهم: كانت عقيما فأصلحها بأن جعلها ولودا. وقال آخرون: كانت سيئة الخلق فأصلحها الله له بأن رزقها حسن الخلق.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أصلح لزكريا زوجه كما أخبر -تعالى- ذكره- بأن جعلها ولودا حسنة الخلق؛ لأن كل ذلك من معاني إصلاحه إياها، ولم يخص الله -جل ثناؤه- بذلك بعضا دون بعض في كتابه، ولا على لسان رسوله، ولا وضع على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مراد به بعض دون بعض.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يقول الله: إن الذين سميئناهم يعني زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعمل بما

يقربهم إلينا وقوله: ﴿وَيَدْعُوكَ رَبًّا وَرَهْبًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكانوا يعبدوننا رغبا ورهبا، وعنى بالدعاء في هذا الموضع: العبادة كما قال: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١) ويعني بقوله: ﴿رَبًّا﴾ أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله ﴿وَرَهْبًا﴾ يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه بتركهم عبادته وركوبهم معصيته (٢).

قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَكُمْ زَوْجَهُ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة، وهذا أليق بالقصة.

والثاني: أنه أصلحها في أخلاقها، وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه، وجعل ذلك من نعمه عليه.

والثالث: أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيا إلى الله تعالى، فكانه ﷺ سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعا. وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل: أصلح الله فلانا فالأظهر فيه ما يتصل بالدين، واعلم أن قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ نَحْوَهُ﴾ يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُوكَ رَبًّا وَرَهْبًا﴾ قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (٣) والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينسبط في الأمور خوفا من الإثم (٤).

(١) مريم: الآية (٤٨).

(٢) جامع البيان (٨٣/١٧).

(٣) الزمر: الآية (٩).

(٤) التفسير الكبير (٢٢/٢١٨-٢١٩).

قال ابن عطية: «تقدم أمر زكرياء عليه السلام في سورة مريم، وإصلاح الزوجة، قيل بأن جعلها ممن تحمل وهي عاقر قاعد فحاضت وحملت، وهذا هو الذي يشبه الآية، وقيل بأن أزيل بذاء كان في لسانها وهذا ضعيف، وعموم اللفظ يتناول جميع وجوه الإصلاح»^(١).

قال السعدي: «أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوها بذكره، ناشرا لمناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحته للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نَادَى رَبُّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾^(٢) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾^(٣) بَرْنِي وَبَرِّثْ مِنْ ءَالٍ يَتَحَوَّبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾^(٤)».

من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فردا، ولا يخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: خير الباقيين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سميا.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بعدما كانت عاقرا، لا يصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل، لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس، والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركا بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كلا على انفراده، أثنى عليهم عموما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدر عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور

المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، ﴿وَكَاْنُوا لَنَا خٰشِعِيْنَ﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٥٨-٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩١﴾

★ غريب الآية:

أحصنت: الإحصان: العفة. يقال: رجل محصن وامرأة محصنة: أي عفيفة. وأصله المنع: أي منعت فرجها عن القبيح. قال حسان في حق عائشة رضي الله عنها: حصان رزان ما تزنُّ بريبة وتُضِيحُ غُرَّتِي من لحوم الغوافل

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: واذكر التي أحصنت فرجها، يعني مريم بنت عمران ويعني بقوله: ﴿أَحْصَنَتْ﴾: حفظت ومنعت فرجها مما حرم الله عليها إباحته فيه.

واختلف في الفرج الذي عنى الله - جل ثناؤه - أنها أحصنته، فقال بعضهم: عنى بذلك فرج نفسها أنها حفظته من الفاحشة.

وقال آخرون: عنى بذلك جيب درعها أنها منعت جبرئيل منه قبل أن تعلم أنه رسول ربها وقبل أن تثبته معرفة. قالوا: والذي يدل على قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ ويعقب ذلك قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ قالوا: وكان معلوماً بذلك أن معنى الكلام: والتي أحصنت جيبها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى القولين عندنا بتأويل ذلك قول من قال: أحصنت فرجها من الفاحشة؛ لأن ذلك هو الأغلب من معنييه عليه، والأظهر في ظاهر الكلام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ يقول: فنفخنا في جيب درعها من روحنا وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في معنى قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ في غير هذا الموضع، والأولى بالصواب من القول في ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يقول: وجعلنا مريم وابنها عبرة لعالمي زمانهما يعتبرون بهما ويتفكرون في أمرهما، فيعلمون عظيم سلطاننا وقدرتنا على ما نشاء. وقيل آية ولم يقل آيتين، وقد ذكر آيتين؛ لأن معنى الكلام: جعلناهما علما لنا وحجة، فكل واحدة منهما في معنى الدلالة على الله وعلى عظيم قدرته، يقوم مقام الآخر إذ كان أمرهما في الدلالة على الله واحداً^(١).

قال ابن كثير: «هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليه السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطه بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ يعني مريم عليه السلام كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٢).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾^(٤) (٥).

قال السعدي: «أي: واذكر مريم عليه السلام، منيا عليها مبينا لقدرها، شامها لشرفها فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغرق وقتها بالخدمة لربها.

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا﴾^(٦) فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ حيث حملت به، ووضعته من دون مسيس أحد،

(٢) التحريم: الآية (١٢).

(٤) مريم: الآية (٢١).

(٦) مريم: الآية (١٨).

(١) جامع البيان (١٧/٨٤).

(٣) يس: الآية (٨٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣٦٥/٥).

وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلا بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥ / ٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلَّ إِلَيْنَا رِجْعُونَ ﴿٩٦﴾

★ غريب الآية:

تقطعوا أمرهم: تفرقوا وتحزبوا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «لما ذكر الأنبياء ﷺ، قال مخاطبا للناس: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضًا واحد.

ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدا، والنبي واحدا، والدين واحدا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء، ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر، وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء أبيا إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقا، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر ﴿كَلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

وقد علم أن المصيب منهم من كان سالكا للدين القويم، والصراط المستقيم، مؤتما بالأنبياء وسيظهر هذا، إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كَلَّ﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إِلَيْنَا رِجْعُونَ﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء»^(١).

قال الشنقيطي: «المراد بالأمة هنا: الشريعة والملة. والمعنى: وأن هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٠-٢٦١).

شريعتمكم شريعة واحدة، وهي توحيد الله على الوجه الأكمل من جميع الجهات، وامتنال أمره، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك، على حسب ما شرعه لخلقه ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي وحدي. والمعنى دينكم واحد وربكم واحد، فلم تختلفون ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرقوا في الدين وكانوا شيعة، فمنهم يهودي ومنهم نصراني ومنهم عابد وثن إلى غير ذلك من الفرق المختلفة. ثم بين قوله: ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوتٌ﴾ أنهم جميعهم راجعون إليه يوم القيامة، وسيجازيهم بما فعلوا. وقال الزمخشري في تفسير الآية الكريمة ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ المعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه، فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيروتهم فرقا شتى، اهـ..

وما ذكره -جل وعلا- في هاتين الآيتين الكريمتين: من أن الدين واحد والرب واحد فلا داعي للاختلاف، وأنهم مع ذلك اختلفوا وصاروا فرقا أوضحه في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) وزاد أن كل حزب من الأحزاب المختلفة فرحون بما عندهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا الرَّسْلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢) وَلَئِنْ هَذِهِ أُمَّةُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٨﴾ فَذَرَهُمْ فِي عُتْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٩﴾. وقوله في هذه الآية ﴿زُبُرًا﴾ أي قطعاً كزبر الحديد والفضة، أي قطعها. وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل فرقة من هؤلاء الفرق الضالين المختلفين المتقطعين دينهم قطعاً فرحون بباطلهم، مطمئنون إليه، معتقدون أنه هو الحق.

وقد بين -جل وعلا- في غير هذا الموضع: أن ما فرحوا به، واطمأنوا إليه باطل، كما قال تعالى في سورة المؤمن: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٢﴾ (٤)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا يَشِيعَا لِسَتَ مِنْهُمْ فِي شِقْوَةٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْتِظُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥) (٦) (٧).

(١) المؤمنون: الآيات (٥١-٥٤).

(٢) غافر: الآيات (٨٣ و٨٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٥٩).

(٤) أعضاء البيان (٤/٦٨٩-٦٩٠).

قال المكي الناصري: «قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٢١) منها بذلك إلى أن جميع أنبياء الله ورسله مجمعون على التوحيد مجتمعون عليه، لا يعرفون لهم ديناً سواه، منذ بدأت النبوات والرسالات إلى أن ختمت، وكذلك الأمر بالنسبة لكافة المؤمنين الموحدين من أتباع الأنبياء والرسل جميعاً، في أي عصر كانوا، وفي أي مكان وجدوا، فإنهم يكونون أمة واحدة على اختلاف أزمانهم وبقاعهم، وسلسلة واحدة على تعدد طبقاتهم وحلقاتهم، فأمة التوحيد هي بحق الأمة الوحيدة التي لا تعدد فيها ولا افتراق، لأنها اتحدت بأجمعها في عبادة الله الواحد الأحد، والتقت على الإيمان به خير تلاق. وعلى العكس من ذلك من أشركوا بالله أو شوهوا عقيدة التوحيد، فانحرفوا عن الصراط السوي والقول السديد ﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا زَجَعُونَ﴾ (٢٢)»^(١).

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/١٤٧-١٤٨).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ. وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ﴾

★ غريب الآية:

كفران: الكفران والكفر: الجحود. وأصله التغطية والستر. ومنه الكافر لستره الحق وتغطيته.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فمن عمل من هؤلاء الذين تفرقوا في دينهم بما أمره الله به من العمل الصالح وأطاعه في أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله، مصدق بوعدته ووعيده، متبرئ من الأنداد والآلهة ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾» يقول: فإن الله يشكر عمله الذي عمل له مطيعاً له، وهو به مؤمن، فيثيبه في الآخرة ثوابه الذي وعد أهل طاعته أن يثيبهموه، ولا يكفر ذلك له فيجحد، ويحرمه ثوابه على عمله الصالح ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ﴾ يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئاً لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره»^(١).

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الأمة من قبل وذكر تفرقهم وأنهم أجمع راجعون إلى حيث لا أمر إلا له أتبع ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ بين أن من جمع بين أن يكون مؤمناً وبين أن يعمل الصالحات فيدخل في الأول العلم والتصديق بالله ورسوله، وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ أي لا بطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^(٢) فالكفران مثل في حرمان الثواب والشكر مثل في إعطائه وقوله:

(١) جامع البيان (١٧/ ٨٥-٨٦).

(٢) الإسراء: الآية (١٩).

﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ المراد نفي الجنس ليكون في نهاية المبالغة لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلِئَلَّا لَكُمْ كُتُبُونَ﴾ فالمراد وإنا لسعيه كاتبون ، فقليل : المراد حافظون لنجازي عليه ، وقيل : كاتبون إما في أم الكتاب أو في الصحف التي تعرض يوم القيامة ، والمراد بذلك ترغيب العباد في التمسك بطاعة الله تعالى^(١) .

قال السعدي : «فصل جزاءه فيهم ، منطوقا ومفهوما ، فقال : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي : الأعمال التي شرعتها الرسل وحثت عليها الكتب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسله ، وما جاءوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ أي : لا نضيع سعيه ولا نبطله ، بل نضاعفه له أضعافا كثيرة .

﴿وَلِئَلَّا لَكُمْ كُتُبُونَ﴾ أي : مثبتون له في اللوح المحفوظ ، وفي الصحف التي مع الحفظة . أي : ومن لم يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم ، خاسر في دينه ودنياه^(٢) .

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٢١) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٢) .

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أخبر عن تفريق الناس دينهم الذي بعث به إليهم الرسل ثم أخبر عن صنيعه بمن عمل بما دعت إليه رسله من الإيمان به والعمل بطاعته ثم أتبع ذلك قوله: ﴿وَحَرَّمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) فلأن يكون ذلك خبراً عن صنيعه بمن أبى إجابة رسله وعمل بمعصيته وكفر به، أحرى ليكون بياناً عن حال القرية الأخرى التي لم تعمل الصالحات وكفرت به.

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: حرام على أهل قرية أهلكناها بطبعنا على قلوبهم وختمنا على أسماعهم وأبصارهم، إذ صدوا عن سبيلنا وكفروا بآياتنا، أن يتوبوا ويراجعوا الإيمان بنا واتباع أمرنا والعمل بطاعتنا، وإذا كان ذلك تأويل قوله الله ﴿وَحَرَّمٌ﴾ وعزم، على ما قال سعيد، لم تكن «لا» في قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ صلة، بل تكون بمعنى النفي، ويكون معنى الكلام: وعزم منا على قرية أهلكناها أن لا يرجعوا عن كفرهم، وكذلك إذا كان معنى قوله: ﴿وَحَرَّمٌ﴾. نوجبه، وقد زعم بعضهم أنها في هذا الموضع صلة، فإن معنى الكلام: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا، وأهل التأويل الذين ذكرناهم كانوا أعلم بمعنى ذلك منه»^(١).

قال ابن عطية: «ويتجه في الآية معنى ضمنه وعيد بين، وذلك أنه ذكر من عمل صالحاً وهو مؤمن، ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا يحشرون إلى رب ولا يرجعون إلى معاد، فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب ينالهم، فجاءت الآية مكذبة لظن هؤلاء، أي: وممتنع على الكفرة المهلكين أن لا يرجعون بل هم راجعون إلى عقاب الله وأليم عذابه»^(٢).

(١) جامع البيان (١٧/٨٧).

(٢) المحرر الوجيز (٤/٩٩).

قال ابن عاشور: «والرجوع: العود إلى ما كان فيه المرء؛ فيحتمل أن المراد رجوعهم عن الكفر، فيتعين أن تكون (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ زائدة للتوكيد لأن (حرام) في معنى النفي و(لا) نافية ونفي النفي إثبات، فيصير المعنى منع عدم رجوعهم إلى الإيمان، فيؤول إلى أنهم راجعون إلى الإيمان وليس هذا بمراد. فتعين أن المعنى: منع على قرية قدرنا هلاكها أن يرجعوا عن ضلالهم لأنه قد سبق تقدير هلاكها. وهذا إعلام بسنة الله تعالى في تصرفه في الأمم الخالية مقصود منه التعريض بتأييس فريق من المشركين من المصير إلى الإيمان وتهديدهم بالهلاك. وهؤلاء هم الذين قدر الله هلاكهم يوم بدر بسيوف المؤمنين.

ويجوز أن يراد رجوعهم إلى الآخرة بالبعث، وهو المناسب لتفريعه على قوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَهٍ لَّنَا رَٰجِعُونَ﴾^(١) فتكون (لا) نافية. والمعنى: ممنوع عدم رجوعهم إلى الآخرة الذي يزعمونه، أي دعواهم باطلة أي فهم راجعون إلينا فمجازون على كفرهم، فيكون إثباتا للبعث بنفي ضده، وهو أبلغ من صريح الإثبات لأنه إثبات بطريق الملازمة فكأنه إثبات الشيء بحجة. ويفيد تأكيداً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَهٍ لَّنَا رَٰجِعُونَ﴾^(٢).

قال السعدي: «أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا ما فرطوا فيه فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك»^(٣).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/١٤٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ
حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦)

★ غريب الآية:

حدب: الحدب: ما ارتفع من الأرض كالآكام. ومنه حدبة الظهر. قال عنترة:
فما رَعِشْتُ يداي ولا ازدهاني تواترهم إِلَيَّ من الحدَاب
ينسلون: يسرعون. من قولهم: نَسَلَ الثَّغْلُبُ، أي: أسرع في ذهابه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي،
وأنة قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد
عليهم ذو القرنين، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان، ينفتح
السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة، والوصف الذي ذكره الله من كل
مكان مرتفع، وهو الحدب ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم
الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب
التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون
عليهم في الدنيا، وأنه لا يد لأحد بقتالهم»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة يأجوج ومأجوج

* عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا
الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه
— وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها فقالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦٣).

أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فتح الله من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وعقد بيده تسعين»^(٢).

* غريب الحديثين:

ردم: الردم السد، وردمت الثلثة ردما إذا سدتها.

يأجوج ومأجوج: اختلف في اشتقاقها ف قيل من أجيج النار وهو التهابها وقيل من الأجة بالتشديد وهي الاختلاط أو شدة الحر وقيل من الأج وهو شدة العدو، وقيل من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة. . وقيل مأجوج من ماج إذا اضطرب. . وجميع ما ذكر من الاشتقاق مناسب لحالهم^(٣).

الخبث: الفسق والفجور.

عقد بيده تسعين: وهي أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها -أي أصل الإبهام- ويضمها ضما محكما بحيث تنطوي عقداتها حتى تصبح مثل الحية المطوقة^(٤).

* فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «قال ابن العربي: في الإشارة المذكورة دلالة على أنه ﷺ كان يعلم عقد الحساب حتى أشار بذلك لمن يعرفه وليس في ذلك ما يعارض قوله في الحديث الآخر: «إنا أمة لا نحسب ولا نكتب»^(٥) فإن هذا إنما جاء لبيان صورة معينة خاصة. قلت: والأولى أن يقال المراد بنفي الحساب ما يتعاناها أهل صناعته من الجمع والفضلكة والضرب ونحو ذلك، ومن ثم قال: «ولا نكتب» وأما عقد

(١) أخرجه: أحمد (٤٢٨/٦) والبخاري (٣٣٤٦/٤٧٠/٦) ومسلم (٢٢٠٧/٤/٢٨٨٠) والترمذي (٤١٦/٤).

(٢) ٢١٨٧/٤١٨ والنسائي في الكبرى (٣٩١-٣٩٢/٦/١١٣١١) وابن ماجه (٣٩٥٣/١٣٠٥/٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣٤١/٢) والبخاري (٣٣٤٧/٤٧٠/٦) ومسلم (٢٢٠٨/٤/٢٨٨١٣).

(٤) الفتح (١٣٢/١٣).

(٥) الفتح (١٣٤/١٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٤٣/٢) والبخاري (١٩١٣/١٥٩/٤) ومسلم (٧٦١/٢/١٠٨٠) وأبو داود (٧٣٩/٢).

(٦) ٢٣١٩/٧٤٠ والنسائي (٢١٣٩/٤٤٦/٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

الحساب فإنه اصطلاح للعرب تواضعوه بينهم ليستغنوا به عن التلفظ، وكان أكثر استعمالهم له عند المساومة في البيع، فيضع أحدهما يده في يد الآخر فيفهمان المراد من غير تلفظ لقصد ستر ذلك عن غيرهما ممن يحضرهما، فشبه ﷺ قدر ما فتح من السد بصفة معروفة عندهم، وقد أكثر الشعراء التشبيه بهذه العقود ومن ظريف ما وقفت عليه من النظم في ذلك قول بعض الأدباء:

رب برغوث ليلة بت منه وفؤادي في قبضة التسعين
أسرته يد الثلاثين حتى ذاق طعم الحمام في السبعين

وعقد الثلاثين أن يضم طرف الإبهام إلى طرف السبابة مثل من يمسك شيئاً لطيفاً كالإبرة وكذلك البرغوث، وعقد السبعين أن يجعل طرف ظفر الإبهام بين عقدتي السبابة من باطنها ويلوي طرف السبابة عليها مثل ناقد الدينار عند النقد^(١).

قال ابن العربي: «وفائدة قوله نعم في هلاك الصالح مع الطالح البيان بأن الخير يهلك بهلاك الشرير، وفيه وجهان: أحدهما: أنه إذا لم يغير عليه خبثه أو إذا غير، لكنه لم ينفع التغيير بل كثر المكر بعد النكير، فيهلك حيثئذ القليل والكثير، ويحشر كل واحد على نيته، عدل الله في حكمه بحكمته»^(٢).

قال الحافظ: «وكانها فهمت من فتح القدر المذكور من الردم أن الأمر إن تهادى على ذلك اتسع الخرق بحيث يخرجون، وكان عندها علم أن في خروجهم على الناس إهلاكاً عاماً لهم»^(٣).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربيع

(١) الفتح (١٣/١٣٤) وانظر عارضة الأحوذى (٩/٣٥-٣٦).

(٢) عارضة الأحوذى (٩/٣٦).

(٣) الفتح (١٣/١٣٦).

أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبرنا فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «الغرض منه هنا ذكر يأجوج ومأجوج والإشارة إلى كثرتهم، وأن هذه الأمة بالنسبة إليهم نحو عشر عشر العشر، وأنهم من ذرية آدم ردا على من قال خلاف ذلك»^(٢).

قال القرطبي: «لما سمع أصحاب النبي ﷺ أن ألفا إلا واحدا للنار، وواحدا للجنة، اشتد خوفهم لذلك، واستقلوا عدد أهل الجنة منهم، واستبعد كل واحد منهم أن يكون هو ذلك الواحد، فسكن النبي ﷺ خوفهم، وطيب قلوبهم فقال: «أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل» ويعني بالآلف هنا التسعمائة والتسعة والتسعين المتقدمة الذكر. ويأجوج ومأجوج خلق كفار وراء سد ذي القرنين. والمراد بهم في هذا الحديث: هم ومن كان على كفرهم، كما أن المراد بقوله: «منكم» أصحابه ومن كان على إيمانهم؛ لأن مقصود هذا الحديث الإخبار بقلة أهل الجنة من هذه الأمة بالنسبة إلى كثرة أهل النار من غيرها من الأمم. ألا ترى أن قوله -عليه الصلاة والسلام-: «إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار» يدل على ذلك المقصود؟ وأما نسبة هذه الأمة إلى من يدخل الجنة من الأمم فهذه الأمة شطر أهل الجنة كما نص عليه»^(٣).

قال الطيبي: ««أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف» تنبيه على أن يأجوج ومأجوج داخلون في هذا الوعيد، وبقوله: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» أن غير يأجوج ومأجوج من الأمم السالفة الفاتكة للحضر أيضًا داخلون في

(١) أخرجه: أحمد (٣/٣٢٠-٣٢١) والبخاري (٦/٤٧١/٣٣٤٨) ومسلم (١/٢٠١/٢٢٢) والنسائي في الكبرى (٦/١١٣٣٩/٤٠٩).

(٢) الفتح (٦/٤٧٦).

(٣) المفهم (١/٤٧٠-٤٧١).

الوعيد، فإذا وزع نصف أمة محمد ﷺ مع مثله من الأمم السالفة على هؤلاء يكون كالواحد من الألف، يدل عليه قوله ﷺ: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض» وقولهم: «اللَّهُ أكبر مراراً» متعجبين، استبشاراً منهم واستعظاماً لهذه النعمة العظمى والمنحة الكبرى، فيكون هذا الاستعظام بعد ذلك الاستعظام إشارة إلى فوزهم بالبغية بعد اليأس منها، واللَّهُ أعلم^(١).

* عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح بأجوج وأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فيعمون الأرض، وينحاز منهم المسلمون، حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم، حتى أنهم ليمرون بالنهر فيشربونه، حتى ما يذرون فيه شيئاً، فيمر آخرهم على أثرهم، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء. ويظهرون على الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، ولننازلن أهل السماء، حتى إن أحدهم ليهز حربته إلى السماء، فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك، إذ بعث الله دواب كنغف الجراد، فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضاً، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً، فيقولون: من رجل يشري نفسه، وينظر ما فعلوا؟ فينزل منهم رجل قد وطن نفسه على أن يقتلوه، فيجدهم موتى، فيناديهم: ألا أبشروا فقد هلك عدوكم، فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكر عليها، كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط^(٢).

* عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظننا أنه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج، وأنا فيكم فأنا

(١) شرح الطيبي (١١/٣٥٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/٧٧) وابن ماجه (٢/١٣٦٣-١٣٦٤/٤٠٧٩) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/٢٤٤-

٢٤٥/٦٨٣٠) والحاكم (٤/٤٨٩-٤٩٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في الصحيحة

(١٧٩٣) بقوله: «وهو من أوهامهما أو تساهلتهما. فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم في المتابعات ولم

يحتج به، وفي حفظه ضعف، فالحديث حسن فقط».

حجيجه دونكم، وإن يخرج، ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، واللّه خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافية كأنني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله فاثبتوا. قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفيناه فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله وما إسرعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا، وأسبغه ضروعا، وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيما سيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه، يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجدر ربح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا لي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور وبعث الله ياجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتاجهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله

مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتني ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة^(١).

* وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «سيوقد المسلمون من قسي ياجوج وماجوج ونشابهم وأترسهم سبع سنين»^(٢).

★ غريب الأحاديث:

نغف: النغف بالتحريك دود يكون في أنوف الإبل والغنم واحدها نغفة.
فتشكر عليها: أي تسمن وتمتلئ شحما، يقال شكرت الشاة بالكسر تشكر شكرا إذا سمنت وامتلا ضرعها لبنا.

فخفض فيه ورفع: بتخفيف الفاء أي كثر الكلام في شأنه، فتارة ليسمع وتارة يخفض ليستريح من تعب الإعلان. وقيل: معناه تارة صغره وحقره وتارة عظم أمره. وروي بتشديد الفاء.

حجيجه: أي محاجه ومبطل أمره دونكم.

القطط: شديد جعودة الشعر.

خلة بين الشام والعراق: بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام، أي في طريق بينهما.

ممحلين: المحل في الأصل انقطاع المطر.

(١) أخرجه: أحمد (١٨١-١٨٢/٤) ومسلم (٢٢٥٠-٢٢٥٥/٢) وأبو داود (٤٩٦-٤٩٧/٤) (٤٣٢١) والترمذي (٤٤٢-٤٤٥/٤) وابن ماجه (١٣٥٦-١٣٥٩/٢) والنسائي في الكبرى (٢٣٥/٦) (١٠٧٨٣).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (١٣٥٩/٢) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٩٤٠).

أسبغه : أي أطوله لكثرة اللين .

يعاسيب النحل : ذكور النحل . وذكر أهل اللغة أن يعسوب النحل أميرها ، والمراد به ههنا جماعة النحل لا الأمير خاصة .

جزلتين : أي قطعتين .

رمية الغرض : أي يجعل بين الجزلتين قدر رمية الغرض والأصل فيضربه بالسيف فيقسمه فيصيبه إصابة الغرض فيقطعه جزلتين .

مهرودتين : مصبوغتين بالصفرة . قال شمر : العرب تصبغ الثوب بالورس ثم الزعفران فيجيء لونه مثل زهرة الخردانة فذلك الثوب المهرود .

طأطأ : أي خفض .

جمان : حبوب من فضة صنعت على مثل الجواهر . وقد يسمى اللؤلؤ جمانا شبه قطرات العرق بمستدير الجواهر .

لا يدان لأحد : أي لا قدرة وعبر باليد لأن الدفاع لا يكون إلا بها .

فرسى : واحده فريسة مثل قتلى وقتيل وهو من فرس الذئب الشاة إذا قتلها . زهمهم : أي دسمهم .

كالزلفة : قيل كالمرأة في صفائها ونظافتها . وقيل معناه : كمصانع الماء أي يستنقع الماء فيها كما يستنقع في المصانع التي يجتمع فيها الماء .

قحفها : أصل القحف أعلى الجمجمة وهو المحتوي على الدماغ وقحف الرمانة مقعر قشورها .

الرسل : بكسر الراء وسكون السين المهملة أي اللبن .

اللقحة : بكسر اللام : التي تحلب من الإبل واستعمل ههنا في البقر والغنم .

الفئام : الجماعة .

الفخذ : دون القبيلة وفوق البطن .

قسي : جمع قوس .

نشابهم : هي السهام .

أنرسهم : جمع ترس ، وهو ما يتوقى به في الحرب .

* فوائد الأحاديث:

قال ابن العربي: «وأما خروج يأجوج ومأجوج فإنه يكون بعد نزول عيسى عليه السلام وهما أمتان مضرتان مفسدتان كافرتان، قيل إنهما من ولد يافث بن نوح وهما مشتقان من تأجج النار. يقال: يولد للرجل منهم ألف ولد لصلبه، أمر الله ذا القرنين أن يجعل بين الناس وبينهم سدا حسبما نص الله في كتابه»^(١).

قال ابن كثير: «وهم من ذرية نوح عليه السلام، من سلالة يافث أي الترك، وقد كانوا يعبثون في الأرض يؤذون أهلها، فحصرهم ذو القرنين في مكانهم داخل السد، حتى يأذن الله تعالى في خروجهم على الناس، فيكون من أمرهم ما ذكرنا في الأحاديث، وهم يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الترك، الغتم المغول، المخزومة عيونهم، الذلف أنوفهم، الصهب شعورهم على أشكالهم وألوانهم، ومن زعم أن منهم الطويل الذي كالنخلة السحوق أو أطول، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقيق، ومنهم من له أذنان يغطي بإحدهما، ويتوطى بالأخرى، فقد تكلف ما لا علم له به، وقال ما لا دليل عليه، وقد ورد في حديث أن أحدهم لا يموت حتى يرى من نسله ألف إنسان»^(٢)، فالله أعلم بصحته»^(٣).

قال ابن العربي: «قوله: «ويوقدون من قسيهم وآلثهم سبع سنين» يعني الأعوام السبعة التي تدوم فيها حاله كأنهم لا يحتاجون لكثرتها إلى سواها»^(٤).

* عن أبي سعيد الخدري عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»^(٥).

* فوائد الحديث:

قال البخاري رحمه الله في صحيحه: وقال عبدالرحمن عن شعبة قال: لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»^(٦).

(١) عارضة الأحوذني (٣٤/٩).

(٢) أخرجه: أبو داود الطيالسي (٢٢٨٢) وابن جرير (٨٩/١٧) وابن حبان (١٥/٢٤٠/٦٨٢٨)، لكنه منكر كما بين الشيخ الألباني في الضعيفة رقم (٤١٤٢).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/١٥٣).

(٤) عارضة الأحوذني (٩/٩١).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/٢٧-٢٨) والبخاري (٣/٥٨٠/١٥٩٣).

(٦) أخرجه البخاري (٣/٥٨٠).

قال الحافظ : « قوله : « لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت » وصله الحاكم ^(١) من طريق أحمد بن حنبل عنه قال البخاري : والأول أكثر ، أي لاتفاق من تقدم ذكره على هذا اللفظ وانفراد شعبة بما يخالفهم ، وإنما قال ذلك لأن ظاهرهما التعارض ؛ لأن المفهوم من الأول أن البيت يحج بعد أشراط الساعة ومن الثاني أنه لا يحج بعدها ، ولكن يمكن الجمع بين الحديثين ، فإنه لا يلزم من حج الناس بعد خروج يأجوج ومأجوج أن يمتنع الحج في وقت ما عند قرب ظهور الساعة ، ويظهر والله أعلم أن المراد بقوله : « ليحجن البيت » أي مكان البيت ^(٢) .

* * *

(١) (٤/٤٥٣) وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . ورواه أيضًا ابن حبان (١٥/١٥١/٦٧٥٠ الإحسان) وصححه الشيخ الألباني رحمته الله في الصحيحة (٢٤٣٠) .
(٢) الفتح (٣/٥٨١) .

قوله تعالى: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧)

★ غريب الآية:

شاخصة: يقال: شخص من بلده إذا خرج منها. وشخص بصره: إذا ارتفع بلا تحريك.

أحوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق، وذلك وعد الله الذي وعد عباده أنه يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب، وهو لا شك حق كما قال -جل ثناؤه-.. وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ففي (هي) التي في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ وجهان: أحدهما: أن تكون كناية عن الأبصار، وتكون الأبصار الظاهرة بيانا عنها كما قال الشاعر:

لعمرو أبيها لا تقول ظعنيتي
ألا فر عني مالك بن أبي كعب
فكنى عن الظعينة في: (لعمرو أبيها) ثم أظهرها، فيكون تأويل الكلام حينئذ:
فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا.

والثاني: أن تكون عماذا كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾^(١)
وكقول الشاعر:

فهل هو مرفوع بما ههنا رأس

وقوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإذا أبصار الذين كفروا قد شخصت عند مجيء الوعد الحق بأهواله، وقيام الساعة بحقائقها، وهم يقولون: يا ويلنا قد كنا قبل هذا الوقت في الدنيا في غفلة من هذا الذي نرى ونعاين، ونزل بنا من عظيم البلاء. وفي الكلام متروك ترك ذكره استغناء بدلالة ما

(١) الحج: الآية (٤٦).

ذكر عليه عنه ، وذلك يقولون من قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يقولون : يا ويلنا وقوله : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ يقول مخبرا عن قيل الذين كفروا بالله يومئذ : ما كنا نعمل لهذا اليوم ما ينجيننا من شدائده ، بل كنا ظالمين بمعصيتنا ربنا ، وطاعتنا إبليس وجنده في عبادة غير الله ﷻ » (١) .

قال السعدي : ﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ أي : يوم القيامة الذي وعد الله بآتيانه ، ووعد حقه وصدق ، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة ، من شدة الأفزع والأهوال المزعجة ، والقلقل المفطعة ، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور ، والندم والحسرة ، على ما فات ويقولون لَ : ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفي لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لماتوا . ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اعترفوا بظلمهم ، وعدل الله فيهم » (٢) .

* * *

(١) جامع البيان (٩٢/١٧-٩٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٦٣/٥-٢٦٤) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿٩٨﴾

★ غريب الآية:

حصب: الحصب: ما توقد به النار كالحطب وغيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «الحكمة في أنهم قرنوا بآلهتهم أمور: أحدها: أنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة؛ لأنهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلا بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب. وثانيها: أن القوم قدروا أنهم يشفعون لهم في الآخرة في دفع العذاب، فإذا وجدوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم. وثالثها: أن إلقاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بعبادها. ورابعها: قيل ما كان منها حجرا أو حديدا يحمى ويلزق بعبادها، وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها.

أما قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فالمراد يقذفون في نار جهنم فشبهم بالحصباء التي يرمى بها الشيء فلما رمى بها كرمي الحصباء، جعلهم حصب جهنم تشبيهاً^(١).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ أي فيها داخلون، والخطاب للمشركين عبدة الأصنام أي أنتم واردوها مع الأصنام، ويجوز أن يقال: الخطاب للأصنام وعبدتها؛ لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بكنايات الآدميين، وقال العلماء: لا يدخل في هذا عيسى ولا عزيز ولا الملائكة

(١) التفسير الكبير (٢٢/٢٢٥).

صلوات الله عليهم لأن (ما) لغير الآدميين ، فلو أراد ذلك لقال : (ومن)»^(١) .

قال ابن عاشور : «وهو ارتقاء في ثبورهم فهم قالوا : ﴿يَتَوَلَّوْنَ أَقْدَ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ فأخبروا بأن آلهتهم وهم أعز عليهم من أنفسهم وأبعد في أنظارهم عن أن يلحقهم سوء صائرون إلى مصيرهم من الخزي والهوان ، ولذلك أكد الخبر بحرف التأكيد لأنهم كانوا بحيث ينكرون ذلك .

و(ما) موصولة وأكثر استعمالها فيما يكون فيه صاحب الصلة غير عاقل . وأطلقت هنا على معبوداتهم من الأصنام والجن والشياطين تغليباً على أن (ما) تستعمل فيما هو أعم من العاقل وغيره استعمالاً كثيراً في كلام العرب . وكانت أصنامهم ومعبوداتهم حاضرة في ذلك المشهد»^(٢) .

* * *

(١) جامع أحكام القرآن (١١/٣٤٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١٧/١٥٢-١٥٣) .

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ ۖ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

★ غريب الآية:

زفير: أي نفس شديد، من شدة حرها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- لهؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم أنهم ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، وهم مشركو قريش: أنتم أيها المشركون وما تعبدون من دوني وادو جهنم، ولو كان ما تعبدون من دون الله آلهة ما وردوها، بل كانت تمنع من أراد أن يوردكموها إذ كنتم لها في الدنيا عابدين، ولكنها إذ كانت لا نفع عندها لأنفسها، ولا عندها دفع ضر عنها، فهي من أن يكون ذلك عندها لغيرها أبعد، ومن كان كذلك كان بينا بعده من الألوهة، وإن الإله هو الذي يقدر على ما يشاء، ولا يقدر عليه شيء، فأما من كان مقدورا عليه فغير جائز أن يكون إلها، وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني الآلهة ومن عبدها أنهم ما كثون في النار أبدا بغير نهاية، وإنما معنى الكلام: كلكم فيها خالدون»^(١).

قال السعدي: «هذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ هُمْ أَلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ (٩٩) وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ من شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها. ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبد وهو راض بعبادته.

(١) جامع البيان (١٧/٩٥).

(٢) النحل: الآية (٣٩).

وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾^(١)»^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن أهل النار لهم فيها زفير والعياذ بالله تعالى. وأظهر الأقوال في الزفير: أنه كأول صوت الحمار، وأن الشهيق كآخره، وقد بين تعالى أن أهل النار لهم فيها زفير في غير هذا الموضع، وزاد على ذلك الشهيق والخلود، كقوله في هود: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾^(٣) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن أهل النار لا يسمعون فيها. وبين في غير هذا الموضع: أنهم لا يتكلمون ولا يبصرون، كقوله في الإسراء: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾^(٤) الآية، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾^(٦) مع أنه جلا وعلا ذكر في آيات أخر ما يدل على أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾^(٧) الآية، وقوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾^(٨) الآية، وقوله: ﴿وَرَدَّ الْمُحْرِمُونَ النَّارَ﴾^(٩) الآية^(١٠).

وقال رحمه الله: «الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: واستظهره أبو حيان أن المراد بما ذكر من العمى والصمم والبكم حقيقة. ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٤-٢٦٥).

(٤) الإسراء: الآية (٩٧).

(٦) النمل: الآية (٨٥).

(٨) السجدة: الآية (١٢).

(١٠) أضواء البيان (٤/ ٦٩٠-٦٩١).

(١) الأنبياء: الآية (١٠١).

(٣) هود: الآيتان (١٠٦ و ١٠٧).

(٥) طه: الآية (١٢٤).

(٧) مريم: الآية (٣٨).

(٩) الكهف: الآية (٥٣).

بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون. وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وروي أيضًا عن الحسن كما ذكره الألوسي وغيره. وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به. كما أوضحناه في غير هذا الموضع. ومن المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه. ألا ترى أن الله يقول في المنافقين: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى﴾^(١) الآية، مع أنه يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ لَخَوِّفْ سَلْطَوُكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾^(٢)، ويقول فيهم: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾^(٣) أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ويقول فيهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾^(٤) وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء: فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم، ومن ذلك قول قعنب ابن أم صاحب:

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
وقول الآخر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد
وقول الآخر:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي أصم وأذني غير صماء
ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب من إطلاق الصمم على السماع الذي لا فائدة فيه. وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه، والرؤية التي لا فائدة فيها.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا﴾^(٥) وقع بهم ذلك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج قال تعالى: ﴿وَوَعَّ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾^(٦) وعلى هذا القول تكون الأحوال الخمسة مقدرة: أعني قوله في طه: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾^(٧)، وقوله فيها: ﴿لَمَ

(٢) الأحزاب: الآية (١٩).

(١) البقرة: الآية (١٨).

(٣) المنافقون: الآية (٤).

(٥) المؤمنون: الآية (١٠٨).

(٤) البقرة: الآية (٢٠).

(٦) النمل: الآية (٨٥).

(٧) طه: الآية (١٢٤).

حَشَرْتَنِي أَعْمَى^(١)، وقوله في الإسراء: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا^(٢)﴾، وأظهرها عندي الأول: واللَّهُ تعالى أعلم^(٣).

* * *

(١) طه: الآية (١٢٥).

(٢) الإسراء: الآية (٩٧).

(٣) أضواء البيان (٤/٥٤٩-٥٥٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إن أهل التأويل اختلفوا في المعنى به، فقال بعضهم: عني به كل من سبق له من الله السعادة من خلقه أنه عن النار مبعد... وقال آخرون: بل عني: من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبد كاره... وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب: قول من قال: عني بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ما كان من معبود كان المشركون يعبدونه والمعبود لله مطيع، وعابدوه بعبادتهم إياه بالله كفار؛ لأن قوله -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: ابتداء كلام محقق لأمر كان ينكره قوم، على نحو الذي ذكرنا في الخبر عن ابن عباس، فكان المشركين قالوا لنبي الله ﷺ إذ قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(١) ما الأمر كما تقول، لأننا نعبد الملائكة، ويعبد آخرون المسيح وعزيراً، فقال ﷺ ردا عليهم قولهم: بل ذلك كذلك، وليس الذين سبق لهم منا الحسنى هم عنها مبعدون؛ لأنهم غير معينين بقولنا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فأما قول الذين قالوا ذلك استثناء من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فقول لا معنى له؛ لأن الاستثناء إنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه ولا شك أن الذين سبق لهم منا الحسنى إنما هم إما ملائكة، وإما إنس أو جان، وكل هؤلاء إذا ذكرت لها العرب فإن أكثر ما تذكرها بمن لا بما، والله -تعالى ذكره- إنما ذكر المعبودين الذين أخبر أنهم حصب جهنم بما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ إنما أريد به ما كانوا يعبدونه من الأصنام والآلهة من الحجارة والخشب، لا من كان من الملائكة والإنس، فإذا كان ذلك كذلك لما وصفنا فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ جواب من الله للقاتلين ما ذكرنا من

المشركين مبتدأ، وأما الحسنى فإنه الفعلى من الحسن، وإنما عني بها السعادة السابقة من الله لهم^(١).

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين سبقت لهم منه في علمه الحسنى وهي تأنيث الأحسن، وهي الجنة أو السعادة مبعدون يوم القيامة عن النار. وقد أشار إلى نحو ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾^(٢)، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾^(٣)، ونحو ذلك من الآيات^(٤).

قال السعدي: «أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا ليسرى والأعمال الصالحة. ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريبا منها، بل يبعدون عنها، غاية البعد^(٥).

* * *

(١) جامع البيان (١٧/٩٦-٩٨).

(٢) يونس: الآية (٢٦).

(٣) الرحمن: الآية (٦٠).

(٤) أضواء البيان (٤/٦٩١).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾

★ غريب الآية:

حَسِيسَهَا: أي حركة لَهَبِهَا. والحسيس: الصوت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : لا يسمع هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى حسيس النار ويعني بالحسيس: الصوت والحس».

فإن قال قائل: فكيف لا يسمعون حسيسها، وقد علمت ما روي من أن جهنم يؤتى بها يوم القيامة فتزفر زفرة لا يبقى مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه خوفا منها؟ قيل: إن الحال التي يسمعون فيها حسيسها هي غير تلك الحال، بل هي الحال التي:

حدثني محمد بن سعد قال: ثنى أبي قال: ثنى عمي قال: ثنى أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ يقول: وهم فيما تشتهي نفوسهم من نعيمها ولذاتها ما كثون فيها لا يخافون زوالا عنها ولا انتقالا عنها^(١).

قال ابن عاشور: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بيان لمعنى مبعدون، أي مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد ما يبلغ منه المرئي.

والحسيس: الصوت الذي يبلغ الحس، أي الصوت الذي يسمع من بعيد أي

(١) جامع البيان (٩٨/١٧).

لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها، فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها.

وعقب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم، وجيء فيه بما يدل على العموم وهو ﴿فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وما يدل على الدوام وهو ﴿خَلِيدُونَ﴾^(١).

قال السعدي: «حتى لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها. ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَاسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ﴾ لا يحزنهم الفزع الأكبر ونالقتهم الملائكة هذا يؤمكم الذي كنتم توعدون»^(٢).

﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ﴾ من المآكل، والمشارب، والمناكح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب»^(٣).

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/١٥٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الفزع الأكبر: أي الفزع هو؟ فقال بعضهم: ذلك النار إذا طبقت على أهلها. . وقال آخرون: بل ذلك النفخة الآخرة. . وقال آخرون: بل ذلك حين يؤمر بالعبد إلى النار. . وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر، وأمن منه فهو مما بعده أخرى أن لا يفزع، وأن من أفرعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده.

وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يقول: وتستقبلهم الملائكة، يهتئونهم يقولون: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الكرامة من الله والحباء، والجزيل من الثواب على ما كنتم تنصبون في الدنيا لله في طاعته^(١).

قال الرازي: «فيه وجوه: أحدها: أنها النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢). وثانيها: أنه الموت قالوا: إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت في صورة كبش أملح فيقول لأهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون: لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادي يا أهل الجنة خلود ولا موت أبدا، وكذلك لأهل النار، واحتج هذا القائل بأن قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ إنما ذكر بعد قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾^(٣) فلا بد وأن يكون لأحدهما تعلق بالآخر، والفزع الأكبر الذي هو ينافي الخلود هو الموت. وثالثها: قال سعيد بن جبير: هو إطباق

(١) جامع البيان (١٧/٩٨-٩٩).

(٢) النمل: الآية (٨٧).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٢).

النار على أهلها، فيفزعون لذلك فزعة عظيمة»^(١).

قال السعدي: «أي: لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار، تتغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلمهم بما يقدمون عليه وأن الله قد أمنهم مما يخافون»^(٢).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن عباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحسنی ﴿وَنُلَقِّهِمُ الْمَلَكَةَ﴾ أي تستقبلهم بالبشارة، وتقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي توعدون فيه أنواع الكرامة والنعيم. قيل: تستقبلهم على أبواب الجنة بذلك. وقيل: عند الخروج من القبور كما تقدم.

وما ذكره -جل وعلا- من استقبال الملائكة لهم بذلك بينه في غير هذا الموضع، كقوله في فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٣﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ وقوله في النحل: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أولياء الله ﷺ

* عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ لما قضى صلاته أقبل على الناس بوجهه قال: «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم أو قربتهم -شك ابن صاعد- من الله تعالى ﷻ. فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء، تغطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله تعالى انعتهم لنا، حلهم

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٥).

(٤) النحل: الآية (٣٢).

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٢٨).

(٣) فصلت: الآيات (٣٠-٣٢).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٦٩١-٦٩٢).

لنا، وشكلهم لنا. قال: فسر وجه رسول الله ﷺ بسؤال الأعرابي. فقال رسول الله ﷺ: هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا فيه، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها ويجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا يفرع الناس يوم القيامة ولا يفرعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(١).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣٤٣/٥) وعبد الرزاق (٢٠١/١١) و٢٠٢/٢٠٣٢٤ وابن المبارك في الزهد (١/٥٦١-٥٦٢/٦٦٤) واللفظ له، والطبراني (٣/٣٢٩/٣٤٣٣) والبيهقي في شرح السنة (١٣/٥٠-٥١) وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٨/٢٢) وانظر الصحيحة (٣٤٦٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾

★ غريب الآية:

السجل: الصحيفة التي يسجل فيها المطلوب.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السموات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنتثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي: إعادتنا للخلق، مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئاً، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ نفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾، أو بقوله: ﴿وَنُلْقِيَهُمْ﴾. وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة يطوي السماء كطي السجل للكتب. وصرح في الزمر بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، وأن السموات مطويات بيمينه، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧﴾. وما ذكره من كون السموات مطويات بيمينه في هذه الآية جاء في الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ، وقد قدمنا مراراً أن الواجب في ذلك إمراره كما جاء، والتصديق به مع اعتقاد أن صفة الخالق أعظم من أن تماثل صفة

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٦٦/٥).

(٢) الزمر: الآية (٦٧).

المخلوق»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في طي الله السماء وأن طيها يكون بيده اليمنى

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله ﷻ السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع، ورودا متنوعا متصفا فيه مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط والمصافحة والحثيات والنضح باليد، والخلق باليدين والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وتخميم طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله ﷺ يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: اخترت يمين ربي، وأخذ الصدقة بيمينه يرببها لصاحبها، وكتابه بيده على نفسه أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده، ثم قال له ويداه مفتوحتان: اختر. فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة، وأن يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى، وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده»^(٣).

وقد تقدم ما يتعلق بصفة اليمين في سورة التوبة الآية (١٠٤) وسيأتي في سورة

(١) أضواء البيان (٤/٦٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٧٢) والبخاري (١٣/٤٨٤/٧٤١٢) ومسلم (٤/٢١٤٨/٢٧٨٨) وأبو داود (٥/١٠٠).

(٣) (٤٧٣٢) والنسائي في الكبرى (٤/٤٠٠-٤٠١/٧٦٨٩) وابن ماجه (٢/١٤٢٩/٤٢٧٥).

(٣) مختصر الصواعق (ص ٣٨٤).

الزمر عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الآية (٦٧).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ ثم إن أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، ثم يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي، فيقال لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾^(١) فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ الكاف متعلق بمحذوف دل عليه (نعيده) أي نعيد الخلق إعادة مثل الأول. والمعنى بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلا كذا نعيدهم يوم القيامة»^(٣).

قال ابن القيم: «لما وعد الله سبحانه وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأه عليها من تمام أعضائه وكمالها قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ ﴿١٥﴾ وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾»^(٤). وأيضا فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون فليس هناك نجاسة تصيب الغرلة فيحتاج إلى التحرز منها، والقلق لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه، هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإلا فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها، فإنهم يبعثون حفاة عراة بهما، ثم يكسون ويمد خلقهم ويزاد فيه بعد ذلك، يزداد في خلق أهل الجنة والنار، وإلا

(١) المائدة: الآية (١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٢٢٣، ٢٢٩) والبخاري (٨/٥٥٩-٥٦٠/٤٧٤٠) ومسلم (٤/٢١٩٤-٢١٩٥/٢٨٦٠٥٨) والترمذي (٤/٥٣٢/٢٤٢٣) والنسائي (٤/٤٢٣/٢٠٨٦).

(٣) تحفة الأحوذى (٧/٩٢).

(٤) الأعراف: الآية (٢٩).

فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعلى صفاتهم وهيناتهم وأحوالهم، فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كما يشاء وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول يمكن هذا وهذا، ولا يعلم إلا بخبر يجب المصير إليه، والله سبحانه أعلم^(١).

* * *

(١) تحفة المودود (ص ٣٨٧-٣٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١) وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٢) وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ فِيهَا دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾^(٣) وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾^(٤)».

قال الرازي: «أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ففيه وجوه:

أحدها: الأرض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى، فالمعنى أن الله تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحا من عباده، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور: أما أولا: فقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبْؤًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾^(٥)، وأما ثانيا: فلأنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت، وغيرهم إذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع، فأما أرض الدنيا فلأنها

(١) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٢) النور: الآية (٥٥).

(٣) الزمر: الآية (٧٤).

(٤) غافر: الآية (٥١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣٧٩/٥).

للسالحي وغير السالحي.

وأما ثالثاً: فلأن هذه الأرض مذكورة عقيب الإعادة وبعد الإعادة الأرض التي هذا وصفها لا تكون إلا الجنة. وأما رابعاً: فقد روي في الخبر أنها أرض الجنة فإنها بيضاء نقية.

وثانيها: أن المراد من الأرض أرض الدنيا فإنه ﷺ سيورها المؤمنين في الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَنَسْخِلَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(٢). وثالثها: هي الأرض المقدسة يرثها الصالحون، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْخَمُونَ مَسْكُوفَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَكَّرْنَا فِيهَا﴾^(٣) ثم بالآخرة يرثها أمة محمد ﷺ عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ^(٤).

قال ابن القيم: «فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكر أم الكتاب الذي عند الله، والأرض الدنيا، وعباده الصالحون أمة محمد ﷺ. هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم -تبارك وتعالى- أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»^(٥). فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ.

(١) النور: الآية (٥٥).

(٢) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٣) الأعراف: الآية (١٣٧).

(٤) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣٠-٢٣١).

(٥) أخرجه: أحمد (٤٣١-٤٣٢) والبخاري (٦/ ٣٥١-٣٥٢/ ٣١٩١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٤٠).

وأخرجه: الترمذي مختصراً ودون ذكر موضع الشاهد (٥/ ٦٨٨-٦٨٩/ ٣٩٥١) كلهم من حديث

عمران بن حصين ؓ.

والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١) بِالْيَسْبُورِ (١) أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور. والذكر هنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل (٢).

وقال أيضا: «وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين، وعن ابن عباس قول آخر أنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد، وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها» (٣).

وقالت طائفة من المفسرين المراد بذلك أرض بيت المقدس وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين، وليست الآية مختصة بها» (٤).

قال الشنقيطي: «أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة: أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل، وزبور داود، وغير ذلك. وأن المراد بالذكر: أم الكتاب، وعليه فالمعنى: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب. وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه. وقيل الزبور في الآية: زبور داود، والذكر: التوراة. وقيل غير ذلك. وأظهرها هو ما ذكرنا واختاره غير واحد.

واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية، ومن ذلك هذه الآية الكريمة، لأن المراد بالأرض في قوله هنا: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ فيه للعلماء وجهان:

(١) النحل: الآيتان (٤٣ و٤٤).

(٢) شفاء العليل (ص ١١٥-١١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/٢٧٨) ومسلم (٤/٢٢١٥/٢٨٨٩) وأبو داود (٤/٤٥٠-٤٥٢/٤٢٥٢) والترمذي (٤/٤١٠-٢١٧٦).

وابن ماجه (٢/١٣٠٤/٣٩٥٢).

(٤) الروح (١/٤١٤-٤١٥).

الأول: أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين . وهذا القول يدل له قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١) وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة مريم .

الثاني: أن المراد بالأرض: أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا : ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَيْتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَنَّ بِنَاهَا ﴾ (٣) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (٥) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦) وَلَنَسْكُنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ (٧) إلى غير ذلك من الآيات (٧) .

* * *

(١) الزمر: الآية (٧٤) .

(٢) الأحزاب: الآية (٢٧) .

(٣) الأعراف: الآية (١٣٧) .

(٤) الأعراف: الآية (١٢٨) .

(٥) النور: الآية (٥٥) .

(٦) إبراهيم: الآيتان (١٣ و ١٤) .

(٧) أضواء البيان (٤/ ٦٩٣-٦٩٤) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَكِيدٍ﴾ ﴿٥٦﴾

★ غريب الآية:

بلاغا : كفاية .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ لبلاغا لمن عبد الله بما فيه من الفرائض التي فرضها الله إلى رضوانه وإدراك الطلبة عنده»^(١).

قال الرازي: «فقوله هذا إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد والوعيد، والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية، وما تبلغ به البغية، وقيل في العابدين إنهم العالمون، وقيل بل العاملون، والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين، لأن العلم كالشجر والعمل كالثمر، والشجر بدون الثمر غير مفيد، والثمر بدون الشجر غير كائن»^(٢).

قال الشنقيطي: «الإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾ للقرآن العظيم، الذي منه هذه السورة الكريمة. والبلاغ: الكفاية، وما تبلغ به البغية. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن فيه الكفاية للعبادين، وما يبلغون به بغيتهم، أي من خير الدنيا والآخرة، ذكره في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُمُ الْأَوَّلُونَ﴾^(٣) وخص القوم العابدين بذلك لأنهم هم المنتفعون به»^(٤).

قال السعدي: «يثني الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» ويبين كفايته التامة عن

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣١).

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠٥).

(٣) إبراهيم: الآية (٥٢).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٦٩٤).

كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰكِدِيْنَ﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وراءه غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعا، المعروف بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله على الإنسان، فمن لم يغنه القرآن، فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه، فلا كفاه الله^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦٧-٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي»

ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية، أجميع العالم الذي أرسل إليهم محمد أريد بها مؤمنهم وكافرهم؟ أم أريد بها أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر؟ فقال بعضهم: عني بها جميع العالم المؤمن والكافر. . وقال آخرون: بل أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر. . وأولى القولين في ذلك بالصواب: القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمدا ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به، وبالعامل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء، الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله»^(١).

قال الرازي: «إنه ﷺ كان رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلا أنه ﷺ بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم، وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمدا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قرينا له قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾^(٢) وأما في الدنيا فلا أنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه. فإن قيل: كيف كان رحمة،

(١) جامع البيان (١٧/١٠٦).

(٢) فصلت: الآية (٤٤).

وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟ قلنا: الجواب من وجوه:

أحدها: إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾^(١) ثم قد يكون سببا للفساد.

وثانيها: أن كل نبي قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسح والغرق، وأنه تعالى آخر عذاب من كذب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٢) لا يقال: ليس أنه تعالى قال: ﴿فَتِلْكَ لَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾^(٤) لأننا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه.

وثالثها: أنه ﷺ كان في نهاية حسن الخلق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٥) وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «قيل لرسول الله ﷺ أَدْعُ عَلَى الْمَشْرِكِينَ، قال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا»^(٦) وقال في رواية حذيفة: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأیما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة»^(٧).

ورابعها: قال عبدالرحمن بن زيد: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٨) يعني المؤمنين خاصة، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري: والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لما بينا أنه كان رحمة لكل لو تدبروا في آيات الله وآيات رسوله، فأما من أعرض واستكبر، فإنما وقع في المحنة من قبل نفسه كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾^(٩).

قال ابن القيم: «أصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١٠) أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا به كرامة

(١) ق: الآية (٩).

(٢) الأنفال: الآية (٣٣).

(٣) التوبة: الآية (١٤).

(٤) القلم: الآية (٤).

(٥) سيأتي تخريجه.

(٦) سيأتي تخريجه.

(٧) الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٨) التفسير الكبير (٢٢/٢٣١-٢٣٢).

(٩) ق: الآية (٩).

(١٠) التوبة: الآية (١٤).

(١١) القلم: الآية (٤).

(١٢) سيأتي تخريجه.

(١٣) الأنبياء: الآية (١٠٧).

(١٤) التفسير الكبير (٢٢/٢٣١-٢٣٢).

الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم، وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره، وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها كما يقال هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض^(١).

قال ابن عاشور: «أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد ﷺ وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم وإثبات رسالة محمد ﷺ، وأنه لم يكن بدعا من الرسل، وذكروا إجمالا، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل. وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل.

وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكما وعلمًا وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ. ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها وذلك كونها رحمة للعالمين. فهذه الجملة عطف على جملة ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢) ختامًا لمناقب الأنبياء وما بينهما اعتراض واستطراد. ولهذه الجملة اتصال بآية ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾^(٣).

(١) جلاء الأنفهام (ص ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) الأنبياء: الآية (٩١).

(٣) الأنبياء: الآية (٣).

ووزانها في وصف شريعة محمد ﷺ وزان آية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ (١) وآية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ (٢) والآيات التي بعدها في وصف ما أوتيهِ الرسل السابقون.

وصيغت بأبلغ نظم إذا اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفاً بدون حرف العطف الذي عطفت به . وذكر فيها الرسول ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير (رحمة) للتعظيم؛ إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقليل: إلا لرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين . وليس التنكير للإفراد قطعاً لظهور أن المراد جنس الرحمة، وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم . فهذه اثنا عشر معنى خصوصياً، فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب وهي: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

إذ تلك الكلمة قصارها كما قالوا: «أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل» دون خصوصية أزيد من ذلك، فجمع ستة معان لا غير، وهي غير خصوصية إنما هي وفرة معان . وليس تنكير «حبيب ومنزل» إلا للوحدة لأنه أراد فرداً معيناً من جنس الأحباب، وفرداً معيناً من جنس المنازل، وهما حبيبه صاحب ذلك المنزل ومنزله . .

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته .

فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي أحد تلامذة أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس: (زين الله محمداً ﷺ بزيينة الرحمة فكان كونه رحمة، وجميع شمائله

(١) الأنبياء: الآية (٤٨).

(٢) الأنبياء: الآية (٥١).

رحمة وصفاته رحمة على الخلق) اهـ. ذكره عنه عياض في الشفاء. قلت: يعني أن محمدا ﷺ فطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقي إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائما رغبته وخلقه. قالت عائشة: «كان خلقه القرآن»^(١). ولهذا خص الله محمدا ﷺ في هذه السورة بوصف الرحمة، ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ لَأَيُّ بِرَحْمَةِ جِبْلِكَ عَلَيْهَا وفطرك بها فكنت لهم لنا. وفي حديث مسلم: أن رسول الله لما شج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»^(٤).

وأما المظهر الثاني: من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصارييف شريعته، أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم لأن قوله تعالى: (للعالمين) متعلق بقوله: (رحمة).

والتعريف في (العالمين) لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم. والعالم: الصنف من أصناف ذوي العلم أي الإنسان أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة كما تقدم من احتمال المعنيين في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣). فإن أريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس، فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة، إما لأنها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام، وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك، وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة هي لها

(١) أخرجه: أحمد (٥٤/٦) ومسلم (٥١٢/١-٥١٤/٧٤٦) وأبو داود (٨٧/٢-٨٨/١٣٤٢) والنسائي (٣/٢٢١-٢٢٢/١٦٠٠) وابن ماجه (١/٣٧٦-١١٩١) مختصرا.

(٢) التوبة: الآية (١٢٨). (٣) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٤) سيأتي تخريجه.

مثل شريعة التوراة فإنها أوسع الشرائع السالفة لتعلقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾^(١) فإن كثيرا من عقوبات أمتها جعلت في فرض أعمال شاقة على الأمة بفروض شاقة مستمرة قال تعالى: ﴿فِيظَلُّونَ مِنَ اللَّيْلِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٌ أُحْلَتْ لَهُمْ﴾^(٢) وقال: ﴿فَقُتِبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْلَرُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) إلى آيات كثيرة.

لا جرم أن الله تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطابا منه لموسى ﷺ: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ^(٥) الآية. ففي قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم، وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيات بتطوراتها لأن تساس بالرحمة وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدّة، وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة لم يعجز في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٧) وقال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(٨).

(١) الأنعام: الآية (١٥٤).

(٢) النساء: الآية (١٦٠).

(٣) البقرة: الآية (٥٤).

(٤) الأعراف: الآيتان (١٥٦ و ١٥٧).

(٥) الحج: الآية (٧٨).

(٦) البقرة: الآية (١٨٥).

(٧) أخرجه: أحمد (٢٦٦/٥) والطبراني (٧٨٦٨/٨/٢٥٧). وأورده الهيثمي في المجمع (٢٧٩/٥) وقال: «رواه

أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهماني وهو ضعيف»، وصححه بشواهد الشيخ الألباني في الصحيحة

(٢٩٢٤).

وما يتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(١). فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين، فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه، وهم أهل الذمة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

هذا وإن أريد به (العالمين) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به. إذ هو مخلوق لأجل الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(٣) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٤﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْفِيهِ إِلَّا إِسْقَاطَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوْفٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾^(٤).

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان، ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو وحرم تعذيب الحيوان لغير أكله، وعد فقهاؤنا سباق الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه^(٥).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عينا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة

(٢) البقرة: الآية (٢٩).

(١) البقرة: الآية (١٧٩).

(٣) النحل: الآيات (٥-٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/١٦٤-١٦٩).

(٦) التوبة: الآية (١٢٨).

قال المناوي: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة» لمن أراد الله إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، أو لأقرب الناس إلى الله وإلى رحمته لا لأبعدهم عنها، فاللعن مناف لحالي فكيف ألعن^(١).

* عن عمرو بن أبي قرة قال: كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فيقول سلمان يا حذيفة إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيقول ويرضى ويقول لقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أمتي سبته سبة في غضبي أو لعنته لعنة فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنما بعثني رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة»^(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «اللهم فأَيما مؤمن سبته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة»^(٣).

★ فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «اللهم فأَيما مؤمن سبته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة».

قال النووي: «وفي رواية» أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة» وفي رواية «فأي المؤمنين أذيته شتمته لعنته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة» وفي رواية «إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه، فأَيما مؤمن أذيته أو سبته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة» وفي رواية «إني اشتطت على ربي فقلت إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر فأَيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا وزكاة وقربة» هذه الأحاديث مبينة ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمتة والاعتناء بمصالحهم، والاحتياط لهم، والرغبة في كل ما ينفعهم. وهذه الرواية المذكورة آخرها تبين المراد بباقي الروايات المطلقة، وأنه إنما يكون دعاءه عليه رحمة وكفارة وزكاة ونحو ذلك إذا لم يكن أهلا للدعاء عليه والسب واللعن ونحوه

(١) فيض القدير (١٣/٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٣٧/٥) والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٤) وأبو داود (٤٦٠٩/٤٦-٤٥/٥) وصححه

الألباني في الصحيحة (١٧٥٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢٤٣/٢) والبخاري (٦٣٦١/٢٠٥/١١) واللفظ له، ومسلم (٢٠٩/٤/٢٦٠١٩٢).

وكان مسلماً وإلا فقد دعا ﷺ على الكفار والمنافقين ولم يكن ذلك لهم رحمة^(١).
قال المازري: «إن قيل: كيف يدعو ﷺ بدعوة على من ليس لها بأهل، وهذا مما لا يليق به ﷺ؟ قيل: المراد بقوله: «ليس لها بأهل» عندك في باطن أمره لا على ما يظهر إليه ﷺ مما تقتضيه حالته وجنابته حين دعائه عليه فكأنه ﷺ يقول: من كان باطن أمره عندك أنه ممن ترضى عنه فاجعل دعوتي عليه التي اقتضاها ما ظهر إلي من مقتضى حاله حينئذ طهوراً وزكاة. وهذا معنى صحيح لا إحالة فيه وهو ﷺ متعبد بالظواهر، وحساب الناس في البواطن على الله تعالى»^(٢).

قال الحافظ: «وهذا مبني على قول من قال: إنه كان يجتهد في الأحكام، ويحكم بما أدى إليه اجتهاده، وأما من قال: كان لا يحكم إلا بالوحي، فلا يتأتى منه هذا الجواب»^(٣).

قال المازري: «إن قيل: ما معنى قوله: «وأغضب كما يغضب البشر» وهذا يشير إلى أن تلك الدعوة وقعت بحكم سورة الغضب لا على أنها من مقتضى الشرع، فبقي السؤال على حاله. قيل: يحتمل أن يكون ﷺ أراد أن دعوته عليه أو سبه أو جلده كان مما خير بين فعله له عقوبة للجاني أو تركه والزجر له بما سوى ذلك، فيكون الغضب لله سبحانه بعثه على لعنته أو جلده، ولا يكون ذلك خارجاً عن شرعه، ولا موقفاً له فيما لا يجوز. ويحتمل أن يكون خرج هذا مخرج الإشفاق منه ﷺ وتعليم أمته الخوف من تعدي حدود الله تعالى، فكأنه ﷺ يظهر الإشفاق من أن يكون الغضب يحمله على زيادة يسيرة في عقوبة الجاني لولا الغضب ما زادها ولا أوقعها، ويكون ذلك من الصفات على القول بجواز وقوعها من الأنبياء عليهم السلام أو إشفاقاً منه ﷺ وإن لم يقع فيه، وقد يقع اللعن والسباب من غير قصد إليه فلا يكون في ذلك نازلاً منزلة اللعنة الواقعة رغبة إلى الله سبحانه وطلباً للاستجابة فمثل هذه الطرائق ينبغي أن يسلك في مثل هذا الحديث»^(٤).

قال الحافظ: «وأشار عياض إلى ترجيح هذا الاحتمال الأخير فقال: يحتمل أن

(١) شرح مسلم (١٦/١٢٤).

(٢) الفتح (١١/٢٠٦).

(٣) المعلم (٣/١٦٨).

(٤) المعلم (٣/١٦٨).

يكون ما ذكره من سب ودعاء غير مقصود ولا منوي، لكن جرى على عادة العرب في دعم كلامها وصلة خطابها عند الحرج والتأكيد للعتب لا على نية وقوع ذلك، كقولهم عقرى حلقى، وتربت يمينك، فأشفق من موافقة أمثالها القدر، فعاهد ربه ورغب إليه أن يجعل ذلك القول رحمة وقربة انتهى. وهذا الاحتمال حسن إلا أنه يرد عليه قوله: «جلدته» فإن هذا الجواب لا يتمشى فيه، إذ لا يقع الجلد عن غير قصد، وقد ساق الجميع مساقاً واحداً إلا من حمل على الجلد الواحد فينتجه. ثم أبدى القاضي احتمالاً آخر فقال: كان لا يقول ولا يفعل ﷺ في حال غضبه إلا الحق، ولكن غضبه لله قد يحمله على تعجيل معاقبة مخالفه وترك الإغضاء والصفح، ويؤيده حديث عائشة «ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله»^(١) وهو في الصحيح. قلت: فعلى هذا فمعنى قوله: «ليس لها بأهل» أي من جهة تعين التعجيل^(٢).

قال القرطبي: «ظاهر هذا: أنه خاف أن يصدر عنه في حال غضبه شيء من تلك الأمور فيتعلق به حق مسلم، فدعا الله تعالى، ورغب إليه في أنه: إن وقع منه شيء من ذلك لغير مستحق في ألا يفعل بالمدعو عليه مقتضى ظاهر ذلك الدعاء، وأن يعوضه من ذلك مغفرة لذنوبه، ورفعته في درجاته، فأجاب الله تعالى طلبه نبيه ﷺ ووعد به بذلك، فلزم ذلك بوعد الصدق، وقوله الحق، وعن هذا عبر النبي ﷺ بقوله: «شارطت ربي»، و«شرط علي ربي»، و«اتخذت عنده عهداً لن يخلفني» لا أن الله تعالى يشترط عليه شرط، ولا يجب عليه لأحد حق، بل: ذلك كله بمقتضى فضله، وكرمه على حسب ما سبق في علمه. فإن قيل: فكيف يجوز أن يصدر من النبي ﷺ لعن، أو سب، أو جلد لغير مستحقه، وهو معصوم من مثل ذلك في الغضب، والرضا؛ لأن كل ذلك محرم وكبيرة، والأنبياء معصومون عن الكبائر، إما بدليل العقل، أو بدليل الإجماع كما تقدم؟

قلت: قد أشكل هذا على العلماء، وراموا التخلص من ذلك بأوجه متعددة، أوضحها وجه واحد، وهو: أن النبي ﷺ إنما يغضب لما يرى من المغضوب عليه من مخالفة الشرع، فغضبه لله تعالى لا لنفسه؛ فإنه ما كان يغضب لنفسه، ولا ينتقم

(١) أخرجه: أحمد (١١٤/٦) والبخاري (٧٠٢/٦) ومسلم (٣٥٦٠/٤) وأبو داود (٥/٥)

(٢) (٤٧٨٥/١٤٢) والترمذي في الشمائل (٣٠٠).

(٢) الفتح (٢٠٦/١١).

لها ، وقد قررنا في الأصول : أن الظاهر من غضبه تحريم الفعل المغضوب من أجله . وعلى هذا فيجوز له : أن يؤدب المخالف له باللعن والسب والجلد والدعاء عليه بالمكروه ، وذلك بحسب مخالفة المخالف ، غير أن ذلك المخالف قد يكون ما صدر منه فلتة أوجبتها غفلة ، أو غلبة نفس ، أو شيطان ، وله فيما بينه وبين الله تعالى عمل خالص ، وحال صادق يدفع الله عنه بسبب ذلك أثر ما صدر عن النبي ﷺ له من ذلك القول ، أو الفعل . وعن هذا عبر النبي ﷺ بقوله : « فأيا أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا ، وزكاة ، وقرية تقربه بها يوم القيامة » أي : عوضه من تلك الدعوة بذلك ، والله تعالى أعلم .

قلت : وقد يدخل في قوله : « أيما أحد من أمتي دعوت عليه » : الدعوات الجارية على اللسان من غير قصد للوقوع ، كقوله : « تربت يمينك » و « عقرى حلقى » . ومن هذا النوع قوله لليتيمة : « لا كبر سنك » ؛ فإن هذه لم تكن عن غضب ، وهذه عادة غالبية في العرب يصلون كلامهم بهذه الدعوات ، ويجعلونها دعاما لكلامهم من غير قصد منهم لمعانيها^(١) .

قال ابن بطال : « هذا الحديث يصدقه ما ذكره الله تعالى في كتابه من صفة رسوله ﷺ في قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٢) . وهو ﷺ لا يسب أحدا ولا يؤذيه ظلما له ، وإنما يفعل من ذلك الواجب في شريعته ، وقد يدع الانتقام لنفسه ، لما جبله الله عليه من العفو وكريم الخلق ﷺ ، ومعنى هذا الحديث والله أعلم ، التأنيس للمسبوب لئلا يستولي عليه الشيطان ، ويقنطه ويوقع بنفسه أن سيلحقه من ضرر سبه ما يحبط به عمله إذا سبه ﷺ هو دعاء على المسبوب ، ودعاؤه مجاب ، فسأل الله أن يجعل سبه للمؤمنين قرية عنده يوم القيامة وصلاة ورحمة ، ولا يجعله نقمة ولا عذابا^(٣) .

وقال الحافظ : « وفي هذا الحديث كمال شفقتة ﷺ على أمته وجميل خلقه ،

(١) المفهم ٥٨٣/٦ - ٥٨٥ .

(٢) التوبة : الآية (١٢٨) .

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/١١٥ - ١١٦) .

وكرم ذاته حيث قصد مقابلة ما وقع منه بالجبر والتكريم ، وهذا كله في حق معين وفي زمن واضح ، وأما ما وقع منه بطريق التعميم لغير معين حتى يتناول من لم يدرك زمنه ﷺ فما أظنه يشملهُ ، والله أعلم^(١) .

* * *

(١) الفتح (٢٠٦/١١) .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- لنبية محمد ﷺ: قل يا محمد: ما يوحى إلي ربي إلا أنه لا إله لكم يجوز أن يعبد إلا إله واحد، لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي ذلك لغيره ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾» يقول: فهل أنتم مدعون له أيها المشركون العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك، ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتكم^(١).

قال ابن عاشور: «عقب الوصف الجامع لرسالة محمد ﷺ من حيث ما لها من الأثر في أحوال البشر بوصف جامع لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كل متبع لها، وهو الإيمان بوحداية الله تعالى، وإبطال إلهية ما سواه، لنبذ الشرك الميثوث بين الأمم يومئذ. وللاهتمام بذلك صدرت جملة بالامر بأن يقول لهم لاستصغاء أسماعهم.

وصيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها لأن مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرع عليه، فالدعوة إليه هي مقادة الاجتلاب إلى الشريعة كلها، إذ كان أصل الخلاف يومئذ بين الرسول ومعانديه هو قضية الوحدانية ولذلك قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^(٢).

وما كان إنكارهم البعث إلا لأنهم لم يجدوه في دين شركهم إذ كان الذين وضعوا لهم الشرك لا يحدثونهم إلا عن حالهم في الدنيا فما كان تصلبهم في إنكار البعث إلا شعبة من شعب الشرك. فلا جرم كان الاهتمام بتقرير الوحدانية تضييقا لشقة الخلاف بين النبي وبين المشركين المعرضين الذين افتتحت السورة بوصف

(٢) ص: الآية (٥).

(١) جامع البيان (١٧/١٠٧).

حالهم بقوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ❶ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُخَذِّبُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ❶ لَا هِمَّةَ قُلُوبُهُمْ ❶ ❶ (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾

★ غريب الآية:

أذنتكم على سواء: أعلمتكم حتى صرت أنا وأنتم في العلم به سواء.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عن الإقرار بالإيمان بأن لا إله لهم إلا إله واحد فأعرضوا عنه وأبوا الإجابة إليه فقل لهم قد ءاذنتكم على سواء» يقول: أعلمهم أنك وهم على علم من أن بعضهم لبعض حرب، لا صلح بينكم ولا سلم.

وإنما عني بذلك قوم رسول الله ﷺ من قريش كما حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثني حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ فإن تولوا: يعني قريشاً.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه: قل وما أدري متى الوقت الذي يحل بكم عقاب الله الذي وعدكم فينتقم به منكم أقرب نزوله بكم أم بعيد؟^(١).

قال ابن كثير: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي أعلمتكم أنني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) وقال: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْصِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾^(٣) أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

(١) جامع البيان (١٧/١٠٧).

(٢) يونس: الآية (٤١).

(٣) الأنفال: الآية (٥٨).

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده^(١).

قال الرازي: «أما قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: ﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة، ومن عذاب الدنيا ثم قيل: نسخه قوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾^(٢) يعني منهما، فإن مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه.

وثانيها: المراد أن الذي آذنهم فيه من الحرب لا يدري هو قريب أم بعيد لثلا يقدر أنه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذي يوحى إليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت، فلذلك أمره أن يقول: إنه لا يعلم قربه أم بعده. تبين بذلك أن السورة مكية، وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة.

وثالثها: أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار، وإن كنت لا أدري متى يكون، وذلك لأن الله تعالى لم يطلعني عليه^(٣).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا وصدوا عما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ﴾ أَدَانْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ أي أعلمتكم أنني حرب لكم كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية أشارت إليه آيات أخر، كقوله: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ رِيْءَ سَيِّئَاتِهِ فَإِنْ يُدْعِ إِلَى الْيُثْمِ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾^(٤) أي ليكن علمك وعلمهم بنذ العهود على السواء. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِيْ عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٥). وقوله: ﴿أَدَانْتُكُمْ﴾ الأذان: الإعلام. ومنه الأذان للصلاة. وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ﴾^(٦) الآية، أي إعلام منه، قوله: ﴿فَأَذِّنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾^(٧) الآية، أي اعلما. ومنه قول الحرث بن حِلْزَةَ:

أذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الشواء
يعني أعلمتنا بينها^(٨).

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٣) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣٤).

(٥) يونس: الآية (٤١).

(٧) البقرة: الآية (٢٧٩).

(٢) الأنبياء: الآية (٩٧).

(٤) الأنفال: الآية (٥٨).

(٦) التوبة: الآية (٣).

(٨) أضواء البيان (٤/ ٦٩٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾
 ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الذِّكْرِ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين إن الله يعلم الجهر الذي تجهرون به من القول، ويعلم ما تخفونه فلا تجهرون به سواء عنده خفيه وظاهره، وسره وعلائيته، إنه لا يخفى عليه منه شيء، فإن آخر عنكم عقابه على ما تخفون من الشرك به أو تجهرون به فما أدري ما السبب الذي من أجله يؤخر ذلك عنكم؟ لعل تأخير ذلك عنكم مع وعده إياكم، لفتنة يريد بها بكم، ولستمعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه، ثم ينزل بكم حيثئذ نقمته»^(١).

قال الرازي: «المقصود منه الأمر بالإخلاص وترك النفاق، لأنه تعالى إذا كان عالما بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ في الإخلاص.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الذِّكْرِ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ففيه وجوه:
 أحدها: لعل تأخير العذاب عنكم.

وثانيها: لعل إيهام الوقت الذي ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أي بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم أم لا.

وثالثها: قال الحسن: لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار.

ورابعها: لعل تأخير الجهاد فتنة لكم إذا أنتم دتمت على كفركم، لأن ما يؤدي إلى الضرر العظيم يكون فتنة، وإنما قال لا أدري لتجوز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة.

وخامسها: أن يكون المراد وإن أدري لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم،

لأنه زيادة في عذابكم إن لم تؤمنوا لأن المعرض عن الإيمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد، وإذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه^(١).

قال ابن كثير: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾^(٢) أي إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَفَرِ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعُ إِلَى حِينٍ﴾^(٣) أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومنع إلى حين^(٤).

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتُمونه. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(٦) في الموضعين، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٨)، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَفَرِ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعُ إِلَى حِينٍ﴾^(٩).

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٢/٢٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/٣٨٣).

(٣) الملك: الآية (١٣).

(٤) المائدة: الآية (٩٩).

(٥) ق: الآية (١٦).

(٦) طه: الآية (٧).

(٧) أضواء البيان (٤/٦٩٦).

(٨) البقرة: الآية (٣٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : قل يا محمد: يا رب افصل بيني وبين من كذبني من مشركي قومي وكفر بك، وعبد غيرك بإحلال عذابك ونقمتك بهم، وذلك هو الحق الذي أمر الله تعالى نبيه أن يسأل ربه الحكم به، وهو نظير قوله - جل ثناؤه - : ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(١).. وقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يقول - جل ثناؤه - : وقل يا محمد: وربنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته الذي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله ﴿هَلْ مَدَّآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّخَرَ وَتُسْخَرُونَ﴾^(٢) وقولكم: ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾^(٣) وفي كذبكم على الله - جل ثناؤه - وقيلكم ﴿أَتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾^(٤) فإنه هين عليه تغيير ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم، على ما تصفون من ذلك»^(٥).

قال الرازي: «فيه وجوه:

أحدها: أي: ربي اقض بيني وبين قومي بالحق أي بالعذاب. كأنه قال: اقض بيني وبين من كذبني بالعذاب، وقال قتادة: أمره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾^(٦) فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر.

وثانيها: افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصروني عليهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل والتكذيب

(١) الأعراف: الآية (٨٩).

(٢) الأنبياء: الآية (٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٥).

(٤) مريم: الآية (٨٨) والأنبياء: الآية (٢٦).

(٥) جامع البيان (١٧/١٠٨-١٠٩).

(٦) الأعراف: الآية (٨٩).

كأنه سبحانه قال : قل داعيا لي : ﴿رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ﴾ وقل متوعدا للكفار : ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت ، أي قل لأصحابك المؤمنين ، وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل ، أي من العون على أباطيلهم .

وثانيها : كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم^(١) .

قال السعدي : «﴿قُلْ رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ﴾ أي : بيننا وبين القوم الكافرين ، فاستجاب الله هذا الدعاء ، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة ، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها .

﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ﴾ أي : نسأل ربنا الرحمن ، ونستعين به على ما تصفون ، من قولكم سنظهر عليكم ، وسيضمحل دينكم ، فنحن في هذا ، لا نعجب بأنفسنا ، ولا نتكل على حولنا وقوتنا ، وإنما نستعين بالرحمن ، الذي ناصية كل مخلوق بيده ، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته ، وقد فعل ، ولله الحمد^(٢) .

قال ابن عاشور : «استئناف ابتدائي بعدما مضى من وصف رسالة محمد ﷺ وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ . قصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوة المستقبلية لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ﴾^(٣) إلى هنا .

وفي أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالالتجاء إليه والاستعانة به بعد ما قال له : ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقُلْ مَا أَدْنٰكُمْ عَلٰى سَوَآءٍ﴾ رمز إلى أنهم متولون لا محالة ، وأن الله سيحكم فيهم بجزاء جرمهم لأن الحكم بالحق لا يغادرهم ، وإن الله في إعانته لأن الله إذا لقن عباده دعاء فقد ضمن لهم إجابته كقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٤) ونحو ذلك ، وقد صدق الله وعده ، واستجاب لعبده ، فحكم في هؤلاء

(١) التفسير الكبير (٢٢/٢٣٤-٢٣٥) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦٩) .

(٣) الأنبياء : الآية (٤٨) .

(٤) البقرة : الآية (٢٨٦) .

المعاندین بالحق يوم بدر .

والمعنى : قل ذلك بمسمع منهم إظهارا لتحديه إياهم بأنه فوض أمره إلى ربه ليحكم فيهم بالحق الذي هو خضد شوكتهم وإبطال دينهم ؛ لأن الله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق^(١) .

قال الشنقيطي : « ما أمره أن يقوله هنا قاله نبي الله شعيب كما ذكره الله عنه في قوله : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾^(٢) . وقوله : ﴿ أَفْتَحْ ﴾ أي احكم كما تقدم . وقوله : ﴿ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي تصفونه بالسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد وغير ذلك . كما قال تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ ﴾^(٣) الآية ، وقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ ﴾^(٤) الآية . وما قاله النبي ﷺ في هذه الآية قاله يعقوب لما علم أن أولاده فعلوا بأخيهم يوسف شيئا غير ما أخبروه به . وذلك في قوله : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^(٥) والمستعان : المطلوب منه العون . والعلم عند الله تعالى^(٦) .

قال الرازي : « قال القاضي : إنما ختم الله هذه السورة بقوله : ﴿ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ ﴾^(٧) لأنه ﷺ كان قد بلغ في البيان الغاية لهم ، وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه ، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفا أن المقصود مصلحتهم ، فإذا أبوا إلا التماذي في كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق ، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره ، وإما بتأخير ذلك فإن أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب ، وما روي أنه ﷺ كان يقول ذلك في حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالأستعجال للأمر بمجاهدتهم . وبالله التوفيق^(٨) .

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/١٧٥) .

(٢) الأعراف : الآية (٨٩) .

(٣) النحل : الآية (٦٢) .

(٤) النحل : الآية (١١٦) .

(٥) يوسف : الآية (١٨) .

(٦) أضواء البيان (٤/٦٩٦) .

(٧) التفسير الكبير (٢٢/٢٣٥) .

فهرس الموضوعات

سورة طه

- أغراض السورة ٥
- قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ ﴿ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ﴿ إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ ٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل العلم والتفقه في الدين ١٠
- قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ ١٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢
- قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ١٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الاستواء وأنها من الصفات الفعلية ١٤
- قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ ٢٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٣
- قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ٢٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٤
- قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ٢٧

- ٢٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾ ٢٩
- ٢٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ يَتُوسَى ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ۖ﴾ ٣١
- ٣١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الصلاة في النعال ٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۖ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۖ﴾ ٣٤
- ٣٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من نام عن صلاة أو نسيها أنه يصليها متى ذكرها ٣٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُخْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۖ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ۖ﴾ ٤٠
- ٤٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُوسَى ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ۖ﴾ ٤٧
- ٤٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْهَا يَتُوسَى ۖ فَالْقَنَاهَا فإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۖ﴾ ٥٠
- ٥٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۖ﴾ ٥٢
- ٥٢ لِيُزِيلَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ۖ﴾

- ٥٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ قَالَ رَبِّ اسْمُرْ لِي صَدْرِي ۖ وَسِرِّ لِي أَمْرِي ۖ ۝١٦١ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِن لِّسَانِي ۖ يَقْفُوهَا قَوْلِي ۖ ۝١٦٢ وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۖ ۝١٦٣ هَٰزُونَ أَخِي ۖ ۝١٦٤ أَشَدُّ بِؤْسًا زُرِّي ۖ ۝١٦٥ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۖ ۝١٦٦ كَيْ سُبْحَكَ كَثِيرًا ۖ ۝١٦٧ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ۖ ۝١٦٨ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ ۝١٦٩ ﴾ ٥٤
- ٥٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ۖ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۖ ۝١٧٠ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمَمِكَ مَا يُوحَىٰ ۖ ۝١٧١ أَيْنَ أَقْدِفِهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفِهِ فِي الْيَرِّ فَلْيَلْفِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ۖ ۝١٧٢ ﴾ ٦٢
- ٦٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۖ ۝١٧٣ ﴾ ٦٥
- ٦٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العين لله تعالى
 قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَوِي أُمَمُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ يَفْقَهُ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۖ ۝١٧٤ ﴾ ٧٠
- ٧٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفُتْنَاكَ فُتُونًا ۖ ۝١٧٥ ﴾ ٧٢
- ٧٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ فَلَيَبْتَغَيْنَّ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ۖ ۝١٧٦ ﴾ ٧٤
- ٧٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَأَصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي ۖ ۝١٧٧ ﴾ ٧٥
- ٧٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النفس لله تعالى
 قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا بَيْنِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي ۖ ۝١٧٨ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ

- ٧٧ طغى ﴿٤٦﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ ﴿٤٦﴾
- ٧٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ لَا نَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾
- ٨٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى : ﴿فَأَنبِئَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾
- ٨٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾
- ٨٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قوله ﷺ له رقل : سلام على من اتبع الهدى
- ٨٥ قوله تعالى : ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَقَوْلَى﴾ ﴿٤٨﴾
- ٨٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى : ﴿قَالَ فَمَنْ رَبِّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾
- ٩٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى : ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥١﴾
- ٩٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٢﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٣﴾
- ٩٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ . ١٠٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٠٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾ ١٠٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٠٧
- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَاجَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى﴾ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأَيِّنَّاكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿٥٨﴾
- قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ صُحًى﴾ ﴿٥٩﴾ ١٠٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٠٩
- قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ﴿٦٠﴾ ١١٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١١٤
- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمَ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النِّجْوَى﴾ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سَحَرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَى﴾ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ ﴿٦٤﴾ ١١٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١١٦
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُتْلَىٰ وَإِمَّا أَنْ تُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَىٰ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى﴾ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِلَّا تَنْفَخَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿٧٠﴾ ١٢٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢٣
- قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَصْلَابِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧١﴾ ١٣٠

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٣٠
- قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَتْنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿٧٧﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ﴿٧٨﴾ ١٣٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٣٥
- قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّكُمْ مُجْرِمًا فَإِنْ لَكُمْ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ ﴿٧٤﴾ ١٤٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ ١٤١
- قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿٧٦﴾ ١٤٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة ١٤٤
- قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ ﴿٧٦﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٧﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ ﴿٧٨﴾ ١٤٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٦
- قوله تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْبَيْنَاكُمْ مِنْ عِدْوِكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ ﴾ ﴿٨٥﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ ﴿٨٦﴾ وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ ﴿٨٧﴾ ١٥٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن يوم عاشوراء يوم نجى الله فيه موسى ، وقد أمر النبي ﷺ بصيامه ١٥٦

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ (٨٦) قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَيَّ أُثْرِي
وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿ ٨٧ ﴾

١٥٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٨

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى
إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَنْقُورُ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ
الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿ ٨٦ ﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا
مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمُ فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿ ٨٧ ﴾
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿ ٨٨ ﴾ أَفَلَا
يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿ ٨٩ ﴾

١٦٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٠

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُورُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَالْتَبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿ ٩١ ﴾

١٦٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٨

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَهْدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ (٩٢) أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَبْتَ أَمْرِي
﴿ ٩٣ ﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿ ٩٤ ﴾

١٧٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٣

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعِي ﴾ (٩٥) قَالَ بَعَثْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿ ٩٦ ﴾
قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ
وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا
﴿ ٩٧ ﴾ إِنَّكَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿ ٩٨ ﴾

١٧٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٧

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا

- ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿١٩١﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٩١﴾ ١٨٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٠
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٩٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٩٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٩٤﴾ ١٨٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٩٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٩٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٩٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٩٨﴾﴾ ١٨٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الصور ١٩٢
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٩٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿٢٠٠﴾ ١٩٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الشفاعة ١٩٤
- قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ﴿٢٠١﴾ ١٩٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وأظلم الظلم الشرك بالله ١٩٧
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿٢٠٢﴾ ٢٠٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٠
- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ

- ٢٠١ ﴿١٣٦﴾ مَحْدُثُ لَهُمْ ذِكْرُكَ ﴿١٣٦﴾
- ٢٠١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿فَفَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١٣٦﴾
- ٢٠٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ﴿١٣٧﴾
- ٢٠٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب تسمية الإنسان إنساناً
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٣٨﴾ فَقُلْنَا يَنْتَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَقُ﴾ ﴿١٣٩﴾
- ٢٠٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ الْأَنْجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿١٤٠﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٤١﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَادِمُ هَلْ أَتَىٰكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكُ لَا يَبُلَىٰ ﴿١٤٢﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٤٣﴾ ثُمَّ اجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٤٤﴾﴾
- ٢١١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٤٥﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٤٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٤٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٤٨﴾﴾
- ٢١٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات عذاب القبر
- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٤٩﴾﴾
- ٢٢٢ ﴿١٥٠﴾

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٢
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن عذاب الدنيا أهون عن
 عذاب الآخرة ٢٢٣
 قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَنتِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ٢٢٥
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٥
 قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ ٢٢٧
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٧
 قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ ٢٢٨
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٨
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل صلاة الصبح والعصر
 قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ٢٣١
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٣١
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الدنيا والتسابق إلى زهرتها
 قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ ٢٣٧
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٣٧
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية ٢٣٨
 قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ٢٤٣
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٤٣
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن القرآن أعظم آيات النبوة

- لشموليته وبقائه ، ولما حواه من علم وتشريع ٢٤٤
 قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّجَعْ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَىٰ ۖ ﴾ ٢٤٤ قُلْ كُلُّ مُتَرَيِّصٍ فَتَرَبَّصُوا
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۖ ﴾ ٢٤٥

سورة الأنبياء

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة الأنبياء ٢٤٩
 أغراض السورة ٢٤٩
 قوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾ ٢٥٣
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٣
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهل الغفلة ٢٥٤
 قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَصْغَوْهُ وَّهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَّاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۝ ﴾ ٢٥٦
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٦
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سؤال أهل الكتاب ٢٥٧
 قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۝ ﴾ ٢٥٩
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٩
 قوله تعالى : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْأَسْوَءَ وَتَبْصُرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ ٢٦١
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦١
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في السحر ٢٦٢
 قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا بِشَايِعٍ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ ۝ ﴾ ٢٦٤
 أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦٤

- قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَرْثُوهَ﴾ ﴿٦﴾ ٢٦٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦٩
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ ﴿٧﴾ ٢٧٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِيْنَ﴾ ﴿٨﴾ ٢٧٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٣
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِيْنَ﴾ ﴿٩﴾ ٢٧٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٦
- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيْهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾ ﴿١٠﴾ ... ٢٧٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٨
- قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آٰخِرِيْنَ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُوْنَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيْهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾ ﴿١٣﴾ ٢٨٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٠
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْوَلِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيْدًا خَمِيْدِيْنَ﴾ ﴿١٥﴾ ٢٨٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٣
- قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِيْنٍ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَّتَّخِذَ لَهَؤُا لَآتُخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِيْنَ﴾ ﴿١٧﴾ ٢٨٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٥
- قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُوْنَ﴾ ﴿١٨﴾ ٢٨٩

- ٢٨٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُكُمْ لَا يَسْتَكَفِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ١٨ يَسْتَحْسِرُونَ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿ ١٩ ﴾ ٢٩١
- ٢٩١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ ﴾ ٢٠ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿ ٢١ ﴾ ٢٩٣
- ٢٩٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ ٢٢ ٢٩٦
- ٢٩٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ٢٣ ٢٩٨
- ٢٩٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ ٢٤ ٣٠١
- ٣٠١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ٢٥ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ ٣٠٣
- ٣٠٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ٣٠٥
- ٣٠٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ٣٠٦
- ٣٠٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شفاعة النبي ﷺ للخلائق ،
 والفرق بين الشفاعة المنفية والمثبتة ٣٠٧

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْسَ بِنَذِيرٍ لَهُمْ﴾

كذالك تجزي الظالمين ﴿٢٩﴾ ٣١٢

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٢

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَّاهُمَا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٤

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٩

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قدرة الله تعالى تتجلى في

الماء الذي كان مصدرا للخلق ولا تتم الحياة إلا به ٣٢٠

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ٣٢٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٣

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٥

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

﴾ ٣٢٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٨

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ٣٣٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٠

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَلَيْسَ الَّذِي

يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ٣٣٤

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٤

- قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٧) ﴿... ٣٣٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية ٣٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) ﴿... ٣٤١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤١
- قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا
- عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٢٩) ﴿... ٣٤٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية ٣٤٤
- قوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
- ﴾ (٣٠) ﴿... ٣٤٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا
- كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣١) ﴿... ٣٤٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٨
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ
- رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٣٢) ﴿... ٣٥٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٥٠
- قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا
- هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (٣٣) ﴿... ٣٥٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٥٣
- قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا
- نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٣٤) ﴿... ٣٥٦

- ٣٥٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾
 ٣٦١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾
 ٣٦٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾
 ٣٦٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الميزان والحساب،
 والعامل من استعد لذلك
 ٣٦٧ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾
 ٣٧١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾
 ٣٧٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾
 ٣٧٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾
 ٣٧٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيَ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبِيرًا لَّمْ يَعْلَمَهُمْ إِلَهِهُمُ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

٣٨٣

٣٨٣

٣٨٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كذبات إبراهيم عليه السلام

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاهُ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ لَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

٣٩١

٣٩١

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِلَا إِلَهِ سِوَاهِهِمْ لَعَبَدْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

٣٩٣

٣٩٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَبْنَؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

٣٩٥

٣٩٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عداوة الوزغ للتوحيد وما أكثر

الوزغ في هذا الزمان الذين ينفخون في الشرك ضد التوحيد والبدعة ضد

٣٩٧

السنة

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

٤٠٠

٤٠٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

٤٠٣

٤٠٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَرْحَمِينَ إِلَيْهِمْ فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ

- ٤٠٦ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٢﴾
- ٤٠٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ طَاءَ آيَنُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحَيْنَهُ مِن الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبْثِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَسَقِينَ﴾ ﴿٧١﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ
- ٤٠٩ ﴿٧٥﴾
- ٤٠٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٤﴾ وَنَصْرَتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَأَعْرِضْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٦﴾
- ٤١٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾
- ٤١٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه إذا اجتهد الحاكم فأصاب
- فله أجران وإذا أخطأ فله أجر
- ٤١٨ قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ..
- ٤٣٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل داود عليه السلام ومقدار عمره
- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾
- ٤٣٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨٢﴾
- ٤٣٧ ﴿٨٣﴾

- ٤٣٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَأَنبُوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْفِيٌّ وَأَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُمْ أَهْلَهُمْ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾
- ٤٤٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل أيوب عليه السلام وما أصابه من الضر
- ٤٤٧ قوله تعالى: ﴿وَأَسْعَدِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾
- ٤٥٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمُ وَبَيَّنَّاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾
- ٤٥٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مناقب يونس وما اتصف به من الدعاء المستجاب وما ورد في المفاضلة بين الأنبياء
- ٤٥٧ قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُمْ وَلَهُمْ زُجَّةٌ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾
- ٤٥٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَحْصَيْنَتْ فَزَحْمًا فَتَفَخَّنَا فِيهَا مِنْ زُوجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩١﴾
- ٤٦٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٩٢﴾

- ٤٦٦ ﴿٩٦﴾ كَلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٦﴾
- ٤٦٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُمْ كَانُونَ﴾ ﴿٩٤﴾
- ٤٦٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٦٩ قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾
- ٤٧١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾
- ٤٧٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٧٣ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة يأجوج ومأجوج
- قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا
- ٤٨٣ ﴿يَتَوَلَّوْنَ قَدًّا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٩٧﴾
- ٤٨٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
- ٤٨٥ ﴿وَرُدُّونَ﴾ ﴿٩٨﴾
- ٤٨٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٩٩﴾
- ٤٨٧ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾
- ٤٨٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٩١ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿١٠١﴾
- ٤٩١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ
- ٤٩٣ ﴿١٠٢﴾

- ٤٩٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿لَا يَخْزُهُمْ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَاهُمْ مَلَكُوتَهُ هَذَا يَوْمُكُمْ
 الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ١٥٧ ٤٩٥
- ٤٩٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أولياء الله ﷺ ٤٩٦
 قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ
 خَلْقٍ نَعِيدُهُمْ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ١٥٨ ٤٩٨
- ٤٩٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في طي الله السماء وأن طيها
 يكون بيده اليمنى ٤٩٩
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ
 الصَّالِحُونَ﴾ ١٥٩ ٥٠٢
- ٥٠٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ ١٦١ ٥٠٦
- ٥٠٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ١٦٢ ٥٠٨
- ٥٠٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كمال شفقتة ﷺ على أمته . ٥١٥
 قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ﴾ ١٦٣ ٥٢١
- ٥٢١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ أَقْرَبُ أَمَّ بَعِيدٌ مَا
 تُوعَدُونَ﴾ ١٦٤ ٥٢٣
- ٥٢٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية

٥٢٥	قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّكُمْ فَتَنَّا لَكُمْ وَمَنْعُ إِلَى حِينٍ ﴿١١٥﴾
٥٢٥	أقوال المفسرين في تأويل الآية
٥٢٧	قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾
٥٢٧	أقوال المفسرين في تأويل الآية
٥٣١	فهرس الموضوعات

* * *